أدب الإسلام

« المسلمون مسوقون بنابل دينهم الى طلب »
« ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد »
« ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ولا »
« يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم »
(الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده)

(تأليف)

لصالح أفندي حمدي حماد

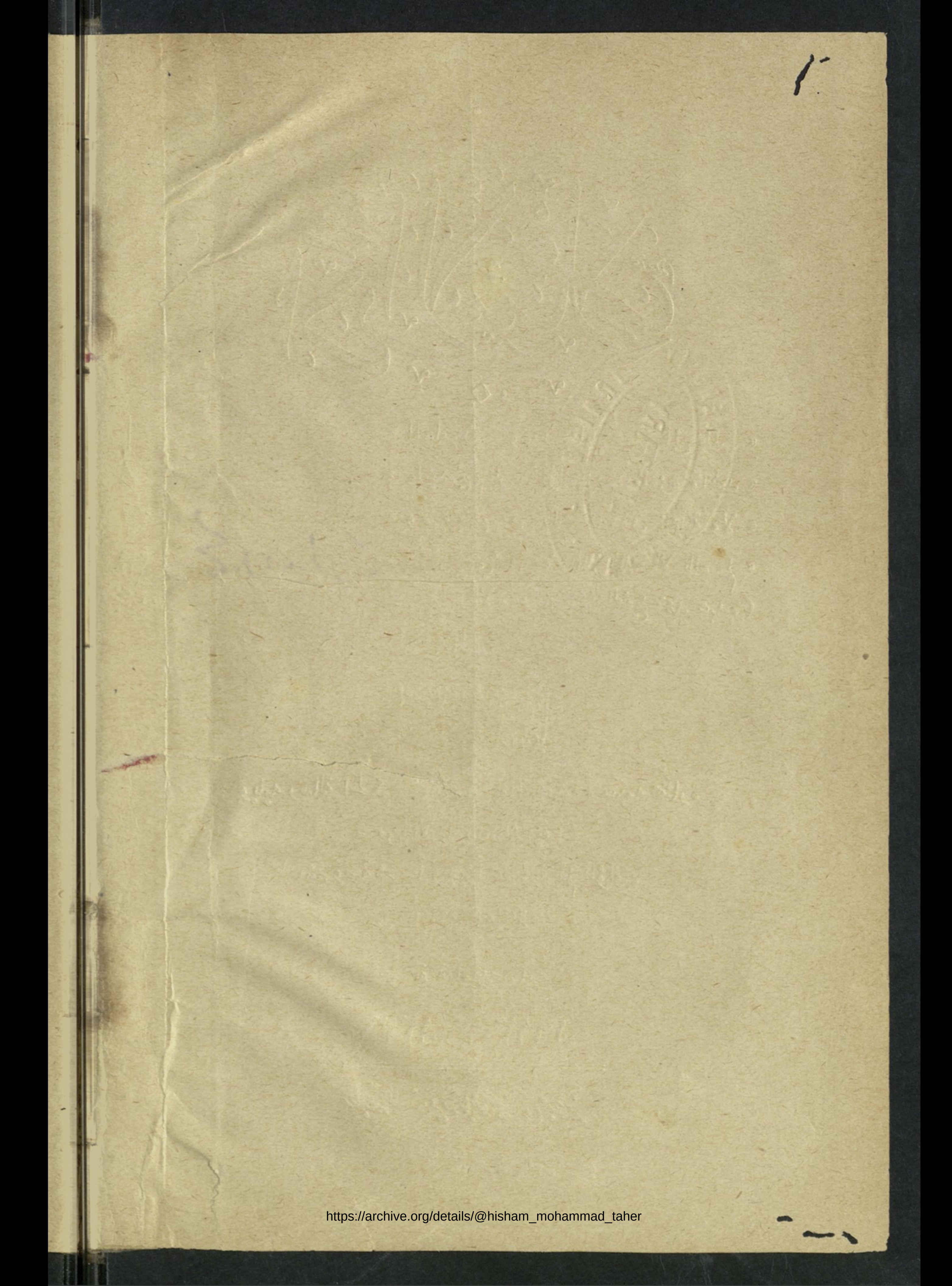
☼ ويليه رسالة الحكم النبوية وهي مائة حكمة وحكمة مختارة ☼
(من الاحاديث الشريفة)
(مشروحة شرحاً وجيزاً عصرياً بقلم المؤلف)

☼ الطبعة الثانية ☼

على نفقة امين هنديه

١٣٣١ - ١٩١٣

مطبعة هندية بالموسكي بمصر





رفع الكتاب

(الى كريم الاعتاب السنية)

أعتاب سمو مليكنا المعظم وخديونا الاكرم عباس باشا الثانى أعز الله ملكه وأيد عادل سلطانه

بعلو جدك يسعد الدهر   والى فخارك ينتهي الفخر

مولاى :

أرفع الى مقامكم السامى وأنا العاجز الضعيف هذا الكتاب ليشرّف المؤلف والمؤلف بفخر هو كل الفخار ، وشرف هو منتهى الشرف ، وما أنا يا مولاى الا غرس النعمة وخادم تلك السدة كما كان أبى من قبل غرس نعمة الجد الاكبر وخادم الاباء الاكرمين وان اختلف عملانا ، وان منتهى فخري وكل أمنيتي ان يحظى كتابي هذا الصغير الكبير الذي تطفلت بوضعه في « أدب الاسلام » ديننا القويم وروح المدنيـة الصحيحة بالرضا والقبول لدى مولاى ويشرف باسمه الكريم أيد الله تعالى سمو مولاى المليك بروح منه وأعز ملكه ودولة نهضة عصره الزاهي الزاهر وحفظ مولاى ولي العهد وسائر الانجال الكرام آمين آمين

هذا واني لسمو مولاى الخادم الخاضع الامين

صالح حمدي حماد

ابن المرحوم حماد باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مقدمة الطبعة الثانية ﴾

نعم الذخر كتاب تحرى فيـه واضعه النفع العام وهو ما توخيته بحمد الله في كل كتبي وهذا الكتاب المسمى « أدب الاسلام » احدها على اني لا أرى في الدلالة على قيمة هذا الكتب الادبية وقد مثل للطبع مرة ثانيـة على ذمة حضرة الكتبي المحترم امين افندي هنديه سوى الاتيان على كلمة سمو أميرنا المحبوب التي قالها لي مشجعاً متعطفاً حين مثلت بين يديه الكريمتين منذ خمسة أعوام وقدمت الى ذاته العليـة نسخة من طبعته الاولى حيث قال حفظه الله تعالى وأدام تأييده وتمكينه « كنت اعهد في المرحوم والدك على ما رأيت منه وسمعت عنه الاخلاص في كل شأنه وعمله وان لك فيه خير قدوة ومثال واني أسر بمـا قدمته وتقدمه لي ان شاء الله من هذه الآثار المفيدة واستزيدك اجتهاداً وعناية بها وان امثال هـذه الآثار العصرية لتنفع ليس فقط بلادنا بل كثيراً من البلدان الشرقيـة حيث قد اضحت بلادنا المصرية بفضل نهضتها الحديثة وارتقاء طباعتها في مقدمة هذه البلدان ومستمد معارفها في الادب والدين واللغة »

القاهرة في ١٠ رمضان المبارك سنة ١٣٣٠ «ص»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منح الانسان نعمة العقل ، ووهبه مواهب الفكر ، وخصه بالحكمة وفصل الخطاب ، والهمه التقوى والزمه كلتها ، وتعبده بالعلم والمعرفة بذاته وصفاته والوقوف عند حدوده وأوجب عليه تحري الادب ونشد الكمال ، وتتطلب جليل الخلال وجميل الفعال ، وجعل الفلاح مقروناً بهذا كله في الدنيا والآخرة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أعظم مرسل بمكارم هذه الاخلاق وأجل مبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً .

أما بعد فهذه رسالة في « أدب الاسلام » جاءت « كقطرة » من بحره الزاخر أتيحت لي الفرصة السعيدة من عون الله تعالى وحسن تيسيره وتوفيقه بان ألتقطها واجمعها بين دفتي هذا الكتاب معتمداً في استخراجها على أجلة الكتب الاسلامية والاسفار المحمدية مما يمكن تشبيه حال صنيعي له فيه بحال ذلك الانسان الذي رأى نفسه في وسط حديقة غناء دعته رائحة أزهارها الطيبة وشذى عطرها ومناظرها الجميلة الى ان يلتقط من قطوفها الدانية فجعل يقتطف زهرة من هنا وزهرة من هناك فما لبث ان رأى في يده « باقة » من الازهار نضرة المنظر ذكية الاريج جديرة بان تقدم الى « عروس العقول » من « عالم الادب العصري » لا لانها قد جمعت فأوعت او انه قد روعى الحسن والتدقيق

في إختيار اشيائها بل لانها مع ما قد راعيت فيهـا من الايجاز والبساطة رتبتها و نسقتها كما ترى تنسيقاً « يوافق أذواقنا العصرية وقابلياتنا الزمانية وفهمنا لآداب ديننا وما يجدر بنا العمل به منـه » ولكل عصر ذوقه ولكل جيلٍ قابلياته ولكل مقام مقال ولكل أيام دولة ورجال .

والذي دعاني الى التطفل على وضع هـذه الرسالة على هذا النمط مع قصر الباع وقلة البضاعة انمـا هو ما قام بالنفس من باعث الرغبة في خدمة «الادب العصري الحي بشيء حي يناسبه من ادب الاسلام» فمن ثم تكون رسالتي هذه بالنسبة الى المسلم العصري « كمذكرة » او « مفكرة » صغيرة جلية بآداب دينه القويم وبالنظر الى غير المسلم تكون « كأُنموذج » بسيط في التعريف بالحق عن المبادئ الاسلامية في أدب الاعتقادات والمعاملات والنظامات ثم في ادب النفوس فيما بين الخلق و بعضهم وفيمابينهم وبين الخالق جل شأنه وعز سلطانه والاسلام في كل هذا يرمى الى أشرف المقاصد العمرانية واسمي الغايات الانسانية كما ستراه مبسوطاً بقدر مايناسب ما اشترطت من الايجاز في هـذه الرسالة ، ولقد قال العلامة المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده هذه الجملة بل هذه الحكمة الجليلة الكاشفة عن مرمى المبادئ الاسـلامية وقد حليت بها صدر هذا الكتاب « المسلمون مسوقون بنابل دينهـم الى طلب مايكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولا يرضـيهم من ذلك مادون الغاية ولا يتوفر شيئ من وسائل ذلك الا بالعـلم » ولا أرى القارئ الكريم وقد اطلع على هذه الجملة الحـكيمة من الامام الحـكيم رحمه الله الا سابقي الى القول بأن « نعمت الغاية ونعمت الواسطة »

القاهرة في غاية محرم الحرام سنة ١٣٢٥ هـ صالح حمدي حماد

﴿ الباب الاول ﴾

(أدب الاعتقادات)

مبنى الاسلام على التوحيد ـ توحيد العرب قبل الاسلام ـ دلائل الكون المنصوبة للعقل الدالة على الصانع ـ الايمان بالرسل والملائكة ـ الايمان بما بعد الموت ـ تفصيل مجمل ـ نظام العالم دليل الصانع ـ نظرية حدوث العالم ـ هو الاول والآخر ـ تعالى ان يكون جوهراً متحيزا ـ نفى الجسمية والعرضية ـ نفى الاختصاص بجهة ـ معنى الاستواء على العرش ـ الرؤية ـ المعية ـ الصفات ـ القدرة ـ العلم ـ الحياة ـ الارادة ـ السمع والبصر ـ الكلام ـ قدم الصفات ـ افعال الله تعالى ـ الجزء الكسبي الاختيارى فى الانسان ـ نظرية تكليف ما لا يطاق ـ نظرية ايلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ـ معرفة الله واجبة بايجاب الله ـ بعثة الرسل ـ بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ الحشر والنشر ـ سؤال الملكين ـ عذاب القبر ـ الميزان والصراط حق ـ الجنة والنار حق .

مبنى عقيدتنا معشر أهل الاسلام على التوحيد الخالص لله تعالى والقيام بتأدية العبادة له عز وجل لانه المستحق بالحق للعبادة . ومدار القرآن المجيد كله في العقائد إنما يدور على هذا القطب وتقرير المحاجة عنه بالتى هى أحسن قال تعالى « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو » « إنما الله اله واحد سبحانه »

« قل هو الله احد الله الصمد » « الله لا إله الا هو الحي القيوم
وقال تعالى في عبادته وحده « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها
واحداً » « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين
حنفاء » وقال سبحانه وتعالى في النهى عن الشرك والمحاجة عن
الوحدانية « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » « ولا تدع مع
الله الها آخر» « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون
ذلك لمن يشاء » « لو أن فيهما آلهة الا الله لفسدتا » « قل لو
كان معه آلهة كما يقولون اذن لابتغوا الى ذى العرش
سبيلا » الى غير ذلك من الآيات الباهرات في الدلالة على
وحدانية الله تعالى ووجوب افراده بالعبادة مصداقا لقوله
تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » مما كان
متحرى الاديان السماوية قبل ديننا والرسل الكرام في
دعوتهم قبل رسولنا صلى الله عليه وعليهم وسلم كما قال تعالى
مبيناً لذلك شرع « لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا
اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين
ولا تتفرقوا فيه » « وما أرسلنا قبلك من رسول الا نوحي اليه
أنه لا اله الا أنا فاعبدون »

ولقد كان التوحيد شائعاً في شبه جزيرة العرب قبل الاسلام منذ عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام غير أنه على تمادى الدهور دخلت عليهم الاحداث وعبادة الاصنام فكانوا كما وصفهم الله تعالى في القرآن المجيد « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » فجاء الاسلام ماحياً لما كانوا عليه مجدداً للتوحيد على أكمل الوجوه وأشرف المبادى . ناسخاً ما تقدمه من الاحداث والتغييرات التي شابت الدين الخالص بعد الرسل واضعاً مع ذلك عن الامم والشعوب كثيراً من الآصار وأغلال التكاليف التى وضعتها في أعناقهم التقاليد التى جروا عليها ولا غرو فالاسلام هو بالحق دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها وفي القرآن المجيد « ان الدين عند الله الاسلام » « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه »

ودلائل الوحدانية واثبات الصانع تعالى المنصوبة للعقل في عالم الحس والمشاهدة من الطبيعة بحذافيرها قد نص عليها هذا القرآن المجيد الذى يهدى للتى هى أقوم قال تعالى « الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فاخرج به

من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها »

وقال في خلق الانسان وتدرجه فى نشأته « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ، هو الذى يحيي ويميت فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون »

وقال في الارض والجبال والليل والنهار وما أشبه ذلك « الم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً »

وقال في آية أخرى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد

موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون »

والآيات في القرآن المجيد على هذا النمط من التنبيه على عظمة الخالق تعالى والتنويه بتفرده بالخلق والانشاء والابداع واسباغ النعم على الخلق أكثر من أن تحصى ولله ما أجمل وأفخم تلكم الدلائل الكونية العظيمة منها والدقيقة المنصوبة للعقل البشرى والتي يصادفها الانسان أني تأمل وحيثما أجال نظره شاهدة ناطقة بتفرد الله تعالى بصفات الجلال والكمال والقدرة العظيمة حتى لقد صرخ ذلك العربي القح إذ سئل ما الدليل على وجود الصانع تعالى فقال « ان البعرة لتدل على البعير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدل على صانعها القدير ! »

وقال تعالى أيضاً مما يشبه ما سلف ويجب على كل مسلم تدبره وتعقله كله واستخدام وسائل العلوم الكونية لاستكناه أسراره العجيبة لانه هو وأمثاله الكثيرة المودعة بطن كتابنا العزيز مطلوب لنا دينياً فضلا عن نفعه وثمرته دنيويا « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش

وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لايات لقوم يعقلون »

وجاء في آية أخرى « ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون »

فترى من هذه الآيات الجليلة وأمثالها الكثيرة في القرآن المجيد ما يبرهن اجل برهنة على وجود الخالق العظيم ووحدانيته تعالى وجميل صنعه وتصرفه في خلقه بالتدبير المحكم وان للعقل الذى وهبنا إياه وتعبدنا به حقه لان يستخدم ويستعمل ثمَّ (١) وعندى أن هذا الضرب من العلم أجل وأشرف العلوم التي يجب أن يعتمد عليها في المدارس الاسلامية الدينية بمقدار ما يذلل من صعاب تلك العلوم الفقهية واللغوية التي ينبغى أن يجرى فيها بما يناسب الزمان وأذواقه تصنيفاً وتعليماً بهذا يأخذ العقل والفكر الاسلامي قسطه من الانطلاق المطلوب له في الآيات القرآنية الأنفة الذكر وأن لايحجر عليه ذلك الحجر الذى أوجدته التقاليد

---

(١) قال الشافعي رحمه الله في رسالة الفقه الاكبر « اول الواجبات على المكلف النظر والاستدلال الى معرفة الله تعالى ومعنى النظر هو فكر القلب والتأمل في حال المنظور فيه طلباً لمعرفته وبه يتوصل الى معرفة ما غاب عن الحس بالضرورة وهو واجب في أحوال الدين لقوله تعالى انظروا الى ثمره اذا أثمر وقوله فاعتبروا يا أولى الابصار وقل انظروا ماذا في السموات والارض ثم استطرد فيما يرمى اليه من النظر في العالم ذلك الاسم الجامع لما سوى الله تعالى من خلقه اه مؤلف

السالفة بين متن وشرح وحاشية وتقرير وما أردأها من أساليب معيبة لا توافق مناهج العصر ولا ما تقتضيه أحواله الارتقائية الا اذا رضينا بالقعود والاخلاد الى أرض الانحطاط والتقهقر الذى يبرأ منه ديننا ويجب نفض غباره عن أنفسنا وسيأتي في آخر هـذا الكتاب كيف يتطلب أدب النفس مع البارى تعالى اطلاق الفكر والتفكر والتدبر في مصنوعات الله تعالى للتقوّى في الدين والدنيا مما لا يتوصل اليه الا باستخدام العلوم الطبيعية والاجتماعية الادبية

وبعد الايمان بالله سبحانه وتعالى والاقرار له بالوحدانية والتصرف والقضاء بالتدبير الجميل في الخلق وعدم الاشراك به تعالى ينبغي الايمان بالرسل رسل الله والملائكة الكرام والكتب السماوية كما نص عليه تعالى في محكم هذه الآيات « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير »

ولما كانت الدنيا ليست بالدار ذات الخلد والقرار بل هي كما جاء في الحديث الشريف مزرعة الآخرة تلك الدار الباقية

حيث الحياة الابدية حيث السعادة السرمدية والنعيم المقيم ، حيث الحياة بأشرف كمالاتها ومعانيها . كما يقول به ويعتقده الكثير من بني البشر خصوصاً أصحاب الاديان السماوية والاسلام في مقدمتها كما نطقت به آيات القرآن الكثيرة فلهذا وجب الايمان فيه والاعتقاد بما بعد الموت من الجنة والنار والحشر والنشر ، فالجنة للمؤمنين بالله ورسله العاملين بما أمروا به وكلفوه في هذه الدار من الاعمال الصالحة والتكاليف الواجبة، والنار مثوى للكافرين العاصين المخالفين لأوامره ، وان هناك حساباً وميزاناً يحاسب العبد بهما (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) والآيات في القرآن الكريم والاحاديث في هذا كثيرة ولتفصيل هذا الاجمال أقول

كل امرئ عاقل أنار الله بصيرته وجلا صدأ فكره وثقف بالعلم الصحيح لبه لا يفوته عند التأمل الدقيق والتدبر الحسن في نظام هذا العالم وعجائب الصنع في الكون المكشوف للقلوب والبصائر كما هو مكشوف للأعين والابصار فيما حوى من سموات وأرضين وحيوان ونبات ومعدن وشعوب مختلفة وقبائل انسانية متباينة على ظهر كرتنا هذه الارضية الحقيرة

التي هي بالنسبة الى الكون أو ملكوت الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كحلقة ملقاة في فلاة» ان هذا «الخلق» العجيب والصنع الجميل لا بد له من خالق عظيم وصانع حكيم صنعه وهو يدبره أحسن التدبير ، وهذا الصانع الكريم في اعتقاد أهل الاسلام هو «الله» سبحانه وتعالى فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة وقد دل على نفسه بنفسه وأنبأ عن ذاته وصفاته بالنظر الينا معاشر المسلمين في القرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم نبي الاسلام والذي أرسله رحمة للعالمين فضلا عما سلف في نبوة الانبياء والكتب الماضية وعما غرسه تعالى في الفطر الانسانية السليمة [١] لترى الدلائل المنصوبة في العالم نفسه وان هذا العالم «حادث» يرجع الى «محدث» لعدم الاستغناء عنه و برهان حدوث العالم أن أجزاء هذا العالم إما متحركة أو غير متحركة والحركة والسكون قد يعلم بالبداهة حدوثهما كما يعلم كذلك أن ما لا يخلو من الحوادث

---

(١) كان للامم الحكيمة القديمة كاليونان ونحوهم هدايتها في معرفة الصانع تعالى بطريق الرياضة العقلية . راجع رسالة الفوز الاصغر لابن مسكوية ونحوها

فهو مثلهما في الحدوث فالعالم اذن حادث ومحدثه بالاتفاق عند أهل الاديان السموية ومن نحا نحوهم هو الله تعالى كما قال تعالى مشيراً الى ذلك من اعترافهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله)

واذا كان هذا العالم العظيم الصنع حادثاً فلا ريب أن الله محدثه تعالى قديم أزلى لا بداية له . وبرهانه انه لو كان حادثاً لاحتاج الى محدث واحتاج محدثه الى محدث وهلم جراً وما تسلسل من الحوادث فلا بد من الانتهاء به الى محدث قديم هو الاول، في الحديث الشريف (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفونى) فالله تعالى قديم لا بداية له وما حوادث الكون في تسلسلها وارتباطاتها مهما عظم قدمها ومهما قيل في كيفية خلقها الا وتنتهي الى مبدعها الاول الله الذى أنشأ النشأة الاولى واليه ترجع النشأة الآخرة لان ما وصف بالقدم المطلق استحال عليه العدم البتة فالله سبحانه كما لا أول له فهو كذلك لا آخر له بل هو تعالى كما وصف نفسه في الكتاب العزيز (الاول والآخر والظاهر والباطن) تفنى الحوادث والعوالم وهو باق أزلياً سرمدياً تقدس في علاه

وهو تعالى ليس بجوهر متحيز لان الجواهر المتحيزة كما قال جماعة المتكلمين مختصة باحيازها ولا تخلو من أن تكون ساكنة فيها او متحركة عنها وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، ولو تصور متحيز قديم لتصور في العقل قدم جواهر العالم. على ان من سماه تعالى جوهراً ولم يرد به الجوهر المتحيز لا يكون مخطئاً الا من حيث اللفظ دون المعنى

واذا كان الله سبحانه وتعالى ليس بجوهر متحيز فمنه يعلم بالضرورة انه ليس « بجسم » لان الجسم مؤلف من جواهر متركبة وما كان مركباً احتاج الى حيز والى اجزاء قابلة للافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار. وهذه كلها من صفات الحدوث في المخلوقين فصانع العالم اذن ليس بجسم

واذا كان تعالى ليس بجسم فيكون بالاولى ليس بعرض حال في جسم كذلك لانه اذا كانت الاجسام محدثة لما تقدم من تركبها وافتقارها الى الاحياز فالاعراض القائمة بها يعلم بالضرورة حدوثها بل هي أحرى بان توصف بصفة الحدوث من الاجسام القائمة هي بها والله تعالى خالق الاجسام والاعراض ومبدع دقائقها ورقائقها من المركبات والبسائط

واليه تعالى مرجع القوة فيها جميعاً ما ظهر منها وما بطن

ثم انه تعالى منزه الذات عن الاختصاص بجهة من الجهات لان الجهة إما فوق واما تحت واما عن اليمين واما عن اليسار واما أمام واما خلف والجهات محدثة مخلوقة بواسطة خلق الانسان بكيفية ان له طرفين يعتمد باحدهما على الارض التي تقله وهما رجلاه والطرف الا خر يقابله وهو الرأس فاحدث الانسان اسم الفوق لما يلي ناحية رأسه وخصص اسم التحت لما يلي قدميه الى آخر ما اصطلح عليه في ذلك وبهذا الاصطلاح يكون مثلا اهل نصف الكرة الارضية التي تقابلنا مسمين أبداً فوقاً ما نسميه نحن تحتاً وكذلك يخالفوننا في تعيين الجهات الاربع بحسب الاوضاع . فمن ثمَّ نعلم حدوث الجهة وتعيينها اصطلاحا وما كان كذلك فالله تعالى منزه أن يتخصص بناحية منه ولو كان الانسان خلق مستديراً كري الشكل لما كان لهذه المسميات وجود البتة بالنظر اليه كالكرة الارضية وكالكواكب السابحة في فضاء الله العظيم من السموات . فالجهة محدثة بهذا الاصطلاح والله تعالى ارفع من أن يختص بجهة حادثة اصطلح عليها محدث بالتعيين والتخصيص والله تعالى يقول

« فأين ما تكونوا فثمّ وجه الله » بالمعنى المقصود له تعالى من القرب والتقريب الى العباد على ان ما جاء في أدب الاسلام من رفع الايدي في الدعاء الى السماء فهو أبداً للتعظيم والرفعة ولانّ الله تعالى فوق عباده بالسلطان والعظمة ولان السماء المكشوفة لسكان الارض الضعفاء مشهد من مشاهد ملكوت الله تعالى مصدر الرحمات والفيوضات العظيمة. أما تولية الوجوه في الصلاة شطر الكعبة بيت الله الحرام، بيت الخليل ابراهيم عليه السلام فللتقريب والتسهيل في التعيين أيضاً ولان الكعبة « أول بيت وضع للناس مباركا » فاختارها النبي صلى الله عليه وسلم قبلةً له وارضى الله بها عباده المسلمين

أما مسئلة الاستواء على « العرش » التي نص عليها الكتاب المجيد « الرحمن على العرش استوى » فليس المراد بها كما قال أجلة علماء السلف وبالمعنى الذي اراده الله تعالى انه استواء استقرار وتمكن يلزم منه الجسمية لذات الله تقدس وتنزه في علاه لانه محال وانما هو استواء قهر واستيلاء كالمفهوم من قوله تعالى في آية الكرسي « وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم »

ورؤية الله تعالى في الدنيا غير مقول بها لقوله تلك « لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وقوله تعالى في خطاب موسى عليه الصلاة والسلام « لن تراني » وان كانت الرؤية جائزة عقلا بغير تعيين جهة او صورة لانه اذا كان تعالى ليس مختصاً بجهة فبالضرورة جازت الرؤية عقلا كذلك من غير كيفية ولا صورة او جهة . أما مسئلة المعية بحق الخلق « وهو معكم أينما كنتم » فتعتقد اسلامياً مع نفي الاينية الجسمية او الحلول بحقه تعالى لان قربه تعالى ليس كقرب الاجسام قال الشيخ محمد المغربي الصوفي الشاذلي هذه الحكمة العالية في المعية قال « معيته تعالى أزلية ليس لها ابتداء وكانت الاشياء كلها ثابتة في علمه أزلا يقيناً بلا بداية لانها متعلقة به تعلقاً يستحيل عليه العدم لاستحالة وجود علمه الواجب وجوده بغير معلوم واستحالة طريان تعلقه بها لما يلزم عليه من حدوث علمه تعالى بعد ان لم يكن. وكما ان معيته أزلية كذلك هي أبدية ليس لها انتهاء فهو تعالى معها بعد حدوثها من العدم عيناً على وفق ما في العلم يقيناً وهكذا يكون الحال أينما كانت في عوالم بساطتها وتركيبها واضافتها وتجريدها من الازل الى ما لا نهاية له »

هذه هي أمهات الباب في أدب الاعتقاد بالنسبة الى ذات الله تعالى القدسية من الوجود والوحدانية والقدم والبقاء ومخالفة الحوادث مجملة أما ادب الاعتقاد الاسلامي بالنظر الى الصفات صفات الله تعالى القدسية فأولها الاعتقاد « بالقدرة » للصانع العظيم والمدبر الحكيم، وهذه الصفة من القادر والقدير والخالق والمبدع والمنشى والمعيد الخ كلها طافح بها القرآن المجيد، وبرهان القدرة قدرة الله تعالى العظيمة من العقل ان العالم محكم الصنع متقن النظام لان من رأى حديقة منسقة الغراس مرتبة الشجر منظمة المسالك وتوهم صدورها من غير ناطور (بستاني) ماهر حاذق في فنه وبعبارة أخرى من غير قادر على ترتيب ذلك بمهارة وعقل كان منخلعاً عن غريزة العقل نفسه منخرطاً في سلك اهل الجهل والغباوة

ثم الاعتقاد « بالعلم » علم الله واحاطته تعالى بجميع المخلوقات علماً فلا يعزب عن علمه تعالى مثقال ذرة في الارض ولا في السماء والقرآن كله ناطق بان الله عز وجل محيط بجميع المعلومات لا يعزب عن علمه شيء دق أو جل خفى أو ظهر لا فى الارض ولا في السموات العلى فالله بكل شيء عليم ولقد جاء من بين

الآيات القرآنيـة الـكثيرة في علم الله هذه الآية على طريقة الاستفهام التعجبي استهزاء بعقول بعض الجاحدين « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبـير » وفي الآية الارشاد الى الاستدلال بالخلق على علم الله تعالى إذ لا ريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع المتقن المزين بالترتيب ولو في الشئ الحقـير الضعيف على عظيم علم الصانع بكيفية الترتيب والاتقان والاحاطة بكل شيء .

وفي كل من صفة القدره والعلم ما يدل بالضرورة على صفة « الحياة » له تعـالى لانه لا يتصور صدور القدرة والعلم والخلق والابداع عن غير حي كما لا يتصور مثلا من انسان أنه قادر وعالم وفاعل بلا حياة وهو مالا يقول به عاقل أو يتصور في عقل انسان

« الارادة » من صفات الله تعالى فهو « المبدئ المعيـد الفعال لما يريد » فلا موجود الا وهو موجود بمشيئته وارادته وحكمته وكيف لا يكون مريداً مختاراً وكل فعل يصدر منه تعالى أمكن ان يصدر منه ضده وما لا ضد له أمكن ان يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده والقدرة صالحة للضدين والوقتين

فلا بد من الارادة الصارفة الى أحد المقدورين ولو أغنى العلم عن الارادة في تخصيص المعلوم حتى يقال انما وجد في الوقت الذي سبق العلم بوجوده لجاز ان يغني عن القدرة لانه يقال وجد بغير قدرة لسبق العلم به وليست ارادة الله في السنن الكونيه بالتي هي كالتي للخلق من حيث انفاذ امر والعدول عنه إذ ذلك محال بحق الله تعالى واجب الوجود لان هذا من توابع حاجات البشر ونقصهم في العلم عن الكمال فتتغير الارادات بحسب ذلك من البواعث .

« السمع والبصر » من صفات الله تعالى التي وصف بهما سبحانه وتعالى نفسه في الكتاب العزيز في آيات كثيرة « انني معكما اسمع وأرى » « وكان الله سميعاً بصيراً » « ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » فالله تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه دبيب أصغر الميكروبات التي لا تراها أعين الآدميين فضلاً عن سماع حركاتها في غدواتها وروحاتها ، واذا كان من كمال الخلق السمع والبصر فكيف لا تكون صفة هذا الكمال للخالق العظيم تعالى على ما يناسب كماله بلا جارحة ولا أعضاء .

ومن الصفات الواجب اعتقادها بحق الرب تعالى « الكلام »
وهي صفة قائمة بذاته العلية لا تكون بصوت ولا بحرف وبرهان
كلام الله تعالى ظاهر من الوحي الى الانبياء وخطابهم بلا رؤية
مصداقاً للآية الشريفة « ما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً
أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء »
وبرهان الكلام على تلك الصورة « وكلم الله موسى تكليماً »
« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه» « فأوحي الى عبده ما أوحى »
ولا يشبه كلام الله تعالى بهذا المعنى كلام المخلوقين كما لا يشبه
وجوده وجود غيره والكلام بالحقيقة كلام النفس وما قطعت
الاصوات والحروف بحق المخلوقين الا لضبط الكلام بحسب
الاصطلاحات وسهولة الدلالات كما قد يدل عليه بالاشارات
والحركات .

وكل من الكلام القائم بالذات وجميع الصفات التي سبقت
لله تعالى قديمة كذاته تعالى لانه يستحيل ان يكون محلاً للحوادث
لما تقدم من ان محل الحوادث حادث بل هو تعالى لم يزل في
قدمه تعالى موصوفاً بمحاسن الصفات ولن يزال في أبده منعوتاً
بنعوت القدم والجلال منزهاً عن تغير الحالات وكذا علمه تعالى

قديم فانه لم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه في مخلوقاته بالعلم الازلي والقدرة الازلية والارادة أي المشيئة الازليـة المتعلقة باحداث الحوادث وفق سبق علمه الازلي بها .

***

واذ قد انتهيت من بحث الصفات فلأنتقل الى أدب ما يجب اعتقاده في الاسـلام بخصوص أفعال لله تعالى فاعـلم يا أهداك الله أن كل ما يحدث في العالم عالم الكائنات فهو فعله تعالى وخلقه واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث في الحقيقة الا اياه وكذا القدرة التي للعباد مخلوقة له تعالى وكذا حركاتهم وسكناتهم متعلقة بقدرته كما قيل « الحركة والسكون بيد الله » وفي الآيات القرآنية برهان هذا ومصـداق أمره قال تعالى « الله خالق كل شيء » وقال جـل شأنه « والله خلقكم وما تعملون » ومن هنا تعلم ان انفراد الله تعالى بخلق حركات العباد لا يخرج مالهم من «عمل» أو ما يجب اعتقاده منه فيهم لدلالة الآيات القرآنيـة الكثيرة عليه وان فينا ذلك « الجزء الكسبي الاختياري » الواقع في افعالنا وارادتنا الذى وقعت عليـه التكاليف والذى خوطب البشر وادينوا به وجوزوا عليه الجزاء

الحق بمقتضى الشرائع من تعبدية وتعاملية كما وعدوا عليه الجزاء الاخروي ، وهذا الجزء الاختياري في افعالنا عظيم مبناه على العقل البشرى المستمد نوره من نور الله ومصداقه من القرآن كثير فهو من جهة خلق للرب ومن جهة اخري كسب أى فعل للعبد وتفرد الله بعلم ما هو كائن له منه فقدرة العبد خلق للرب كسب للعبد وكذا الحركة والاختيار الواقعان منه وأنت إذا تأملت هذا جيداً تر أن الاسلام أو بعبارة اخرى المبداء السنى منه قد كمل أدبه بهـذا الاعتقاد وأعتـدل قوله وخلص مبدؤه بالنظر الى أفعال البشر فلم يدخل في « الجبر » المحض كما قال به « الجبرية » القدماء ومن اهل الاسـلام ايضاً كما لم يقل بمبادئ « المعـتزلة » القدرية أولئك الفـلاسفة الاسـلاميين الذاهبين الى أن البشر إنمـا هم الذين يحدثون أفعالهم واراداتهم وليس لله فيها من أثر البتة فمن ثمّ وقف المبدأ السـنى بين بين حتى يخرج من شناعة أهل الجبر فيما ذهبوا اليه وجرأة الفلاسفة الاعتزاليين فيما تجرأوا به على الله تعالى و يوفق بين الآيات الدالة على تصريف الله في عباده بمـا شاء وشاء مبدأ الخلق له تعـالى وفق العلم الازلى وأمر التكليف في الاعتقادات والعبادات

والشرائع وتزكية النفوس والجزاء بالثواب والعقاب الاخرويين خصوصاً في مقابل الطاعات وفي مقابل الذنوب .[١]

ففعل العبد على مقتضى هذا المبدأ السني المعتدل وان كان كسباً للعبد الا أنه في الحقيقة لا يخرج عن كونه بقضاء الله تعالى وسابقاً في علمه تعالى للجزم في العقيدة عقيدة أهل السنة والجماعة بأن ما يجرى في الملك والملكوت إنما هو بقضاء الله وقدره وعلمه فمنه تعالى الخير ومنه تعالى الشر ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو معنى دقيق طالما زلت فيه أفهام وحارت عقول على ان الآيات ناطقة به صريحاً فما عصى عاص ولا اهتدى مهتد الا بتوفيق الله تعالى وهدايته وسابق علمه فيه وان كانت سبل الهداية قد بينت من قبله تعالى للجزاء عليها بحق المهتدين كما بينت طرق الغواية والشرور لتجنبها بحق الضالين ولله تعالى في خلقه شؤون وتصاريف تعجز عن كنهها عقول القاصرين مع ان هناك آيات ناطقة به « ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً » « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة »

---

(١) حكى في الصدد الامام ابن تيمية اقوالا نفيسة في رسالة شرح حديث أبي ذر كما فصلها غيره من الائمة أيضاً أحسن تفصيل اه مؤلف

بيدانه مهما كان من هذا المبدأ الاعتقادى فليس للانسان وهو المكلف في حد ذاته إلا أن يعمل لما فيه الخير ليوافق مراد الله تعالى لعباده منه كما نطقت به آيات اخر قال تعالى « قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » (عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « فاستبقوا الخيرات »

وقال تعالى فى خطاب المؤمنين لملازمة التقوى « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » وآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقال تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقال تعالى في آية اخرى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فقد وقع اجره على الله) والآيات في المعنى كثيرة .

ومن كمال الادب في الاعتقادات الاسلامية السنية أن يعتقد أن الله تعالى كما قد تفضل بالخلق وتفرد بالانشاء تطول كذلك بتكليف العباد وتعريفهم طريق هدايته ولم يكن الخلق ولا التكليف واجباً عليه البتة كما ذهب اليه المعتزلة

وانما وجد للسابق في علمه الازلي وحكمته العظيمة ومشيئته الكريمة وانه يجوز لعموم التكليف الذى تفضل به تعالى لمصلحة العباد انفسهم أن يكلف العباد مالا يطيقون وبعبارة اخرى مالاحظ لهم من توفيقه وهدايته لهم فيه للسابق في علمه تعالى بحق بعضهم ولنا برهان ذلك في ابلاغ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن أبا جهل لا يصدقه ولا يؤمن به ثم أمره إياه بان يأمر أن يصدقه ويؤمن بالله العظيم . وليس هذا في شئ من معنى الآية الكريمة القرآنية (لا يكلف الله نفساً الا وسعها)

ومن تمام هذا الادب في الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة اعتقاد جواز أن لله تعالى إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ولا ثواب لاحق لانه متصرف في ملكه ولا يعد المتصرف في ملكه ظالما كما شاغب به المعتزلة في مقولاتهم. هذا هو مبدأ (الجواز) الواجب التسليم به اعتقادياً غير أن لله تعالى في مقابله مع ذلك الرحمة غير المتناهية كما قد نطقت به الآيات ودلت عليه الآثار بل أرشد اليه العقل السليم لان أفعال الله كلها مبنية على الحكمة التي تقصر دونها عقولنا وعلى

العدل والرحمة فهو تعالى لم يتفضل بالخلق عبثاً ولا كلفهم من التكاليف بحسب المقصود بها هنا فوق طاقتهم ووعد بالثواب على الحسنات العملية أضعافاً مضاعفة وتوعد بالعقاب (وجزاء سيئة بمثلها)

وهو تعالى مع ما غرز في عقولنا وأمرنا به من العمل لمصلحتنا بمعونته وتوفيقه في حياتنا أثاب على ماقد نبتلى به من المحن والآفات والامراض وأرشد العقول وهدى الفهوم الى الوسائط العلمية والعملية لدرئها وازالتها مع التزام (الصبر) والتدرع بالأناة والاطاعة لامره وحكمته وقضائه وقدره في الاحوال السيئة حسياً ومعنوياً بلا تسخط ولا تضجر حتى لا يحبط أجرنا وننال الثواب العظيم ثواب « الصبر » وجزاء الذي بشر به في قوله تعالى « وبشر الصابرين » ولهذا المبحث بقية ستَرد في آخر هذه الرسالة

والقرآن المجيد والسنة البيضاء كلها ملأى بهذا وأمثاله الكثيرة فالله تعالى لا يضيع عمل عامل ولا جزاء صابر ولا يخل بمعونة المستعينين به على الخير اللاجئ الى بابه المستروح بامداده ولتمام الرحمة الصمدانية جعل أن لايعذب الا بعد البلاغ وتمام

الرسالة « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » كما قد قيد الاهلاك وازالة الامم بالتزام الفساد والاسراف في الامور أو عدم الصلاح للخلافة الارضية (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) و(ما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون)

ومعرفة الله تعالى واجبة بايجاب الله تعالى وشرعه وبالعقل فيما يقتضي الاستدلال المنصوص عنه شرعاً لا بالعقل فقط كما هو مذهب المعتزلة لان العقل وحده لا يؤدى الى التصديق بالله وبشرائعه بمفرده وأنت بأدنى تأمل في احوال الامم واختلافها في التقاليد والمعتقدات ترأن العقل لا يؤدى في الغالب الا الى السبل المتفرقة وان عرف الصانع فمن ثمَّ بعث الله تعالى النبيين والمرسلين مبشرين ومنذرين للحكمة البالغة وسبق العلم الازلى بان لا صلاح للعالم الا بهذا «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »ومع اختلاف الشرائع وطرق تأدية العبادة التي جاء بها الرسل ونحوها فان مبدأ الاعتقاد الذى أتي به الجميع واحد من حيث التوحيد وعدم الاشراك بالله وتنزيهه تعالى وتقديسه وهو أعظم العبادة المطلوبة بل هو الاصل في النجاة الاخروية وهذه العبادة وما يتبعها من مراعاة الشرائع

والعمل بها بحسب المقتضيات الزمانية لم يكن شئ من ذلك البتة الا في مصلحة البشر انفسهم لان الله تعالى غنى عن العالمين لا ينتفع بعبادة عابد ولا يضره كفر كافر ، فالرسل في البشر كالاطباء لانه كما احتاج الناس الى الاطباء لتطبيب ابدانهم وسلامتها من العطب احتاجوا كذلك وعلى شكل أعظم وأشرف الى اطباء النفوس من الرسل والنبيين لان أمراض النفوس شر من أمراض الابدان وهذا لا ينافي هداية العقول البشرية التي جعلها الله لها لانها معرضة للخطاء والضلال وهى تلتمس الحق لجهلها به فمن ثم احتاجت الى مرشد سموي يريها الهدى هدى والضلال ضلالا وبعد هذا الارشاد وذلك التبيين تصير غير معذورة بل تصير مسؤولة فيما أرشدت اليه في مصالحها الدينية والدنيوية

واذ كانت بعثة الرسل جائزة ولازمة كما هو مبين با كثر من هذا في كتب العقائد ومحققة بمن بعثهم الله تعالى من الرسل السالفين والانبياء المتقدمين وقد قامت البراهين والحجج على صدقهم وبالاستمداد من انوار شرائعهم استفادت الامم مؤمنة وغير مؤمنه ، وإذ كان هذا الامر أمر بعثة الرسل

جارياً في سنن الخليقة ومسلما به لدى الآدميين في الجملة بالذي يجب اعتقاده بحقهم على ما هو مفصل في كتب العقائد ، وإذ كان لكل شيء عند الله وقته وللسابق في علمه تعالى من حاجة البشر وافتقارهم الي تجديد الاصلاح ونصب أعلام التوحيد على أمتن أساس في الوقت الذي أراده واختاره سبحانه وتعالى لهذا بعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأشرف المرسلين بشريعة الاسلام محيياً للايمان منادياً بالاسلام في الزمن الذي انتقاه والوقت الذي اختاره مؤيداً بالحجج البالغة والمعجزات الباهرة ولا سيما معجزة القرآن المجيد الذي بيَّن فيه حقيقة الايمان وهداية النفوس باحسن الاقوال واشرف المبادئ الادبية والاجتماعية واصول التوحيد بمقتضى قواعد عامة تصلح لكل زمان ومكان فلما جاء الرسول بهذا ولما قام من بشارات الانبياء السالفين به لهذا لزم الخلق تصديقه والايمان بما جاءنا به من عند الله للفوز بالسعادة الحقيقية الابدية على نحو ما بشر الله به المؤمنين الذين يستمعون القول من عند الله فيتبعون أحسنه ولا أحسن ولا أشرف ولا أوسط في اعتبارنا معشر المسلمين مما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فرسالة هذا النبي

الكريم والرسول السند العظيم جاءت نعمة عامة من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » « وأرسلناك للناس بشيرا ونذيرا »[١]

***

أما السمعيات الواجب الاعتقاد بها وتصديقها من حيث الحشر والنشر وقد ورد بهما الشرع ومعناهما الاعادة بعد الموت فهو في العقل ممكن لانه من مقدور لله تعالى ولان فيهما الجزاء الحقيقي والحياة الصحيحة بعد مجاوزة عقبتها من الموت قال تعالى « كما بدأنا أول خلق نعيده » وقال تعالى « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحيها الذي انشأها أول مرة » وقال عز من قائل « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة »[٢]

ومن السمعيات الواجب التصديق بها سؤال الملكين في القبر فقد وردت به السنة وهو ممكن في نفسه إذ ليس

---

(١) يراجع في الفضائل الشفا للقاضي عياض وبالنسبة لتقرير امر الرسالة الجواب الصحيح لابن تيمية اه مؤلف (٢) يراجع تفسير الرازى والفصل لابن حزم في مسئلة الحشر والنشر والاعادة الخ اه مؤلف

يستدعي ذلك غير اعادة الروح الى جزء من اجزاء البدن التي يفهم بها الخطاب وعدم سماع الاحياء للسؤال هو كما لا نرى من النائم غير سكونه بظاهره مع انه قد يكون مدركاً بباطنه لآلام وللذات قد يحس بها ويشعر عند تنبهه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يرونه ولا يسمعون كلامه .

وعذاب القبر حق وقد جاء في الحديث « القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار » ولا يمنع منه تفرق اجزاء البدن مثلا في بطون السباع وحواصل الطير ونحو ذلك إذ المدرك للذة أو ألم العذاب من الانسان إنما هو جزء يعلمه الله من نفس الانسان

والميزان حق ويجب التصديق به . قال تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » وقال عز من قائل « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه الخ » ، وكذا الصراط يجب التصديق به لورود الخبر به أما صفته وصفة الميزان فما لا يعلم حقيقتهما الا الله تعالى .

ويجب التصديق بالجنة والنار وانهما مخلوقتان قال تعالى

« سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » وقال تعالى « ومثوى الكافرين النار » والآيات في الجنة والنار والجزاء بهما على الاعمال إن خيراً فالجنة ونعيمها وإن شراً فالنار وسعيرها كثيرة وكذلك الاحاديث للترغيب والترهيب « ذلك هدي الله يهدي به من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »(١)

---

(١) يراجع على هذا الفصل تفسير الرازي واحياء الغزالي والاقتصاد في الاعتياد له اه مؤلف



الباب الثاني

(أدب العبادات)

العبادات ـ الطهارة ـ اقسام الطهارة ـ الوضوء ـ الغسل ـ التيمم ـ طهارة الثوب واجزاء البدن ـ النظافة من الايمان ـ الصلاة عماد الدين ـ خمس صلواة كتبهن الله ـ عدد الركعات واوقات الصلوات ـ اركان الصلاة ـ المندوبات تسبيح الركوع وتسبيح السجود ـ القنوت ـ مكروهات الصلاة ـ فريضة الجمعة ـ النوافل ـ الآذان والجماعة ـ روح الصلاة ـ فرض زكاة الاموال ـ على من تجب الزكاة ومقدارها ـ مقدار زكاة النعم ـ زكاة الزرع ـ لمن تصرف الزكاة زكاة الفطر ـ الاوقاف والحبوس ـ الصوم وفضله ـ لوازم الافطار ـ سنن الصيام ـ آدابه الجميلة ـ ذكرى البيت الحرام ـ اركان الحج ـ فضل الحج ـ زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ـ القرآن المجيد ـ ادب تلاوته الذكر والدعاء والصلاة على النبي .

قال الله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فعبادة الله تعالى في شريعة الاسلام فرض على كل مسلم عاقل وهي تتركب من معتقد وقد تقدم بيانه وأفعال إما بدنية وإما مالية وكلها راجعة الى فائدة البشر ومصلحتهم أنفسهم إذ الله تعالى أجل وأعز من أن تفيده عبادة عابد أو أن يضره كفر كافر كما سبقت الاشارة اليه وإنما مرجع الفائدة والمضرة الى الناس

بل الحكمة في العبادة وأسرارها الادبية التي هي روحها وقوامها ترجع كلها الى الخلق من ثواب وعقاب وقرب وبعد كما قد نطقت به الآيات القرآنية والآثار النبوية .

*
* *

ولنبدأ بالطهارة أى نظافة أجزاء البدن من النجاسات والاقذار بالماء الطاهر للدخول في العبادة من الصلاة التي هي أهم أركان العبادة وعماد هذا الدين لان ذلك تزيين للظاهر ولان من يدخل في حضرة الملك يجب عليه أن يكون نظيف الظاهر فكذلك الله تعالى ملك الملوك فان من يقف بحضرته وبين يديه في الصلاة لا بد له من أن يدخل هذا المدخل ويقف ذلك الموقف نظيفاً طاهر الظاهر كما يذخل نقي الباطن مخلص القلب « والله يحب التوّابين ويحب المتطهرين »

والطهارة عندنا معاشر أهل الاسلام تنقسم الى طهارة « خبث » وهي طهارة بدن المصلي وثوبه ومكان صلاته من أعيان مستقذرة ، وطهارة « حدث » وهي طهارة البدن من أحوال اعتبارية تسمى احداثاً يعتبر قيامها في بدن الانسان عند حدوث أمور مخصوصة، وهي تنقسم قسمان طهارة صغري

وتسمى « وضوأ » وكبرى وتسمى « غسلاً » والتيمم بالصعيد الطيب من التراب أو مافي حكمه يقوم حكماً مقام الماء في إباحة الصلاة لضرورة كما سيأتي بيانه بعد ، فمفتاح الصلاة الطهور وهي لا تقبل الا به كما في الحديث الشريف «لا تقبل صلاة بغير طهور » والحديث الآخر « لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ »

والوضوء كما تراه مبسوطاً في كتب الفقه [1] منه فرض ومنه سنة ، فالفرض بعد التسمية ما ذكر الله تعالى في الآية المتعلقة بالوضوء من الكتاب العزيز « ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم الى الكعبين » وما بقي من المضمضة والاستنشاق والاستنثار والتكرير ثلاثة والاسباغ فسنة . والوضوء ركن من أركان الصلاة وهو لا يقع الا في الحدث الاصغر من مثل خروج خارج من أحد السبيلين عيناً كان أو

---

(١) كتب الفقه بحسب المذاهب الاربعة عندنا كثيرة في كل مذهب قرر أئمته وعلماؤه في فروع العبادات والمعاملات الامور الكثيرة وكلها لا تختلف عن بعضها والبعض الا اختلافاً يسيراً اهـ مؤلف

ريحاً وباقي النواقض الموجبة لتجديد الوضوء خروج دم أو قيح أو قىء ملء الفم أو النوم مضطجعاً أو مستندا الى آخر ما تراه مستوفي الشرح في كتب الفقه الاسلامى ، وللوضوء فضائل ومزايا جليلة حتى لقد يستحب تجديده ولو لم يكن ثمّ موجب من ناقض عند القيام الى الصلاة وفي الحديث الشريف « ان أمتي ليدعون يوم القيامة غرّاً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل »

أما الغسل وحكمه من القرآن المجيد قوله تعالى « وان كنتم جنباً فاطهروا» وقوله عز وجل «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً الا عابري سبيل حتى تغتسلوا » ويبدأ الغسل بالوضوء ثم بافاضة الماء على عموم الجسد والدلك وتخليل الشعر الى آخر ما في الباب مما قد تكفلت بتفصيله كتب الفقه والسنن وكذا حكمه بالنسبة الى الحيض عند النساء وفي النفاس مما هو من أهم شروط حفظ صحة البدن في جميع أحواله [1]

---

(١) راجع الشرح الصغير للشيخ الدردير وصحيح البخارى ومسلم وغيرهم اه مؤلف

والتيمم فرض اذا تعذر استعمال الماء سواء للوضوء أو للغسل إما لفقده وإما لشدة الحاجة اليه لسد العطش او كان بالانسان مرض من جراحة ونحوها يخاف عليها منه اذا استعمل الماء والتيمم لا يتناول غير المسح على الوجه والايدى مرة واحدة بالضرب على الصعيد الطيب الطاهر أو مافي حكمه ولا يجزى الا في صلاة واحدة ، وبما ان التيمم ماشرع الا لدفع الحرج الذى ينشأ عند فقدان الماء أو عدم القدرة على استعماله ، وحيث ان الصعيد الطيب أى التراب الطاهر أو مافي حكمه من حجر صلد ونحوه لا سبيل لفقد شئ منه البتة فمن ثم فرض التيمم به لدفع هذا الحرج من فقدان الماء في الطهارة ليقوم مقامه في إباحة الصلاة مع اشعار النفس بالخضوع للخالق تعالى الذى أوجدها من هذا التراب الذى نصادفه أو مافي حكمه انى ذهبنا وحيثما كنا فنستعيض به عن الماء في اداء هذا الركن من أركان هذه الصلاة من حكم الطهارة ورسمها بلا حرج وكل هذا من أمر التيمم وحكمه وكيفيته وسببه يفهم من آية التيمم التالية لآية الوضوء والطهارة « وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط

أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

وطهارة الخبث في الثوب من النجاسات الطارئة وكذا اجزاء البدن واجبة ، والحكمية أى التي ليس لها جرم مخصوص يكفي اجراء الماء على مواردها ، وطهارة مكان الصلاة من النجاسات والاخباث واجبة أيضاً

ولقضاء الحاجة آداب وخصال جميلة من التستر وازالة الفضلات الباقية على الاعضاء من بول او غائط بالاستنجاء بالماء والتجمر من البول للتنشيف ويجري كله باليد اليسرى

أما النظافة المستحبة فالاول منها ازالة ما يتجمع في الشعر من درن وقمل فالتنظيف فيه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين لازالة الشعث عنه ، كان صلى الله عليه وسلم يدهن شعره ويرجله ويأمر به . وجاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام (من كان له شعرة فليكرمها) أي يصنها من الاوساخ ، وكذا نظافة اللحية للتجمل والتزين المحبوبين والامر بالخضاب بالحناء مشهور

الثاني ما يتجمع في الآذان والانف والاسنان من الاوساخ فيستحب فيه التنظيف بالازالة والغسل والمضمضة وما سنّ السواك الذي جاء في الحديث انه مطهرة للفم الا لهذه الحكمة الكريمة فضلا عن انه يطيب النكهة ويقوى اللثة

الثالث غسل (البراجم والرواجب) وهي ظهور الانامل ورؤوسها وما تحت الاظفار مما يلتصق بها حتى تبدو نظيفة .
كانت العرب على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لا تكثر من غسل الايدى قبل الطعام ولا بعده فيجتمع عليها الوسخ فامرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسلها وتنظيفها وامرهم كذلك بتقليم الاظافر وتنظيفها ونتف الابط وحلق العانة وقص الشارب واحفاف اللحى وعدم نتف ما فيها من شيب وجواز خضابها بالحناء او ما في حكمها ولهذا كله وختان الاطفال تلك السنة الشرقية القديمة مزيته وفضله كما هو مبين في مظانه من كتب الاسلام وآدابه العملية

الرابع الاستحمام لازالة ما قد يعترى البدن من الدرن والاوساخ والغبار وذلك يزيله الحمام ولدخول الحمام آداب من ستر العورة وكراهية النظر الى الغير وتقديم النية في التزيين

المحبوب في العبادة وعدم الاسراف في الماء الى آخر ما هناك من الخصال والآداب الجميلة[1]

***

أما الصلاة فهي عماد الدين كما جاء في الحديث الشريف ومن أعظم فرائض الله على العباد قال تعالى (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) وهي باستيفاء شروطها وأركانها الحسية والمعنوية تنهي عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى في الآية الكريمة ولذلك جاء في الحديث الشريف (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعداً) ويدل على مزيد فضلها وعظيم اهميتها في العبادة الاولية في الذكر غب الشهادة كما في الحديث المرتب لمباني الاسلام (بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا)

والمفروض من الصلاة في الاسلام خمس صلوات كتبهن الله فى اليوم والليلة على المسلم البالغ العاقل بشرط استقبال القبلة وستر العورة والطهارة التي سبق شرحها والاتيان بالاركان

---

(١) الاحياء للامام الغزالي اهـ مؤلف

الآتي بيانها قال النبي عليه الصلاة والسلام (خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهداً ان يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ان شاء عذبه وان شاء أدخله الجنة) ولله ما أجمل ما شبهها به صلى الله عليه وسلم في حديث آخر قال «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر باب احدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون يبقى من درنه قالوا لا شيء قال صلى الله عليه وسلم فان الصلوات الخمس كمثل نهر عذب تذهب بالذنوب كما يذهب الماء بالدرن، وفي حديث آخر «الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»

وعدد ركعات الصلوات الخمس المكتوبة سبع عشرة ركعة اثنتان للصبح ووقته من طلوع الفجر الصادق الى طلوع الشمس، واربع للظهر ووقته من الزوال الى وقت العصر من امتداد ظل الانسان قد قامته، واربع للعصر ووقته من امتداد ظل الانسان قد قامته الى قرب غروب الشمس، وثلاث للمغرب ووقته من غروب الشمس الى قرب غياب الشفق، واربع للعشاء الاخرة ووقتها من غياب الشفق الى قبيل طلوع الفجر

هذه هي الصلوات المفروضة التي أمرنا بالمحافظة عليها والمثابرة على ادائها كما قال تعالى «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» وهى لا تستغرق من وقت الانسان كله ساعة زمانية او ساعتين على الاكثر

أما أركانها فاربع عشرة خصلة فرضاً وأربع عشرة خصلة سنناً فالاولى: النية ، تكبيرة الاحرام ، القيام لها ، قراءة الفاتحة القيام لها ، الركوع ، الرفع منه ، السجود ، الجلوس بين السجدتين ، التسليم ، الجلوس له الطمأنينة في جميع الاركان ، الاعتدال بعد الركوع والسجود على الجبهة وحال السلام ، الترتيب أي مراعاة الاركان بحسب الترتيب السابق

أما السنن الاربع عشرة فهي : قراءة ولو آية واحدة بعد الفاتحة في الركعة الاولى والثانية ، والقيام لها ، والجهر بها في الصبح والجمعة والركعتين الاوليين من المغرب والعشاء ، والاسرار بها في الظهر والعصر وهذه السنن الاربع مخصوصة بالفرض ، وكل تكبيرة بعد تكبيرة الاحرام ، وقول سمع الله لمن حمده لامام وفذٍّ حال رفعه من الركوع لا مأموم ، وقراءة التشهد ونصه « المحفوظ للمؤلف المالكي المذهب ، (التحيات لله ،

الزكيات لله ، الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) وجلوس له ، والصلاة على النبي بعد التشهد الاخير وافضل صيغتها (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد) والسجود على صدر القدمين والركبتين والكف ، ورد المقتدى السلام على أمامه وعلى من على يساره ويجزي فيه (سلام عليكم وعليكم السلام) بلا جهر ، والجهر بتسليمة التحليل ، وانصات المقتدى في الجهر ، والزائد على الطمأنينة بقدر الواجب

والمندوبات . هي نية الاداء ، ونية القضاء ، والخشوع ، واستحضار عظمة الله تعالى وامتثال أمره ، ورفع اليدين حين تكبيرة الاحرام حذو المنكبين وارسالهما بوقار وكره القبض في فرض ، إكمال سورة بعد الفاتحة وكره تكريرها بذاتها في الركعتين في الفرض ، وتطويل القراءة في الصبح ثم في الظهر لفذ وامام جماعة معينين طلبوه منه وتقصيرها في العصر والمغرب ،

والتوسط في العشاء ، وتقصير الركعة الثانية عن الاولى والمساواة جائزة ، واسماع النفس في السر، والقراءة فى السرية خلف الامام، والتأمين لفذ بعد الفاتحة ، وتسوية الظهر حال الركوع ، ووضع اليدين على الركبتين وتمكينهما منهما ، ونصب الركبتين

وندب التسبيح فى الركوع والسجود أي ان المصلي يقول « سبحان الله العظيم وبحمده سبحان ربي الاعلى » وندب فى السجود الدعاء كما جاء في السنة ، والتوسط فى المباعدة بين المرفقين عن الجنبين . وقول الفذ و المأموم « ربنا ولك الحمد » بعد قول « سمع الله لمن حمده » حال القيام اذ يعمر الرفع بقول « سمع الله لمن حمده » والتكبير حال الخفض وحال الرفع من السجود الا في القيام من التشهد الاول حتى يستقل قائما فيكبر

وندب : تمكين الجبهة من الارض أو ما اتصل بها ، وتقديم اليدين على الركبتين حال الانحطاط للسجود وتأخيرهما عن الركبتين حال القيام منه للقراءة، ووضع اليدين حذو الاذنين حال السجود وتوجيه الاصابع لجهة القبلة ، والمجافاة بين المرفقين عن الركبتين والمجافاة بين الضبعين (ما فوق المرفق الى الابط) والجنبين بخلاف المرأة فتكون منضمة في جميع أحوالها هذه، ورفع

العجزة عن الرأس بان يكون محل السجود مساوياً لمحل القدمين والدعاء في السجود بأمور الدين أو الدنيا له ولغيره خصوصاً وعموماً بلا حد كالتسبيح وقد تقدم، والافضاء في الجلوس كله وهو جعل الرجل اليسرى مع الالية للارض وتقديم اليسرى نحو اليمنى قليلاً ونصب قدم اليمنى عليها وجعل باطن ابامها الى الارض ، ووضع الكفين في الجلوس على الفخذين بحيث تساوى رؤس أصابعهما الركبتين وتفريج الفخذين بخلاف المرأة ، وعقد ماعدا السبابة والابهام أى الخنصر والبنصر والوسطى من اليد اليمنى في حال التشهد بجعل رؤسها بلحمة الابهام ماداً السبابة لجهة الامام كالمشير ، وتحريك السبابة في التشهد الى اليمين واليسار تحريكاً وسطاً

وندب القنوت في الصبح قبل الركوع الثاني ولفظه عند المالكية « اللهم انا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ونخنع لك ونخلع من يكفرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد واليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخاف عذابك ان عذابك الجد بالكافرين ملحق »

وندب الدعاء باسرار وتعميم قبل السلام و بعد الصلاة على

النبي السالف ذكر صيغتها وصيغته المشهورة عند المالكية كما في الشرح الصغير للامام الدردير « اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولأئمتنا ولمن سبقنا بالايمان مغفرة عزماً اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »

وندب التيامن بتسليمة التحليل اذا كان المصلى مأموماً أما الامام والفذ فيشير عند النطق بها للقبلة ويثنيها بالتيامن عند النطق بالكاف والميم من « عليكم » حتى يرى من خلفه صفحة وجهه

وندب سترة الامام والفذ لمنع المارين بمحل سجودهما ويأثم المصلى اذا تعرض بصلاته من غير سترة في محل يظن به المرور

وللصلاة مكروهات ومبطلات قد اضربت عنها لعدم التطويل كالضحك والقهقهة والكلام فى الصلاة ونحو ذلك

ولقد ورد جواز الصلاة والمرء قاعد لمرض أو علة كما جاء جواز القصر والجمع فيها في حال السفر وحكمها في ذلك وبيانها مفصل في كتب المذاهب والسنة فليرجع اليها وكذا بالنظر الى السهو وسجوده « وترقيع الصلاة » به

وصلاة « الجمعة » فرض وخطبتها كذلك قال تعالى فى

فرضها « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » وخطبتها قد يستحسن فيها مع الاختصار والوضوح بيان المواعظ الوقتية والمهام العصرية مما يتعلق بالشؤون والمصالح الدينية والدنيوية ولا أقبح من حال خطباء العصر الجامدين فيما يتلون من خطب محفوظة عن أقوام مضت أيامهم وسلفت مصالحهم المباينة للمصالح العصرية وبذلك لا تحصل الفوائد المطلوبة والثمار المقصودة من خطبة الجمعة ولا تؤثر أثرها الذى سنت من اجله . وجملة القول أن فضل الجمعة كبير وأجرها عند الله عظيم بل يومها كله يوم كريم مبارك يجب أن يصرف بعمل من العبادة مرضي من مثل تلاوة القرآن والذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والغسل فيه للخروج الى الصلاة صلاة الجمعة واجب والتزين والتجمل والتطيب مستحب ، وشروط الجمعة من الوقت والجماعة والخطبة وباقي سننها وآدابها الجميلة مستفيضة بها كتب السنة والفقه فلا أطيل فيها فى هذا المختصر .

والنوافل من الصلاة منها سنة مؤكدة ومنها مستحب ومنها تطوع وهي تختلف باختلاف المذاهب واستنباطات الائمة

المقتدى بهم مما لا يعد في الحقيقة اختلافاً يذكر فلأ ذكر منها ما هو على وجه العموم من أوكدها وافضلها كركعتي الفجر والسنن الرواتب عند كل صلاة ما عدا العصر فانه لا صلاة بعده ، وكذا ركعة الوتر في العشاء والتهجد بالليل فان له فضلاً كبيراً قال تعالى مخاطباً الرسول للتشريع « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً »

وصلاة العيدين عيد الفطر وعيد الاضحى بسبع تكبيرات في الركعة الاولى بما فيها تكبيرة الاحرام وخمس في الثانية بعد تكبيرة القيام والخطبة بعد اداء ركعتيهما سنة

وصلاة الكسوف والخسوف للشمس والقمر ركعتان يطيل القراءة فيهما .

وصلاة الجنازة باربع تكبيرات وبلا ركوع ولا سجود والدعاء للميت

وصلاة القيام (التراويح) في رمضان عشرون ركعة بعد العشاء

أما الصلوات المستحبة والتطوعات الجميلة في الليل أو في النهار فغير داخلة تحت حصر أو قيد فللمرء شأنه بمقدار مندوحة

حاله ومبلغ رغبته فان شاء فعل وان شاء اكتفي بما فرض الله واكدته السنة .

والآذان للصلاة سنة مؤكدة بكل مسجد والجماعة ولا سيما في المساجد تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة كما جاء في الحديث الشريف وللامامة شروط وآداب جليلة

هذا ولقد تقدم ان من اجمل السنن في الصلاة حضور القلب في الصلاة والخشوع والخضوع والمحافظة على ادائها بأوقاتها « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » وقد جاءت الآيات والاحاديث الكثيرة في تفضيل ذلك كله وفي كراهة الذهول في الصلاة وعدم مراعاة روحها من الحضور القلبي حتى لا ينال المرء من صلاته سوى تعب القيام والقعود دون نوال اجر او ثواب او ظهور اثر في تهذيب الاخلاق وتطهير الوجدان المقصود بالذات وما الصلاة الا الصلة بين العبد وبين الرب تعالى فلا يفوتن مسلم العناية بهذه الصلة وليحسن ربطها بالخشوع والاخلاص فيحسن الله تعالى كل حاله الحسي منه والمعنوي.

***

اما فرض الزكاة زكاة الاموال على افراد المسلمين والتي يريد جماعة من الاشتراكيين العصريين أن يرجع الى مثلها في ضرائب الاموال الاميرية والثروات القومية في الامم العصرية فقد كلف الله بها عباده المسلمين للمصلحة لهم والنفع العائد اجتماعياً عليهم دنيا وأخرى » ففي الدنيا صلاح الامور الذاتية والعمومية[١] وضبطها والبركة والنماء في الارزاق واعالة من تصرف اليهم بعض الزكاة من الفقراء فقراء الهيئة الاسلامية، وفي الآخرة ثواب الله العظيم لعباده المحسنين العاملين للخير . والزكاة فرض عين على كل غني قادر بشرطه قال تعالى في الامر بالزكاة «اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» وقال تعالى في الامر بأخذها من المسلمين لمصالحهم « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم » وقال تعالى فيما يكسب الراحة والبر الاجتماعى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقال تعالى في مدح من يعرف حق الفقير من زكاة ماله « والذين فى أموالهم حق للسائل والمحروم » ولقد ضرب الله تعالى أحسن مثل لمخرجي زكاة أموالهم فيما يخلفهم به عليها

---

(١) يراجع في هذا الصدد كتاب حجة الله البالغة للشيخ احمد شاه ولى الدهلوى

من خير وبركة وثواب عظيم قال تعالى «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فأتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بصير بما تعملون » وقال تعالى « ومثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » وجعل تعالى اخراج الزكاة والصدقات كالاقراض له تعالى المضاعف اجره « ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم » : « واقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لانفسكم تجدوه عند الله هو خيراً واعظم اجراً » وجعل عقاب مانع الزكاة شديداً « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ولله ما ابلغ هذا التقريع لمانعي الزكاة فى الهيئة الاجتماعية

وتجب الزكاة على كل مسلم حر ولو غير بالغ ووجوبها هي والخراج والجزية قديماً على غير المسلمين للحول كالاموال الاميرية والضرائب الشخصية فى النظامات المالية الحديثة

وهي تنحصر في النقود وعروض التجارة والنعم من الماشية وما يخرج من الحبوب أو الثمر أو المعدن او الركاز فمما يخرج من النقدين سواء كان ذهبا او فضة ربع العشر (اي اثنين ونصف في المائة) ففي المائتين درهم خمسة دراهم وفي العشرين ديناراً نصف دينار وفي عروض التجارة وتقوم بما اشتريت به اذا بلغت قيمتها نصابا[1] ربع العشر أيضاً .

أما النعم فاذا كانت ابلا « فشاة » في كل خمس وهكذا الى خمس وعشرين فتكون زكاتها « بنت مخاض »[2] من الابل الى ٣٦ ففيها « بنت لبون »[3] الى ست واربعين ففيها « حقة »[4] الى ٦١ ففيها « جذعة »[5] الى ٧٦ ففيها « بنتا لبون » الى ٩١ ففيها حقتان الى ١٢٠ وفي ١٢١ الى ١٢٩ إما حقتان أو ثلاث بنات لبون فان زادت على ١٢٩ ففي كل عشر تتغير الفريضة اي الواجب فيجب في كل ٤٠ بنت لبون وفي كل خمسين حقة

---

(١) اي المقدار الذي تجب فيه الزكاة ويقدر الآن باثنى عشر جنيها انكليزيا في الذهب وتقدر المائتي درهم باثنين وعشرين ريالا مصريا اي ٤٤٠ قرشاً صحيحاً (٢) التي دخلت في السنة الثانية (٣) وهي التي دخلت في الثالثة (٤) وهى التي دخلت في السنة الرابعة (٥) وهي التي دخلت في السنة الخامسة من سنها

ففي ١٣٠ حقة وبنتا لبون وفى ١٤٠ حقتـان و بنت لبون وفي ١٥٠ ثلاث حقاق وفي ١٦٠ أربع بنات لبون وفي ١٧٩ حقـة وثلاث بنات لبون وفي ١٨٠ حقتان وبنتا لبون وفي ١٩٠ ثلاث حقاق وبنت لبون وفي ٢٠٠ إما اربع حقاق أو خمس بنات لبون

واذا كانت النعم بقراً ففي كل ٣٠ منها « تبيع » دخل في السنة الثالثة وفي ٤٠ « مسنة » دخلت في السنة الرابعة الى ٦٠ ففيها « تبيعان » الى ٧٠ ففيها « مسنة وتبيع » الى ٨٠ ففيها «مسنتان» وفي ٩٠ ثلاثة أتبعـة وفي ١٠٠ « مسنة وتبيعان » وفي ١١٠ « مسنتان وتبيع » وفي ١٢٠ « ثلاث مسنات أو اربعة أتبعة » والجاموس كالبقر في حكم الزكاة

واذا كانت النعم غنما ففي كل ٤٠ رأساً منها « شاة جذعة او جذع » ذو سنة الى ١٢١ ففيها « شاتان » الى ٢٠٠ وفي ٢٠١ الى ٣٩٩ « ثلاث شياة » الى ٤٠٠ ففيهـا « اربع شياة » ثم فى كل مائة شاة ، والمعز كالضان . وليس في الخيل والبغال والحمير زكاة لحكمة انها معدة للنفع الذاتي أو لانهـا من رأس المال المساعد وليست مصدر استغلال فى حد ذاتها ولانها لا ينتفع بلحومها والبانهـا واشعارها كغيرها من النعم التي كانت مصدراً

لثروة العرب ولم تزل في أنحاء كثيرة من العالم الاسلامي وغيره مصدراً ومستغلاً للثروة العظيمة .

وزكاة الزرع مما اخرجته الارض بالسيح أو المطر ففيه العشر أو نصفه اذا سقي بآلة وبلغ نصابه اى خمسة اوسق (٦٠ صاعاً) بشرط ان يقصد منه الاستغلال فالحطب والقصب والحشيش والسعف لا تدخل في الباب لفقدها الشرط الا اذا قصد بها الاستغلال بالتجارة ، وكل حب لا يصلح طعاماً كبذر البطيخ والقثاء فلا زكاة فيه لكونه غير مقصود بنفسه وإنما المقصود به البطيخ والقثاء وكذا كل تابع للارض كالنخل والاشجار لانه بمنزلة جزء الارض والشريعة لم تقرر في مبدإ الزكاة بحسب مقتضيات ذلك الوقت الزكاة على الارض والعقار (ما عدا الخراج على الاراضي الخراجية) لحكمة ان المنتفع بالاكثر من الزرع هو الزارع المستغل للحب ونحوه مالكا كان المزارع او مستأجراً ولان في محصول الشجر من غير التمر والعنب مالا يقوم بمثل مستغلات الحبوب وما فى حكمها مثلاً ولان زكاة الاموال عامة وهى فى نظر الشرع تؤخذ من مالك نصابها فالمالك متى ما توفر لديه نصاب الزكاة من مستغل

ما يملك من عقار أو نحوه وجبت عليه الزكاة والمزارع تؤخذ منه عشراً أو نصفه من مستغلاته عند حصادها أو بمقتضى قاعدته المتبعة حتى الآن فى طريقة اخذ الضرائب في بلاد الدولة العلية

أما المعدن من الذهب والفضة فيؤخذ منه ربع العشر ويؤخذ عند استخراجه كالزرع عند حصاده اما الركاز ففيه الخمس والركاز الدفائن مالم يطلب بمال ويحصل بكبير عمل

أما من تصرف اليهم الزكاة من أصناف الخلق فثمانية نص عليهم في القرآن المجيد :

(١) الفقراء الذين لا يملكون إلا شيئاً قليلا

(٢) المساكين الذين لا يملكون شيئاً ما

(٣) العاملون على الزكاة لتصرف في وجوهها من عمال الامام أو الحاكم المخصصين لجبايتها وتحصيلها وتوزيعها بمعرفته على مستحقيها

(٤) المؤلفة قلوبهم على الاسلام لتقريرهم وترغيب غيرهم فيه

(٥) المكاتبون من الارقاء لاداء نجومهم (ديون وعتقهم تدفع مقسطة في اوقات معينة) فتفك رقابهم من ذل الرق

(٦) الغارمون الذين عليهم ديون استغرقت في الطاعات فيعطون من الزكاة بمقدار ما يسدون به غرماءهم

(٧) الغزاة في سبيل الله المدافعون عن الاسلام والذابون عن بيضته وبلاده ولو كانوا اغنياء يعطون منها إعانة لهم وتنشيطاً لهممهم

(٨) أبناء السبيل من المسافرين الذين انقطعوا عن أموالهم فيعطون منها بمقدار ما يعيدهم الى أوطانهم (١)

وزكاة الفطر في رمضان نصف صاع (٢) من بر أو دقيق أو زبيب أو صاع من تمر أو شعير وهو ثمانية أرطال أو ما يقوم مقامها من نقود ويخرجها من ملك نصاباً من اى مال عن نفسه وعن أولاده الصغار وعبيده وتصرف هذه الزكاة زكاة الفطر في مصرف الزكاة الاصلية

أما الصدقة صدقة التطوع فسنة جميلة ومن أوكد اعمال البر الاسلامى وهى تصرف الى الفقراء في اى وقت بلا قيد الملة والنحلة ولقد جاء في فضلها آثار جليلة قال عليه الصلاة

---

(١) الصراط المستقيم للشيخ زناتي والشرح الصغير وغيرهما

(٢) الشرح الصغير وغيره (٢) يساوي قدحا وثلثا بالكيل المصري الآن

والسلام « تصدقوا ولو بشق تمرة فانها لتسد من الجائع وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » وقال عليه الصلاة والسلام « ان صدقة السر لتطفئ غضب الرب » وقال في حديث آخر (اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة) وقال عليه الصلاة والسلام (ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله الا طيباً ـ الا كان الله آخذاً بيمينه فيربيها كما يربي احدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد) وقال فى حديث آخر (الصدقة على وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة وتزيد فى العمر وتقى مصارع السوء) وفى حديث آخر (اذا أردت ان يلين قلبك فاطعم المسكين وامسح على رأس اليتيم) [1] وفي القرآن المجيد « إن تبدوا الصدقات فنعماهي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير »

وهناك فى الاسلام ذلك المبدأ الخيرى العظيم من الصدقة الجارية بحبس الحبوس والاوقاف على المساجد والمدارس والمستشفيات والملاجى وما أشبه ذلك وهي من أجل انواع

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى وغيره من كتب الاحاديث والسنن

الصـدقات الجارية والقربات المفيدة فى الهيئة الاجتماعية ولها احكامها وشروطها الحسـنة فى الشريعـة [1] كما ان للزكاة والصدقات على انواعها حكمتها في اصلاح أحوال الهيئة الاجتماعية

واذ كان الامر كذلك فلا أحسن من مراعاة روح العصر فى تقريرها وصرفها فى وجوه البر والمنافع العامة فالضرائب الشرعية سواء على العقار كالخراج والاعشار أو على الاموال كالزكاة ونحوها تعتـبر من اهمها لانها ركن اقامة المصالح الحكومية في الهيئـة وعمار بيت المـال والتضافر بالصرف على امداد المدارس والمستشفيات والمساجـد والملاجئ ليفضـل صرفها اى التصدق بها على الكسالى والعطلة من الشحاذين أولئك الذين يسألون الناس الحافاً وأولئك الذين يتخذون من مندوحة ذلك المبـدإ الاسـلامي وسـيلة وفرصة لاحـتراف الشحاذة والكدية مخالفين في ذلك أوامر الدين نفسه وللهيئة حيال هذا حقها للضمان حتى لا تصرف صـدقاتها الا في وجوه البر التي تصلح من شأن فقرائها وعجزتها لاما يكثر من كسالاها وعطلتها

* * *

---

(١) تراجع كتب الوقف الخصيصة وأبوابه في كتب الفقه الجامعة

أما الصيام فمن أعظم وأشرف العبادات البدنية وأجل الفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده المسلمين في شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، وهو امساك الانسان عن الاكل والشرب والجماع من وقت طلوع الفجر الصادق الى غروب قرص الشمس وفرض الصيام مأخوذ من الآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر)[1]

والاحاديث في فضل الصوم كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلوف فم الصائم وثوابه العظيم (والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لاجلى فالصوم لي وأنا الذى اجزى به) وما شرف الصوم بالنسبة الى الله تعالى وان كانت العبادات كلها له تعالى كما شرف البيت الحرام بالانتساب اليه والارض كلها له الا لمعنيين أحدهما ان الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد وجميع

(١) صحيح البخاري وكتب التفاسير

أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه أحد ولا يطلع عليه الا الله عز وجل لانه عمل في الباطن بالصبر المجرد وفيه قمع الشهوات التي هي وسائل الشيطان الى النفس

وواجبات صوم رمضان للمسلم العاقل الصحيح القادر منها دخول شهر رمضان وتبييت النية ويجزى فيها عند المالكية أول ليلة منه وعدم ادخال شيء الى الجوف عمداً والامساك عن الجماع والامساك عن اخراج القيء عمداً .

ولوازم الافطار ثلاثة القضاء والكفارة والفدية. أما القضاء فوجوبه عام على كل مسلم ترك الصوم لعذر من مرض وحيض وسفر ولا يشترط في القضاء التتابع ، اما الكفاره فتجب في الجماع عتق رقبة فان أعسر فصيام شهرين متتابعين ، اما الفدية فتجب على الحامل والمرضع والشيخ الهرم اذا أفطروا عن كل يوم مد حنطة أو ما فى حكمه بشرط القدرة

أما السنن في الصيام فعدة سنن منها تأخير السحور وتعجيل الفطور وترك السواك من بعد الزوال وقيل بجوازه النهار كله عند المقتضى الشرعى والجود في رمضان لحديث (انبسطوا في النفقة في رمضان فان النفقة فيه كالنفقة في سبيل

الله) و (من فطّر صائماً كان له مثل أجره غير انه لا ينقص من أجر الصائم شيء) وهي من السنن الجميلة والآداب العربية النبيلة ومن جميلات تلك السنن في هذا الشهر المبارك مدارسة القرآن والاعتكاف في المساجد ولا سيما في العشر الاواخر منه التي هي مظنة ليلة القدر التي هي خير من الف شهر وقيام رمضان بالتراويح ونحوها من السنن الجميلة لحديث (من قام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه في غير حقوق العباد) كما هو مفهوم كل الاحاديث التي على هذا النمط

ومن أجمل الآداب في الصيام وأشرف الخلال فيه ان يكف المرء جوارحه عن الرذائل الامر المطلوب في كل الاحوال فبالاحرى في رمضان — فيكف الانسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والخصومة قال صلى الله عليه وسلم (إنما الصوم جنة فاذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل وان امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل اللهم اني صائم)

ولقد كره الاستكثار من الطعام عند تناول الافطار لانه كيف يتدارك أمر كسر الشهوة المقصود من الصيام اذا كان يعوض المرء على نفسه في الافطار ما فاته من الطعام في نهاره

كله فضلاً عن ان الاكثار مضر بالصحة بعد خلاء الجوف نهاراً كاملاً(١)

***

تحفظ التقاليد الاسلامية وبعبارة أخرى التقاليد العربية السامية لمكة والكعبة البيت الحرام مقاماً سامياً وذكرى كريمة ألا وهي ذكرى حادثة إسكان ابراهيم خليل الله ابنه اسماعيل عليهما السلام وأمه هاجر تلك البرية العربية ثم بناء البيت بيت الله الحرام واذانه في الناس بالحج كما نص عليه القرآن المجيد ، ولقد بقي أمر الحج الى البيت شائعاً في العرب الى ان جاء الاسلام فاقره فريضة على كل مسلم قادر مراعياً في ذلك المصلحة الاسلامية العامة الدينية والسياسية من اجتماع خلق كثير من المسلمين سنوياً فى صعيد واحد للقيام بهذا النسك وذكر الله واداء هذه الفريضة ذات الفوائد الكثيرة وزيارة قبر النبي المصطفى صلي الله عليه وسلم في المدينة المنورة يثرب الفاخرة الزاهرة

والآثار في فضل الحج كثيرة قال تبارك وتعالى اشهاراً

---

(١) الشرح الصغير والاحياء للغزالى وغيرها

لامر البيت وفضله وقدمه في البيوت المقدسة (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فان الله غني عن العالمين) وقال تعالى في أمره ابراهيم بالحج (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق) [١]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثواب الحج (من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه) وقال صلى الله عليه وسلم (حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء الا الجنة) والاحاديث في باب فضل الحج والعمرة بالنسبة الى صلاح النفوس والاحوال اكثر من ان تحصى في مثل هذا المختصر

---

(١) يراجع الطبرى والرازى ونحوهما والتفث الوسخ يقال قضى تفثه اي ازال وسخه

أما شروط وجوب الحج واركانه وآدابه . فشرط صحته الوقت والاسلام والحرية والبلوغ والعقل والاستطاعة ، ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة ، وللاستطاعة حكمان وجود الراحلة والزاد وامن الطريق. أما الاركان فخمسة الاحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة بعده والوقوف بعرفة في يومه ، واركان العمرة كذلك خلا الوقوف بعرفة ، ويجوز الافراد بالحج والافراد بالعمرة والجمع بينهما ، ومن آداب الحج ان يغتسل المرء عند الاحرام في ميقاته المشهود ويلبس ثوبي الاحرام الأبيضين تاركا ثيابه المخيطة وينوى عند السير عقب ذلك الاحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما معاً ويكفي مجرد النية والسنة أن يقرن بها لفظ التلبية (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) وندب تجديد التلبية بحسب تغير الاحوال وخلف الصلاة مع التوسط وعدم رفع الصوت حتى لا يبح

وهناك آداب وسنن لطيفة في دخول مكة وكيفية الطواف والسعي والوقوف في المناسك كلها من عرفة ومنى ومزدلفة والنحر ورمي الجمرات لا يحتملها هذا المختصر وترى مبسوطة

في كتب الفقه وأسفار المناسك مناسك الحج الاسلامي .

أما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة مدينة يثرب دار هجرته ومكان قبره الشريف ومسجده المبارك وحرمه المنيف فسنة يحسن القيام بها عند القيام بأداء فريضة الحج خصوصاً على نحو ما سبقت به العادة الاسلامية ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من حج وزار قبرى فقد وجبت له شفاعتي) وفي حديث آخر (من زار قبرى بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي)

* * *

القرآن عندنا معشر أهل الاسلام كتاب الله الينا الذى أنزله على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي اليه به منجماً اي مقطعاً مجزأ في بضع وعشرين سنة هى سنى النبوة الاسلامية وقد جمع فيه أصول شرعنا وإيماننا فهو عندنا كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حبل الله المتين والهدى والنور والصراط المستقيم ، وإذ قد جمع لنا الله فيه كل ما يهمنا من أصول الدين ومبادئ الخير في الدنيا والآخرة ومدد العقول والقلوب في الامور الاعتقادية والاجتماعية والادبية

والعلمية فلا جرم كان واجب التلاوة والتعلم على كل مسلم للاهتداء به فى الدين والدنيا ولقد جاء في فضل القرآن وتلاوته بالتدبر والتمعن آيات واحاديث جمة قال صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله وسنتي) وقال عليه الصلاة والسلام (من قرأ القرآن ثم رأى ان أحداً أوتي افضل منه فقد استصغر ما عظمه الله تعالى) وقال عليه الصلاة والسلام (افضل عبادة امتي تلاوة القرآن) وقال صلى الله عليه وسلم (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وعن ابن مسعود قال (اذا اردتم العلم فانثروا القرآن فان فيه علم الاولين والآخرين) وقال عمرو بن العاص (من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه الا انه لا يوحى اليه) ولا غرو فالقرآن فيه الهدى والشفاء كما قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة) وكما قال تعالى في آية أخرى (ان هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم)

ولتلاوة القرآن آداب وفضائل جليلة لا على قاعدة من يتخذ تلاوته مهنة ومحترفاً مما قد يدخل فى تلاوة الغافلين ولا على قاعدة من يتخذ بعض آياته ويدونها رقى تمائم ووصفات

عجائز فان هذا كله ليس فى شيء من المراد بتلاوة القرآن بالتدبر والعمل بحلاله واجتناب حرامه بل هو كما هو مشاهد فيه من امتهان كلام الله تعالى القديم ما فيه وانما المقصود بالتلاوة التلاوة الاسلامية الصحيحة المبنية على العبادة والاستفادة والاستمداد بروح القرآن في كل الشؤون لانها من افضلها واقربها للمبدإ الاسلامي ولهذه التلاوة عشرة آداب أو قواعد ضابطة : (١)

(١) ان يكون قارئ القرآن على وضوء واقفاً أو جالساً على هيئة الادب مستقبلاً للقبلة خصوصاً

(٢) ان يراعي الاكثار أو الاقلال بحسب ظروف الاحوال التي تتاح له وخير الامور الوسط للتأني المطلوب للتدبر والذكر سمعت عائشة رضي الله تعالى عنها رجلا يهذر بالقرآن هذراً فقالت « إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت » وما ورد عن بعض السلف من ان بعضهم كان يختم القرآن في الليلة أو نحو ذلك فهذا بحسب مبلغ اجتهادهم وتفرغهم .

(٣) وللسهولة لزمت قسمة القرآن في التلاوة بان يخصص المرء لكل يوم منه جزأً أو اكثر أو أقل والقرآن كما لا يخفى

---

(١) الاحياء للغزالي

مقسم بحسب الرسم العثماني الى اجزاء واحزاب أحدثت في المصاحف لهذه الغاية من التسهيل فى التلاوة .

(٤) الترتيل لقوله تعالى « ورتل القرآن ترتيلا » لان الترتيل مفيد على العموم للتفهم والتفكر ، ولقد وصفت أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام قراءته للقران فاذا هي تنعت قراءته وتصفها مفسرة حرفاً بحرف . وقال ابن عباس رضي الله عنه « لان اقرأ البقرة وآل عمران ارتلهما وأتدبرهما أحب الي من ان اقرأ القرآن كله هذرمة » أى مسرعاً في القراءة

(٥) إحضار القلب خشية ورهبة وشوقا وهو المقصود لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا » فاحضار القلب عند آيات الوعيد والزواجر خشية قد يملأ القلوب خشوعا وعظة كما قد يملأ هذا القلب فرحا ونشاطاً وشوقاً عند آيات الوعد والبشارة وان الله لا يضيع اجر العاملين في خيري الدنيا والآخرة وهذا كله يتبع أحوال المرء في قوة نفسه وأخذه واستحضار فكره وذهنه عند التلاوة وقوة الايمان .

(٦) مراعاة حق الآيات المختصة بالسجدة فيسجد لها

سجدة التلاوة وفي القرآن كله أربع عشرة سجدة ولا يسجد الا على طهارة

(٧) افتتاح القراءة بالاستعاذة والبسملة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم » واختتامها بقول القارئ « صدق الله العظيم » وفي تضاعيف القراءة اذا مرَّ بآية دعاء دعا إما بقلبه وإما بلسانه ، وكذا في آيات الاستغفار اذا مرَّ بآية منها يستغفر وإن مر بآية رجاء سأل الله وان مر بآية خوف استعاذ بالله تعالى ، ولختم القرآن دعاء مأثور مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو مثبت في آخر المصاحف العثمانية المتداولة .

(٨) الجهر بالقراءة لحد أن يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع به المرء نفسه

(٩) تحسين القراءة وتزيينها بالصوت الحسن قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن باصواتكم »

(١٠) القراءات المشهورة سبع فللمرء ان يختار منها ما شاء ليقرأ القرآن بها وان كانت اكثر المصاحف الحالية قد قصرت

على احداها وهي قراءة ابي حفص عمر فلذلك يفضل لغير الفقيه الاقتصار عليها ناهيك وانها من افصحها .

ولا أطيل في الآداب الباطنـة اذ القرآن كله مواعظ وحكم وعبر وبشارة ووعد ووعيد ودلائل آيات في خلق الكون بينات وكله متى التزم المرء فيه أدب التلاوة ولذة التدبر والتأمل بشوق وعزيمة وجد من نفسه لنفسه خشية وخشوعاً وحسن نظر وتدبر في صفات الله تعـالى وافعاله وعظيم قدرته وابداعه لمصنوعاته وجميل افعاله وتصرفاته في خلقه ولطفه ومننه ورحمته وحكمته وعدله في ربوبيتـه ووحدانيته وتنزهه عن الشريك والمثيل والند والنظير وسيأتي مزيد افصاح عن القرآن وتفسيره في باب أدب العلم

***

وليس بعد تلاوة القرآن ومدارسته في أدب العبادات اجمل ولا افضل من ذكر الله — ولذكر الله اكبر — والذكر باللسان والجنان وليس المراد بالذكر هنا تلك المجالس التي انحط فيها المسلمون الى البـدع والرقص على نشيد المنشدين أو نقر الدفوف فان هذا وامثاله من اعمال جهلة المتصوفة خارج عما

أنا بصدده البتة لانه ناد عما كان عليه السلف الاول ولا يناسب روح عصرنا الحالي وانما المقصود بالذكر الذكر الذي أمرنا الله تعالى به من أحضار القلب عظمة الرب وذكره وتسبيحه بالقلب الخالص سواء فى السر أو العلن وسواء على انفراد او فى جماعة ولا سيما عقب الصلوات مستصحباً المرء فيه الخشية والخضوع وطهارة البـاطن اما ذلك الرقص والتغني بالقصائد المملوءة بالغزل والنسيب البارد والشخر والنخر والطبل والزمر فما هو الا البدعة بعينها والضلالة كل الضلالة

وأنت ايها المسلم العصري اذا تأملت بثاقب الفكرة قوله تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » علمت حقيقة هذا الذكر الذي عناه الله بقوله تعالى « ولذكر الله اكبر » وفهمت سره ومراد الله تعالى منـه في امرنا به « واذكروا الله » و « اذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة » لا ما أخـذ القوم به من قشور وبدع وضلالات لم يجن منها الاسلام فائدة ما

ومن افضل الذكر التهليل عند الوضوء والتسبيح عقب

الصلوات والاستغفار « وبالليل هم يستغفرون » « ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » والدعاء والضراعة الى الله تعالى لقوله تعالى « أدعوني استجب لكم » « أدعوا الله مخلصين له الدين » وقوله تعالى « فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون »

وأفضل الدعاء المأثور وللمرء أنه يدعو بما شاء من خير له ولغيره بشرط أن لا يتخطى ما أحل الله لعباده أو بما لا يخرج عن حد المعقول كما دلت عليه الآثار الشريفة خصوصاً عقب الصلوات وبالاسحار اي فى الليل الذي هو متجلى الرحمات ويدعو المرء بأي اسم شاء من أسماء الله الحسنى « أياً ما تدعوا فله الاسماء الحسنى »

وللدعاء شروط وآداب كاستقبال القبلة ورصد الاوقات الفاضلة والاحوال الشريفة وخفض الصوت بين المخافتة والجهر وعدم تكلف المحسنات اللفظية من السجع والترصيع والتزام الخشوع والخضوع واستحضار القلب والتوبة من الذنوب ورد المظالم الى اهلها وتكرير الدعاء . كان صلى الله عليه وسلم اذا دعا دعا ثلاثا لحكمة التشريع في إلفات النفس الى ماهى بصدده من الامر والموقف العظيم فلا تغفل عن موقفها وتوقن بالاجابة

وهو واجب الاعتقاد بشرطه — ويصدق الرجاء والامل وتعظم الرغبة والشوق ، قال صلى الله عليه وسلم « أدعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وأعلموا ان الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل »

وورد في الكتاب والسنة الامر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » والصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار (يستغفرون لمن في الارض) ومن الناس الدعاء وجاء في الحديث « من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً ومن صلى عليّ عشراً صلى الله عليه مائة » وصيغ الصلوات كثيرة افضلها المأثور في كتب السنة المعتمدة .



الباب الثالث

﴿ أدب العلم ﴾

شرف الانسان ـ فضل العلم ـ فضل التعليم والتعلم ـ العلم في الصغر ـ تفاضل العلوم ـ ابتداء أمر العلم في الاسلام ـ العلوم التي اشتغل بها المسلمون ـ المقدار اللازم من العلم الذى هو فرض عين ـ أدب التوحيد ـ الفقه ـ علم التفسير ـ علم الادب ـ العلوم الآلية ـ ما يلزمنا الآن معاشر المسلمين بالنظر الى الجمهور

يمتاز الانسان عن الحيوان الاعجم بقوة العقل والفكر والنطق وهذه الميزة والكرامة من الخالق جل شأنه للانسان جعلته أهلا للخلافة أى السيادة على الارض يستعمرها ويسود عليها ويستخدم مواليدها وقواها الطبيعية في شؤونه بالعمل والكدح ولذلك كان من أهم واجباته أن يستزيد مما يقويه ويسهل عليه مهمته هذه ولا شيء ينيله ذلك غير العلم والمعرفة ولهذا جاء الدين الاسلامي حاثاً على العلم آمراً به موجباً له كفرض عين على كل مسلم في أمرى الدين والدنيا حتى يعلم الانسان المفروض عليه في اعتقاداته وعباداته وأمر معاشه في الهيئة وأدب الاجتماع البشرى واصلاح هذه الدنيا التي ينتفع

بها واتقان ذلك كله بالعلم والمعرفة وفي هذا منتهى الشرف والرفعة لنوع الانسان وتفاضله من أجلها بعضه على بعض وكتاب الله تعالى ناطق بفضل العلم والعلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وقال عليه الصلاة والسلام « الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم » وقال أيضاً « اذا أتي عليَّ يوم لا ازداد فيه علماً يقربني من الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم » وقال عليه الصلاة والسلام (العلماء ورثة الانبياء) وفي حديث آخر (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده)

وقال الامام على رضي الله تعالى عنه لكميل (يا كميل العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق) وقال الزهرى (ما عبد الله بشيء أفضل من العلم)

هذا قليل من كثير مما قيل في فضل العلم على الاطلاق وما قيل عند أهل الاسلام في فضل التعلم والتعليم بالتبعية لذلك

كثير ايضاً قال تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً) ولا شك ان الدعوة الى الله تعالى لا وسيلة لها الا بالعلم والتعليم اللذين ثمرتهما العمل ولقد حث القرآن المجيد على نشر العلم وطلبه قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة نفر ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) وقال تعالى (وإذ أخذ الله من النبيين ميثاقهم لتبيننه للناس ولا تكتمونه) أراد به الله تعالى نشر العلم أو ما هو من أخصه معرفة الله تعالى وشرائعه

(وقال تعالى أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

وما الحكمة والموعظة الحسنة الا العلم الشامل الجامع لخيري الدنيا والدين كالذى يطلب اليوم وينشد من (جامعات العلوم) و (كليات المدارس) وفي هذا منتهى الفخر والسؤدد الذى جاء للترغيب في الاستزادة منه قوله تعالى (قل رب زدني علماً) وجاء فى الحث على طلب العلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وفي حديث آخر (اطلب العلم ولو بالصين) وفي حديث (طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة

والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجل) وفي حديث (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم) وهناك حديث آخر دال على فضل العلم وطلبه (ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم)

والآثار في الباب باب مدح العلم والتعلم كثيرة لا يكاد يحصيها مثل هذا المختصر ولقد شبه بعض العلماء حاجة الانسان الى العلم بحاجة المريض الى الدواء فالعلم ضروري للنفس والتعلم واجب على المرء ولقد قال الامام على كرم الله وجهه (ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير ان يكثر علمك) وسئل ابن شهاب أأفضل العلم أم العمل فقال (العلم لمن جهل والعمل لمن علم) وقال الشافعي رضي الله عنه (طلب العلم افضل من صلاة النافلة)

وأفضل العلم ما لقن في الصغر لانه يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (العلم في الصغر كالنقش في الحجر) وقال عليه الصلاة والسلام في الترغيب في تعليم الاطفال (ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيده إياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه) وقيل (من أدب ولده فقد

ارغم ضده ومن لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يحب) لكن اذا كانت هذه الدنيا من المهد الى اللحد دار عمل و كدح وتجربة وتعلم لذلك لم يكن لامرئ بد من الاستزادة فيها من العلم والنور وقد مرَّ بك قوله تعالى (وقل رب زدني علماً) والحديث الشريف (اذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم) مع ان مقامه صلى الله عليه وسلم أرفع من ان يحتاج فيه الى التعليم الدنيوي وانما حكاه للتشريع ككل ما جاء مثله للتشريع للامة وتعليمها وارشادها حتى لا يقعد بالكبير والعظيم همتهما دون الاستفادة والاستزادة من علم ينفع وحكمة تلتقط وعمل جليل يختار ، ولقد سأل بعض الناس عالماً عظيماً من السلف الصالح (أيحسن بي أن أتعلم وأنا كبير - فقال له ذلك العالم على الفور - اذا كان يحسن بك أن تعيش فانه يحسن بك أن تتعلم) وكان عطاء يقول وهو في التسعين من سنيه (وددت لو اني أحسن العربية)

فالعلم والعمل به هو السعادة الابدية لانه وسيلتها العظمى ونقطة ارتكازها الكبرى في الدنيا والآخرة بل هو مطية

السعادة الذاتية ومنتهى لذة الحياة وتقدمها ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث شريف (من طلب الدنيا فعليه بالعلم ومن طلب الآخرة فعليه بالعلم) وقال في حديث آخر (إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم من يطلب الخير يؤته ومن يتق الشر يوقه) ولا شر شر من الجهل (١)

***

والعلوم البشرية تتفاضل بحسب الفوائد التي تحصل منها والثمار التي تجنى وزيادة النفع بالنسبة الى الظروف المحدقة والمقتضيات الزمانية غير ان ما كان على العموم من العلوم والمعارف أمس بأحوال الناس الاجتماعية وألصق بأمورهم النفعية كالشرائع والآداب ونحوها عد أشد وجوباً من غيره في التعليم ثم يأتي بعده الامثل فالامثل من العلوم والمعارف البشرية مرتبة بحسب مراتبها النفعية كالطب لحفظ صحة الابدان وكالحساب والهندسة للزومهما في قيام المصالح وعمارة هذا العالم ثم العلوم الكونية الطبيعية لمعرفة ما في الكون من عجائب وغرائب وقوى واسرار ومنافع ناهيك بأن فيها وفي

---

(١) الاحياء والجامع الصغير وغيرهما

نواميسها الدقيقة المحكمة النظام والترتيب اجل براهين وجود الصانع تعالى وبديع حكمته

ولقد جعلت الشريعة الاسلامية العلوم والمعارف درجات بعضها فوق بعض فكان منها بمقتضى هذا الترتيب ما تعلمه في نظر الشريعة (فرض عين) كالعقائد والشرائع التعبدية وبعض التعاملية والآداب النفسانية ومنها ما هو (فرض كفاية) اذا قام به البعض سقط عن الآخرين كالهندسة وكالطب الى اشباه ذلك فترى من هذا ان الدين الاسلامي قد أحكم الاختيار في تحرى العلوم بالنظر الى مصالح البشر الصحيحة مما يعتنى به وينشده علماء العصر في تبسيط أمهات الشرائع والآداب العملية الى اشباه ذلك لانهم يرونها كما رأتها من قبل مبادئنا الاسلامية من لوازم البشر في اجتماعاتهم وحاجتهم الى العلوم بحسب تفاوتها في درجة نفعها ولزومها لسير العمران من أصول الآداب الاجتماعية والشرائع ثم وسائل ذلك من أصول المعارف الاخرى الضرورية ثم تخصيص العلوم العالية والتعمقات الفنية بفئات مخصوصة كالتي هي في حكم الفرض الكفائي في شريعتنا الاسلامية

ولما كان المسلمون قلالا ولأول عهدهم بالحضارة الاسلامية كان تحصيل العلم بينهم قاصراً على فهم امور الشريعة وآي القرآن واستنباط الاحكام منها ومن السنة بالتلقين والرواية والحفظ دون اهتمام بتدوين علومهما في الاسفار والكتب ولكن لم يلبث الحال طويلا على ذلك حتى غيروا تلك الحال بأرقى منها فكثر تعلم الخط العربي بينهم ودوّنت من ثمّ الكتب والاسفار الجليلة في سائر العلوم وصار تعليم العلم صناعة من الصناعات تكثر وتقل بحسب الظروف المحدقة بالهيئة الاسلامية في تقلباتها المختلفة

واكثر اصول العلوم التي يشتغل بها المتأخرون قد أولاها المسلمون من قبل عنايتهم واشتغلوا بها بقدر طاقتهم ومبلغ ما اقتضته تقدمات عصورهم ورقي أزمنتهم وسعة معارفهم ولكل أيام دولة ورجال وحال من الرقي يناسب الحال .

أما العلوم الفقهية فقدوفوها حقها بما لا مزيد عليه لمستزيد اصولا وفروعا بالنظر الى ما ناسب وقائع زمانهم وظواهر حوادثه وكذا العلوم الكلامية من العقائد والآلهيات ثم علم التفسير تفسير القرآن المجيد وعلوم الحديث حديث رسول الله صلى الله

عليه وسلم ثم علم الاخلاق وآداب النفوس والسلوك على طريقة الصوفيه أو على طريقة الفلاسفة اليونانيين ثم علوم اللغة العربية من النحو والصرف والمعاني والبديع والبيان واللغة والشعر وأدواته ثم المنطق والفلسفة والجدل ثم الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك او الهيئة مما يدلنا على ان قومنا وسلفنا الصالح الاول لم يفتهم شيء مما يشتغل به أهل الغرب اليوم من العلوم والمعارف الا بمقدار ما توسع فيه أبناء العصور المتأخرة بمقتضى ناموس الارتقاء في الاساليب والاكتشافات والاختراعات التي انبنى عليها نسخ كثير من آراء المتقدمين واقوالهم لا في الاصول الحقة الثابتة ولكن في الآراء الطارئة بحسب تلك المكتشفات في العلوم الطبيعية خصوصاً .

وحيث اني هنا بصدد بيان أدب الاسلام وبعبارة اخرى بصدد ما بني عليه من الاصول الحقة والامور العامة الداخلة في الادب الاجتماعي الانساني والتمدين البشري وبيان ما اشتغل به المسلمون قديماً وما تأدبوا به او ترقوا بتحصيله من فروع العلوم البشرية اللازمة وفاق ما رأوه في ترتيبها وأهميتها من الوجهة النفعية والمكانة العملية بحسب أحوال الهيئة الاجتماعية

الاسلامية في تلكم العصور الماضية خصوصاً فلنكتف اذن بسرد بيان أهم فروع تلك العلوم التي اشتغل بها المسلمون مبتدئين بالعلوم الخصيصة منها باللصاق بالدين فأقول .

الاول التوحيد — اختلف علماء الملة قديماً في بيان العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل فقال الفقهاء هو الفقه المبين للشرائع المبينة للحلال والحرام وسائر المعاملات، وقال أهل التفسير وأهل الحديث هو علم الكتاب وعلم السنة إذ بهما يتوصل الى العلوم كلها ، وقال المتصوفة والاخلاقيون هو علم العبد بحاله ومقامه من الله تعالى والاخلاص له وآفات النفوس وتزكيتها من الارجاس والرذائل ، وقال العالم أبو طالب المكي هو العلم بما تضمنه حديث بني الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله الى آخره وهذا الذي اختاره اكثر أجلة المتكلمين فيكون من أدب الاسلام ان أول ما يجب معرفته من الفروض العينية « التوحيد » ثم « الفقه » وهذا وذاك يقتضي النظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فوجب « التفسير » ووجب « الحديث » واذ كان كل هذا فيما ظهر من أفعال العباد والمقصود بها جميعاً تزكية الباطن

مع الله تعالى ذلك الذي جاء فيه الحديث الشريف « من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينـه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيتـه » فمن ثمَّ لزم الوقوف على آداب النفوس والعمـل على تزكيتها لتنال السعادة الحقيقية ونحن اذا نظرنا الى باقي العلوم الشرعية وما بني عليها من العلوم الآلية التى جعلت كالوسيلة اليها وجدنا انها كلها متسلسلة الحلقات مفتقر بعضها الى بعض في أدب الاسلام بالمقدار المناسب للكافة في صلاح احوالهم وبالقدر الواجب للخاصة من أربابها فى صناعاتها وهذا بعينه ما نراه فى احوال المتأخرين فيما رأوه ضروريا من انواع العلوم والمعارف فالشرائع والآداب والمعارف الضرورية لاستصلاح احوال العـالم لابد من ان يلم أبنـاء الهيئة كلهم بالمبادئ الاولية الضرورية منهـا من الوجهة العملية خصوصاً على مثال ما نراه فى التربية العصرية عند المتأخرين فيما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف النافعة فى التربية العمومية أما التعمق والتبحر فى الاصول والفروع منها فيختص بأرباب الفن القائمين به والذين هم قادة وهداة لغيرهم فيه

***

لقد تقدم في اول هذا الكتاب في باب « أدب الاعتقادات» جملة مما فيه الكفاية من الوجهة العملية والنظرية في « التوحيد » فيما يتعلق بمبدئه اسلامياً أما تعلمه والتأدب به عند الكافة من المسلمين كعلم يجب تعلمه لانه فرض عين على كل مكلف فينحصر في معرفة العقائد الدينيـة واجبها وجائزها ومستحيلها بحق الذات العلية ذات الله تعالى القدسية ثم ما يتبع ذلك من العقائد وحكمه كما ترى الوجوب العيني على كل مكلف من ذكر وانثى واولها معرفة الصفات العشرين الواجب اعتقادها بحق الله تعالى وهي (١)

الوجود ، القدم ، البقاء ، مخالفة الحوادث ، قيامه تعالى بنفسه ، الوحدانية ، القدرة ، الارادة المتعلقتان بجميع الممكنات العلم المتعلق بالجائز والمستحيل ، الحياة ، السمع ، البصر المتعلقان بجميع الموجودات ، الكلام الذي ليس بحرف ولا بصوت ويتعلق بما تعلق به العلم ، وباقيها وهي سبعة تتعلق تعلق ملازمة بالصفات السبع الاخيرة منها ويقال لها الصفات المعنوية وهي كونه تعالى قادراً ومريداً ، عالماً ، حياً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلما

---

(١) الاحياء للغزالي وشروح السنوسية في التوحيد

أما الصفات المستحيلة في حقه تعالى فهي العشرون صفة التي تضاد الصفات السالفة من : العدم . والحدوث. والفناء . والمماثلة للحوادث . وعدم القيام بالنفس . والتعدد . أو التركيب . والعجز وعدم الارادة . والجهل . والموت . والعمى . والصمم . والبكم الى آخر ما يقع مضاداً للصفات العشرين الواجب التأدب باعتقادها فى الاسلام بحقه تعالى

أما ما يجب اعتقاده بحق الرسل عليهم الصلاة والسلام فالصدق والامانة وتبليغ ما أمروا بتبليغه الى الخلق ، ويستحيل في حقهم اضداد هذه الصفات من الكذب والخيانة بنقل شيء نهوا عنه نهي تحريم أو كراهة أو كتمان شيء مما أمروا بتبليغه الى الخلق وقد نص القرآن في غير موضع منه على تلك الاحوال للرسل وامثالها « وما ينطق عن الهوى » « ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه بالوتين» الى اشباه ذلك من الآيات.

ويلحق بذلك تصديق ما اخبروا به من احوال الآخرة من الحشر والنشر والجنة والنار الى آخر ما تراه مبسوطاً فى كتب العقائد الموضوعة للكافة والمبرهن عليها عقليا ونقليا وقد تقدم شيء منها فى اول الرسالة

أما الفقه من العبادات والمعاملات الشرعية فلازم أيضا لابناء الهيئة لزوم التوحيد اصولاً للتشريع وفروعا للعمل لان الاسلام إيمان وتصديق بالقلب واللسان ثم عمل بالاركان وحكم هذا الفقه الوجوب العيني فى فروعه العملية بقدر ما يعرف المرء به تصحيح عباداته وما فى حكمها من معاملاته واحواله الشخصية اللازمة لكل انسان فى الهيئة أما ما زاد على هذا القدر أصولا وفروعاً فحكمه الوجوب الكفائي ولعمر الحق ان هذا لهو اسمى ما يطلب لصلاح أحوال الكافة لان تفرغهم ذلك التفرغ العظيم المطلوب لما هم بصدده من الاعمال الحيوية والمهن المعاشية وطلب الارزاق والسعى بهذا كله فى عمار العالم موجب كله لهذا قاض به بطبيعة الحال فصار انقطاع الفقهاء والمتشرعين من العلماء لما هم بصدده من الاصول الفقهية والفروع المستنبطة وتسهيل ورودها على الناس فى حل مشكلاتهم ومعضلاتهم وتنظيم شؤونهم مهنة لهم لازمة للهيئة الاجتماعية فى كل عصورها على حسب مقتضيات احوالها كما صار ما هو فرض عين من الفقه لازماً لكل مكلف لصلاح أمر دينه ودنياه بحسب تلك المقتضيات الزمانية حتى تكون الهيئة الاسلامية على الدوام فى

ترق مستمر تبعاً للاحوال والظروف ولهذا على ما يقول الفقهاء والاصوليون اصل كبير فى الدين

ولقد مرّ بك جملة صالحة مما هو في حكم الفرض العينى من الفقه في باب ادب العبادات من هذه الرسالة بمقدار ما وسعه نطاقها ولا حاجة بي هنا الى المزيد وهناك من الكتب فيه على اختلاف المذاهب ما لا يقع تحت حصر وان كان ينقصنا منها (كتب عصرية) تناسب روح الزمان في اساليبه واذواقه و (احواله) حتى يسهل ورود الشرع حياً على كل وارد من الكافة من المسلمين المتعطشين لذلك المحتاجين اليه أيما احتياج ولا إخال أحداً من أبناء العصر المهذبين الا وهو يشعر بحاجة الامة الى ذلك ويلوم القائمين بزعامة العلم الشرعي على جمودهم وا كتفائهم بالحواشي والتقارير والشروح القديمة التي لا تناسب في تطبيقاتها احوالنا الحاضرة ولقد قال بعض قضاة الجزائر الحاليين ان الشرع الاسلامي غير واقف وانما هو ككل اشياء هذا العالم في ارتقاء مستمر على ان الذي ينقصه انما هو الهمة والعزيمة من اهله حتى يجلى عن شأنه ويستوفى حقه في الاخذ بيد الامة في تقدماتها واشيائها الحالية ولا يرمي

بالنقص عن الكمال من جماعة الباحثين الغربيين

أما التفسير تفسير كتاب الله تعالى القرآن المجيد والذكر الحكيم الذى لا يفرغ جديده بالكشف عن معاني آياته وأسرارها الصالحة لكل زمان ومكان لانها قد استوفت الاصول العامة للشرع والعقائد والآداب الاجتماعية السامية وتأويلها بحسب ما يظهر منها لذوى النهي وأرباب البصائر من الراسخين في العلم والحكمة من ابناء الملة الاسلامية فحكمه الوجوب الكفائي لاهل العلم الاختصاصيين وبعبارة أخرى لأولئك العلماء المتبحرين في كل فن من اللغة والشريعة والعلوم الطبيعية والفلسفية بحسب مبلغ اطلاعهم في أزمنتهم على الحقائق والوقائع العمرانية والحوادث الكونية [1] ولهذا حذر الشارع الحكيم من تأويل القرآن بالرأي وقال تعالى تنبيهاً على هذا المبدإ (لا يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم) حتى لا تصرف معاني الآيات الى آراء واحوال قد ترى ببداهة العقول ومواقع الآيات وتناسبها واسباب نزولها انها قد صرفت في غير حقها من المعنى الصريح أو التأويل الرجيح كما قد وقع فيه الكثير من

---

(١) قد حاز قصب السبق في الباب الامام الرازي في تفسيره الكبير

الصوفية وأرباب الاشارات الامر الذى يبدو لمين كل ناقد بصير مطلع على تفسيراتهم وتأويلاتهم

على ان هذا ليس بمانع ان يكون في الآيات القرآنية معان غير ما فهم منها بظاهر التفسير أو معان أخرى تناسبها منه وقصدها الله تعالى حتى تتساوى العصور في الاخذ والاستنباط من القرآن حكمة من الله تعالى وفضلاً والقرآن كما قيل (هو السهل الممتنع والقديم الذى لا تفرغ جدده) قال حجة الاسلام الغزالي رحمه الله تعالى [1] (من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن نفسه وهو مصيب في الاخبار عن نفسه ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومحطه بل الاخبار والآثار تدل على ان في معاني القرآن متسعاً لارباب الفهم : قال على رضى الله تعالى عنه (إلا ان يؤتي عبداً فهماً في القرآن) فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ، وقال صلى الله عليه وسلم (ان للقرآن ظهراً وبطناً ومطلعاً) [2] وفي هذا كفاية لقوم يعقلون

---

(١) الاحياء للغزالي (٢) راجع أيضاً الاتقان السيوطى ففيه شيء كثير يؤيد ذلك او يخالفه اه

ونحن بأشد الحاجة الى تفاسير تطبق فيها المكتشفات العصرية والحقائق العلمية على الآيات القرآنية ثم تأويل بعض آيات يفهم منها بحسب الظاهر ما يخالف المعهود المألوف تأويلاً يشفي الصدور ويقنع العقول مما هو من مصلحة الامة وشد أزر دينها تبعاً لسنة الارتقاء التي شملت كل العناصر خلا امثال هذا الباب على نحو ما اشرت اليه بالنظر الى الفقه وحاجة الامة الى كتب عصرية فيه مما هو من أشد موجبات الاسف ولو كان فسح الله تعالى في اجل الامام المرحوم الشيخ محمد عبده لاتم تفسيره العصرى ذلك الذى لم يظهر منه غير قطع ونتف قليلة ولبلّ بهذا الصنيع صدى الامم الاسلامية في جميع أقطار العالم

أما علم الادب ـ أدب النفوس وتهذيب الاخلاق العملية فهذا ايضاً مما تجب مدارسته على انفراد وان كان مندمجا فى الاخلاق الدينية للوقوف على الرذائل لاجتنابها والوقوف على الفضائل للعمل بها . وهو يقسم الى أدب مع النفس وأدب مع الخلق وادب مع الخالق وسيأتي فى باب ادب النفس من هذا المختصر جملة صالحة منه بقدر ما يحتمله المقام.

ويدخل فى هذا الباب علم التصوف من مجاهدة النفس وتزكية القلوب والاعراق بطريق الرياضة والتأدب بحضرة الرب تعالي وتصفية الباطن والظاهر من الا كدار فى جميع الشؤون والاطوار كما قال الشاعر ملمحاً

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه
ولا بكاؤك ان غنى المغنونا
ان التصوف ان تصفو بلا كدر
وتتبع الشرع والقرآن والدينا

فالتصوف على هذا فرع علم أدب النفوس لهذا طلب قديماً لانه كما قال احد مشايخه الشيخ قاسم الخالي (انه الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطناً) على ان القوم لما غيروا وبدلوا وتوسعوا وتطرفوا وتشددوا وتعمقوا لهذا كله خرجوا عن المبدأ الصحيح والغاية الحميدة خصوصاً متأخروا المتصوفة فانهم نهجوا نهجاً مخالفاً للشرع وخبطوا خبط عشواء في دياجير البدع والجبر المحض مما جعل الادب والكمال الشرعيين المطلوبين في علمهم هذا في واد وهم باعمالهم وافانينهم في واد آخر غير ذى زرع ولقد جاء في الحديث الشريف هذه الحكمة العالية الكاشفة

(إياكم والتعمق في الدين فان الله جعله سهلاً فخذوا منه ما تطيقون فان الله تعالى يحب ما دام من عمل صالح وان كان يسيراً)

أما العلوم الآلية التى هى وسائل ووسائط لفهم أسرار الدين ومعاني القرآن وبلاغاته وحكمه واحوال النبوة واحاديث سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ثم تسهيل فهم العلوم الدنيوية فقد حدثت بالضرورة بعد عصر النبوة وتطلب العقول والرقي الاسلامى للمتسع من الاحوال والتقدمات العلمية فشاع الخط العربي والقراءة والكتابة تلك الاشياء التي هي ضرورية لكل انسان ووضع علم النحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافيـة بالنسبة الى الشعر وتشبثت العقول بتعلم الحساب والجبر والهندسة والفلك لضرورتها فى احوال الخلق وتصرفهم في الشؤون العمرانية الحسية والمعنوية والطب ذلك الفن الذى عليه مدار حفظ صحة ابدان افراد الهيئة ومداواتها من الامراض الطارئة والاسقام اللاحقة ثم العلوم الطبيعيـة لمعرفة اسرار مواليدها والتاريخ وتخطيط البلدان وتدوين الاخبار والآداب وقول الشعر وفن الموسيقي [1]

---

(١) مقدمة ابن خلدون وغيرها

فهذه منها ما هو واجب تعلم مبادئه على كل انسان ومنها ما يخلق بان يدخل في حكم الفرض الكفائي والكمال العمراني فيختص به ارباب الفن الاختصاصيون حتى تنتظم أحوال العمران البشرى وللسلف من اهل الاسلام في كل منها آثار جليلة ومآثر غراء واياد بيضاء بقدر ما وسعه حالهم واقتضاه نفعهم ومصلحتهم من معقول العلوم ومنقولها

والذي يلزمنا نحن ان نتأدب به معاشر اهل الاسلام العصريين فى هذا العصر من جهة اكتساب العلوم وتحصيل المعارف اللازمة لرفينا ورقى هيئاتنا هو ان نتحرى بسوادنا الاعظم الاحاطة بالمبادئ الدينية التي هي فرض عين ثم ان نتعلم مبادئ العلوم الآلية الضرورية من الخط ومبادئ اللسان والحساب وشيء من دروس الاشياء وادب النفس حتى يدخل احدنا غمار هذه الحياة وهو على شيء ويزاول فنه الخصوصى وهو على جانب من المعرفة والعلم الضروري والعلم كما قال الشاعر :

العلم يحيي نفوساً قط ما عرفت من قبل ما الفرق بين الصدق والمين
العلم للنفس نور يستدل به على الحقائق مثل النور للعين

الباب الرابع

ادب العمل

شرف وظيفة الانسان ـ فضل السعي في الدنيا ـ الخلق مسخرون في اعمالهم وليسوا مخيرين ـ مبدأ الصناعة البشرية ـ حكم الصناعة في الاسلام ـ الحث على اتقان الصنائع ـ امهات الصنائع ـ الفلاحة ـ صناعة البناء وفن العمارة ـ النجارة والحدادة ـ الوراقة حرفة التجارة ـ صناعة النقل ـ الخدم ـ صناعة التعليم ـ الطب ـ الغناء والموسيقى جمع المال من حلال .

خلق الله تعالى هذا العالم الارضى وجعل اعيانه كلها المنتفع بها من المواليد الثلاثة مذللة مسخرة للانسان الذى زانه بالعقل وحلاه بالفكر وسخره بالارادة ليعمر الارض تعميراً يوافق السنن الآلهى المطلوب في تنظيم العالم وتنسيق اشيائه واستخراج مواد معاشه على أكمل وجه ولقد نطق الكتاب العزيز بذلك في كثير من المواضع منه ماهو على سبيل الامتنان للدلالة على شكر الصانع الحكيم ومنه ما هو على سبيل الحث لتجويد الاعمال والقيام بها في اصلاح الارض على أكمل وجه يقتضيه أمر الخلافة قال تعالى في خطاب بني اسرائيل « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف

تعملون » وقال في خطاب المسلمين « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » وجاء فى تذليل الارض وتسخيرها لبني آدم « ولقد مكنا كم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون » « وسخر لكم مافى الارض جميعاً » و « ذللناها لكم » وجاء فى تحرى أحسن العمل فى الارض «انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » وقال تعالى في السعى وابتغاء الارزاق بالعمل من فضل الله « فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » « واسعوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » « الله يبسط الرزق لعباده » « وانبتنا فيها من كل الثمرات رزقاً للعباد » وقال في تقسيم الاعمال والمساعى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » الى غير ذلك من الآيات البينات والحجج القاطعات موردة في معرض الامتنان تارة والحث على السعي في طلب الرزق أخرى سواء بالنظر الى الجماعات أو الافراد على أكمل الوجوه وأتم الخلال المطلوبة مما سماه الله تعالى اصلاحاً حتى تتم بذلك وظيفة الخلافة الآدمية ويتم عمار هذا العالم ويكون

صلاح هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة ودار التكاليف فى كل الاعمال الحسية من حيث الصنائع والفنون على انواعها والمعنوية من حيث الآداب والشرائع والعلوم مما العمل له كله واجب على المجموع الانساني ولله ما أجل الحكمة المودعة في الأثر الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » فالدنيا نعمة واستصلاحها واجب والشكر عليها فرض والقيام بحقها بالنظر الى السعى في طلب العيش بأوسط الطرق ضربة لازب قال النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الحث على العمل والسعى على الرزق « ان من الذنوب ذنوبا لايكفرها الا الهم في طلب المعيشة » وأنت اذا تأملت فى حقيقة الذنوب التي تجلبها البطالة والفراغ رأيتها اكثر من ان تحصى. وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسئلة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر » وهذا الحديث بما بني عليه من المعنى أصل في الاجتماع إذ العمل مطلوب فيه والسعى فى تربية العيال مرغوب فيه بطبيعة العمران وصون النفس وتعففها من خير ما وهبت النفوس ومديد المساعدة والرفد الى فقراء ابناء

الهيئة محبوب وقال عليه الصلاة والسلام « ان الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس» وقال كذلك في اتخاذ الحرفة « ان الله يحب المؤمن المحترف» وقال ايضاً فى الكسب الحلال والبيع المبرور (أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور) (أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع) وقال فى فضل التجارة (عليكم بالتجارة فان فيها تسعة اعشار الرزق)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحث على العمل (لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة) وكان زيد بن سلمة يغرس فى أرضه فرآه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له مشجعاً على العمل (أصبت استغن عن الناس يكون أصون لدينك واكرم لك عليهم) كما قال صاحبكم احيحة:

ولن أزال على الزوراء أعمرها ۝ إن الكريم على الاخوان ذو المال

والآثار والاقوال فى الباب باب فضل العمل والسعي واكتساب المال الحلال يضيق عنها الحصر وتطول فى سردها الشروح ومجمل القول انه لا انتظام لامر هذا العالم الا بسعي الافراد فى طلب المعاش والجماعات حتى تعمر الدنيا وفاق السنن

الآلهي المطلوب ولقد أوجدت الشريعة النظامات الكافلة فى كل المعاملات من حق الملكية والبيع والشراء وحرية التجارة والاخذ والعطاء وانحت على الاحتكارات وجعلت لكل ذلك قيوداً وحدوداً عامة صالحة لكل زمان ومكان حتى يستبان حرامها من حلالها وصحيحها من فاسدها وا كثر الاصول تناسب مقتضيات كل زمان ومكان حتى ينتظم أمر الخلق ويسعدوا فيما هم بصدده من الاعمال والصنائع والمحترفات وكل المهن الاجتماعية والاعمال المعاشية التي الخلق مسخرون لها في صورة مخيرين بطبيعة حال العمران البشري قال الامام الراغب الاصفهاني :

« لما احتاج الناس بعضهم الى بعض سخر الله كل واحد من كافتهم لصناعة ما يتعاطاها وجعل بين طبائعهم وصنائعهم مناسبات خفية واتفاقات سماوية يؤثر الواحد حرفة من الحرف ينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه بمزاولتها فاذا جعل اليه صناعة أخرى فربما وجد متبلداً او متبرماً بها وقد سخرهم الله تعالى لذلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الاقوات والمعاشات ولولا ذلك لما اختاروا من الاشياء الا احسنها ومن

البلاد الا اطيبها ومن الصناعات الا الطفها ومن الاعمال الا ارفعها ولتناجزوا على ذلك ولكن الله تعالى بحكمته جعل كلاً مسخراً في صورة مخير فالناس اما راض بصنعته لا يريد عنها حولا كالحائك الذي يرضى بصنعته ويعيب الحجام والحجام الذي يرضى بصنعته ويعيب الحائك وبهذا انتظم أمرهم كما قال تعالى «فتقطعوا أمرهم بينهم زمراً كل حزب بما لديهم فرحون» واما كاره لها يكابدها مع كراهيته اياها كأنه لا يجد لها بدلا وعلى هذا دلّ قوله عليه الصلاة والسلام « كل ميسر لما خلق له » بل صرح تعالى بقوله «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » وقال « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وقل كل يعمل على شاكلته » ولهذا قال عليه الصلاة والسلام« لن يزال الناس ما تنافسوا فاذا تساووا هلكوا » والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضع سبب الالتئام والاجتماع والاتفاق كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها التي لولاها لما حصل لها نظام فسبحان الله ما أحسن ما صنع وأحكم ما أسر وأتقن ما دبر ولهذا قيل من حق من قُيِّضَ له صناعة مباحة فرزق منها ان يراعيها على ما يجب كما مايجب وعليه قوله عليه الصلاة

والسلام « مَنْ رُزِقَ من شيء فليلزمه »(١)

فترى من هذا ومن أمثاله الكثيرة فى أقوال حكماء الملة الاسلاميـة ومن استقراء حال التمدين الاسلامى إبان ازدهائه واشراقه أن ما وُجدَ في كتب القوم مما يخالف هذا بظاهره من الانقطاع عن العمل والتفرغ للعبادة جملة ليس من المبادى الاسلامية البتة وقول بعض الباحثين الغربيين بالحمل على ذلك ان الصلاة الاسلامية لتخلو حتى من طلب المعونة على الرزق استغراقاً في العبادة ليس بالذي يدل على ذلك الذي يطعنون به على الاسلام وجملة القول انه لم يرد بهذا أمر من الله ورسوله بل كره الاسلام الكسل وحرم التبطل ومقت صاحبه وفضل عليـه رجل العمل وصاحب الشغل وحكاية ذلك الرجل الذي كان يلزم المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدح الصحابة له بالفضل في العبادة حين مات وتفضيل النبي صلى الله عليه وسلم من كان يعوله عليه شهيرة في كتب السنة ولله ما أبلغ هذه الحكمة المعزوة الى لقمان الحكيم فيما وعظ به ابنـه وقد أوردهـا مؤلفو العرب للنصح والارشـاد قال « يا بني استغن

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة للامام الاصبهاني

بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما افتقر أحد قط الا اصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في عقله وذهاب مروءته وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به »

على ان قيام هذا العالم الانسانى بطبيعة النظام الطبيعي للعمران البشري وما ركبَ في الانسان نفسه من أجله من غريزة التنازع على البقاء التي تفسرها تلك الخصال من الحرص وخوف الفقر لينتج القيام بالعمل ويبعث النفوس على الجد والكد واحتمال كل التكاليف الادبية والاجتماعية لتحصيل الاقوات والارزاق مما يفسره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس من خوف الفقر فى الفقر » فالعمل والسعي واجبان انسانياً والاسلام يحث عليهما والارزاق مع ذلك بالمعنى الاسمي بيد الخلاق ومن تعطل او تبطل لاى سبب وبأية حجة فقد انسلخ عن الانسانية وصار فى حكم الموتى او الاعضاء الشلاء في جسم الهيئة الاجتماعية وكذلك الامة التي يكون هذا شأنها في مجموعة تلك المجموعة من بني الانسان والاسلام أجل وأعظم من ان يكون في مبادئه ما يجلعنا بهذه الصفة المحقرة والله تعالى يقول مخاطباً لنا « كنتم خير أمة أخرجت للناس » لا بأجسامنا

واحسابنا ولكن بمبادئنا وجودة اعمالنا

***

والاعمال الدنيوية التي يزاولها الخلق مشغولون لتحصيل الاقوات والارزاق وتقويم اود الحياة من المطعم والملبس والمسكن ونحو ذلك وما يتفرع عنها من اسباب التمدين والتأنق في الحضارة هي الصنائع والحرف البشرية وامهات الاعمال الانسانية لان الله تعالى للحكمة العظيمة في ايجاد الانسان وعمله لم يخلق شيئاً من امتعة هذه الدنيا وارزاقها واقواتها مهيئاً بحيث يستغني عن صنعة الانسان لتلك الحكمة من ايجاد عمله المبني على العقل واستخدام قوة الفكر وترفع الاذواق والتأنقات وتوزيع الشؤون العملية بخلاف الحيوان الذي يتغذى من النبات بغير معالجة او طبخ مثلا ولا يحتاج في بدنه الى ملبس او مسكن وقصر مشيد بل يقنع بالصحراء والكهوف مسكناً ولباسه شعره وجلده بعكس الانسان ولا سيما الانسان المتمدن او الراقي فانه يحتاج في هذا الصدد الى انواع كثيرة من الصنائع المختلفة المرتبط بعضها ببعض والتي يتكون من جملتها اصول التمدين وبالتالي دعائم العمران المادي والرقي وهي وان اختلفت

في ارتقاآتها بحسب الازمنـة والامكنة فان وجود اصولها ليعهد فى الهيئة الاجتماعية منذ وجد هـذا الانسان وحكمها فى النظام الاسلامى وبموجب الشريعة المحمدية انها من الضروريات وبالتالي فى حكم الفرض الكفائى لحكمة تبادل المنافع ومنتوجات الاعمال التي الخلق مشتغلون بها قائمون عليها فى تحصيل المعاش بالاضطرار فى صورة الاختيار كما تقدم فى قول الامام الراغب

ولقد كان للسلف الاسلامي عناية بالصنائع التي اشتغلوا بها واعتمدوا عليها في رقيهم بقدر ما وسعه مبلغ تقدمهم وتحروا فيها بنسبة احوالهم الكمال والاتقان الذى ندب اليه الشارع الحكيم عليه السلام «ان الله يحب الصانع الحاذق» ولا معنى لهذا وغيره مما جاء بهذا المعنى سوى حث الهمم لتحرى الاستجادة والاتقان في الاعمال والصنائع مراعاة لما تطلبه الاحوال العمرانية الارتقائية في تقدمها بنسبة التقدمات اللاحقة الطارئة على أنواع الصناعات الانسانية عند أهلها واختيار أساليبها الجيدة واشيائها الجديدة على الدوام لنوال المزيد في الربح والرواج فضلاً عن بلوغ الكمال العمراني الذى هو اسمى ما يطلب من الانسان بمقتضى فطرته ووظيفته على ظهر هذا الكرة .

والصنائع البشرية التي يعتمد عليها أكثر الناس في تحصيل العيش والكسب كثيرة لكثرة فروع الاعمال المتداولة بين البشر بحسب اوساط بلدانهم وأقطارهم المختلفة في أشيائها ومنتوجاتها وأحوال ارتقائها وان رجعت الاصول في الصنائع الى عدة فئات ترى لدى كل البشر على السواء وهاته الأصول ترجع الى اربع أوخمس صناعات ولنقصر القول على تلك الاصول الجامعة مما يناسب حال كل عمران فان التكلم على متفرعاتها ومتولداتها التي تارة تكثر وتارة تقل بحسب أذواق كل عصر وكل مصر وحركته الاقتصادية وتقدمه المادى والمعنوى مما لا يمكن حصره ولا ضبطه وان أوجبت النظامات الاجتماعية بين شرعية ووضعية تحرى اشيائها ليسعد البشر فيماهم بصدده من الاعمال وأسباب السعادة والغبطة الدنيوية

ولقد قسم بعض العلماء قديماً كابن خلدون [١] وغيره الصنائع البشرية والاعمال الانسانية الى ثلاثة أقسام

(١) الصناعة

---

(١) مقدمة بن خلدون

(٢) التجارة

(٣) الامارة

وأدخلوا في كل طائفة منها ما يناسبها من أنواع الصنائع التي من أمهاتها وأولاها « الفلاحة » التي عليها مدار تحصيل الاقوات بالقيام على الزرع والضرع وتربية الحيوان الداجن المنتفع به . وقد جاء في مدح الزراعة آثار كثيرة واوجدت لها الشريعة والنظامات الاسلامية القيود والحدود كحقوق الملكية والارتفاق والمزارعة والاستئجار والسقيا كما وضعت عليها زكاة الزرع والحيوان والخراج الى اشباه ذلك للصرف على المصالح العامة ولقد جاء في مدحها وفضلها في معرض الامتنان آيات من القرآن بينات وقال صلى الله عليه وسلم « التمسوا الرزق في خبايا الارض » على ان مما يجب ان يتنبه له المسلمون إنما هو ترقية أعمالهم الزراعية بحسب الاساليب الحديثة والطرق الجديدة لان ذلك بمقتضى ما هو مشروط من تحرى الحذق والمهارة في الصنائع وتجويد الاعمال في حكم الواجب الذى لا مندوحة منه حتى تفيض أراضيهم المشهورة بجودة التربة في أكثر بقاع الاقطار الاسلامية بالخيرات العظيمة والفيوضات

العميمة ولا يجعلوا للكسل والضعف اكتفاء بالاساليب القديمة العملية القاصرة سلطانا عليهم فيفوتهم استدرار الثروة العظيمة من أكبر مصادرها وأهم ينابيعها بالنظر الى أحوال بلادهم الزراعية

ومن أمهات الصناعة البشرية صناعة « البناء » التي احتاج اليها الانسان منذ أن وجد تقريباً لاقامة المساكن وتشييد الاماكن التي يتخذها لمنافعه من الاواء اليها والانتفاع بها في مصالحه . وفن العمارة تقلبت عليه أحوال كثيرة وتغيرات جمة بحسب ادوار التمدين البشرى ولقد كان لاهل الاسلام فيه اليد الطولى بقدر ما احتمله مبلغ رقيهم والآثار التي خلفها أهل الاسلام في جميع أقطاره وما حوت من نقوش وزخارف تشهد لهم بانهم برعوا قديماً في فن العمارة بقدر ما وسعته احوال عصورهم وانه ليجدر بالمسلمين الآن ان يطلبوا ترقى ذلك الفن عندهم لانه من أعظم مظاهر العظمة الدالة على كمال الارتقاء وسبيل ذلك ميسر لهم علمياً وعملياً اذا أرادوا ان ينهضوا ليماشوا الرقى العصرى جنباً الى جنب في اشيائه النافعة وهذا الفن او تلك الصناعة تضم اليها عدة صناعات أخر متممة لها كما هو معلوم

مما ينبغي ان يشملها هي ايضاً الترقى المحبوب بالتبعية لذلك .
وصناعة (النجارة) وصناعة (الحدادة) من الامهات ايضاً في الصنائع البشرية وهى تخدم صناعة البناء وصناعة الفلاحة كما تخدم البشر في حاجاتهم الكثيرة الاخر من مثل الادوات والعدد المنتفع بها في كثير من الشؤون الحيوية والصناعية ، وقيامها بمعالجة الخشب والحديد والنحاس ونحو ذلك وتهيئة تلك المواد بحيث ينتفع بها في تلكم الشؤون المختلفة سواء كانت عُدَداً للعمل او أدوات للمنافع الحيوية . هذا وغير خاف ان تقدم هاتين الصناعتين في أوروبا قد بلغ أشده بخلاف الشرق لا كتفائه بما اعتاده من قديم بحيث صار الفرق بيننا معاشر أهل الاسلام وبين أهل الغرب في مضمار تينك الصناعتين كالفرق بين الطفل الصغير والرجل الكامل الشديد البطش والقوة فضلاً عن مهارة اليد والعقل وهذا لا يجيزه شرع ولا عقل والمصلحة الذاتية للمسلمين قاضية بالترقي في مثل هذه الشؤون الحيوية للتساوى بأهل القوة طلباً للنجاح والفلاح في مضمار الحياة الانسانية بين الشعوب العصرية فمن ثم يجب على المسلمين ان ينشدوا الكمال في الصناعة وينشطوا لتحرى روحها

بواسطة الاكثار من انشاء المدارس الصناعية على الطراز الجديد والمصانع والا أثموا ولحقهم وزر الخاملين وحرمان المقصرين المهملين .

ومن أمهات الصنائع البشرية كما لايخفى صناعة « الغزل والحياكة » ثم « الخياطة » وكلها لولاها ما لبس انسان ولا تأنق متأنق في ثيابه او فرشه المنجدة من الاصواف والاوبار أو القطن والحرير والتيل ويلحق بها صناعة الصباغة والدباغة بالالوان والنقوش وهذه وتلك كلها منحطة الآن عند المسلمين بعد ان كان لهم فيها القدح المعلى والشأن كل الشأن فيخلق بهم بالنظر الى تلك الاحوال التي سبقهم فيها الغرب أيما سبق ان يشمروا عن ساعد الجد ويطرحوا أسباب الكسل والتواني ليحيوا أمثال تلك الصناعات عندهم على مقتضى ما جرى عليه الغربيون من الطرق والاساليب الجديدة والعدد المسهلة وانه ليعار عليهم أن يستغنوا بالمنسوجات الاوروبية عن احياء صناعة الحياكة ومستلزماتها في بلدانهم وهى التي تخرج الى أوربا مادتها الاصلية من القطن والصوف والحرير وان نقصتها مادتها الثانية من الفحم والعدد والالات العاملة فيها بحسب الطرق الجديدة

ولقد يدخل في هذا النقص نقص الصناعة في البلدان الشرقية «صناعة الوراقة» اي الكاغد المنتفع به في الكتابة والطباعة ونحوها فان البلدان الاسلامية قد فقدت منها هذه الصناعة بالمرة مع انه ليس من غنى عنها البتة لانه اذا احتيج الى الكتابة والخط احتيج بالبداهة الى الورق ، وصناعة الطباعة الحديثة كما كفت العالم مؤونة الخطاطين والنساخ فقد زادت الحاجة بنسبة رواجها عندنا الى صناعة الكاغد ناهيك بمنافعه الاخرى في الشؤون التي يتعلق بها في التجارة

وحرفة «التجارة» من مهمات الصنائع البشرية والتجارة محاولة تنمية الاموال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء في مثل غلة زرع او حيوان أو قماش او ما أشبه ذلك من عروض التجارة وذلك القدر النامي هو «الربح» المحاول اخذه وللتجارة بالنظر الى اعمالها المختلفة واحوالها الدقيقة القيود والحدود الضابطة في الشريعة في باب البيوع والشركة والمضاربة الشرعية وما أشبه ذلك وفي معاطاة التجارة مزالق قد يوجدها الغرور والطمع ولذلك نبه الشارع الى الصدق في المعاملة وآدابها الجليلة من تجنب الغش والخديعة وتطفيف الكيل والاجحاف واكل

اموال الناس بالباطل ثم المكايسة في المعاملة ، واليقظة المطلوبة للربح غير مانعة على وجه ما من الصدق والامانة وملازمة الحق في الاخذ والعطاء على الوجه الشرعي المطلوب في كل الشؤون بموجب ادبنا الاسلامي

ومن الصنائع المهمة في العمران حرفة «النقل» للآدميين وأنواع الحاصلات والمستغلات والتجارات في البر والبحر وهذه الحرفة من الاهمية بالمكان العظيم بحيث أنها لو نقصت في بلد عن مقدار حاجته لتعطلت كل أحواله وحركاته التجارية وأيما بلد سهلت فيه وسائل النقل راجت أعماله ونمت أشغاله وتقدم وأرتقى بنسبة ما فيه من حركة ، ونظرة في التاريخ الاسلامي تكفي لان يعلم المسلم العصرى منها ما قام في تلك الايام الماضية من مبلغ قوة حركة القوافل العربية والسفن الشراعية والاسواق العظيمة لتصريف أنواع التجارات والمحصولات في سائر الاقطار من أقصى الشرق الى السواحل الاوروبية مما استلم القيادة فيه الآن الاوروبيون بعد انحطاط الدول الاسلامية ولقد زادت حركتهم التجارية بما اخترعوا من سكك الحديد وسفن البخار والتلغراف والتلفون والتلغراف اللاسلكي الامر الذى

يجدر بالاقطار الاسلامية على اختلاف بقاعها ان تنشط وتستفيد منه وتعتمد على مثله في جميع حركاتها العمرانية واعمالها الاقتصادية ولا عذر للمسلمين لا شرعي ولا عرفي يمنعهم عنه ويحول بينهم وبينه الا اذا كان ما التزموا من كسل وركنوا اليه من خمول كاد يذهب بريحهم .

ومن الحرف اللازمة « الخدم المتبادلة » في المنافع والاشغال المتباينة وكل الشؤون الحيوية المتنوعة وهي ذاهبة كل مذهب وبواسطتها أيضاً قام العمران ولقد اوجدت لها الشريعة بحسب الاحوال والمقتضيات الحدود والقيود في الاجور والكراآت كما دونت بصددها القيود فى القوانين المدنية الحديثة.

ومنها صناعة « التعليم » وهي من أشرف الصناعات فى الهيئة بحسب الادب الاسلامي وفضلها ومزيتها فى الهيئة اجل من ان يذكر ولها بالنظر الى المعلم والمتعلم آداب جليلة مشهورة

ومن أمهات الصنائع والحرف اللازمة فى الهيئة « صناعة الطب » اي ذلك الفن الذى يشارك صاحبه اهل العلم فى فضلهم واهل الصناعة فى نفعهم وانتفاعهم ، وصناعة الطب ضرورية فى الهيئة وتدخل فى فروض الكفايات في الاسلام حتى يوجد فى

الهيئة من يداوى اسقام بنيها ويسوس امورها الصحية وسلامة أبدانها المطلوبة شرعاً وعرفاً بمقتضى قوانينها الصحيحة ويلحق بصناعة الطب فن « الصيدلة » لتركيب العقاقير والادوية اللازمة للطبيب .

ومنها صناعة « الغناء وفن الموسيقى » وهذه قد وجد لها أصل إباحة ورخصة فى الدين وقد برع فيها جماعة من أهل الاسلام قديماً أيما براعة وهي ضرورية لتنشيط النفوس وتطريب القلوب وانعاشها في الأوقات المعينة وانه ليدخل فيها بل هو من اجل مهذبات النفوس مع ذلك فن التمثيل ذلك الفن الذى عرف الغربيون فضله فوفوه حقه اتقاناً وتحسيناً .

هذه هي أمهات الصنائع الانسانية بحسب ما اعتمد عليه في التمدين الاسلامي وحث عليه في ادبه الاجتماعي ونظامه العملي وما ينطوي تحتها من فروع الاعمال والمهن شيء كثير جداً كان يكثر ويقل بحسب الظروف وانواع التأنقات في الحضارة كما نراه الآن في الغرب ، ولقد استنبطت في الشريعة الاسلامية كل القيود والحدود والآداب اللازمة لتمشية النظام في كل الاعمال والصنائع وكسب المال واراحة الافراد فيما سخروا

فيه منها وما تعاملوا به من أجلها بمقتضى قواعد عامة وأصول يجد فيها الخلف كما قد وجد فيها السلف ما يرقى حالهم وينظم شؤونهم بحسب المقتضيات متى ما راعوا حسن الاختيار وسلامة الاذواق العصرية ولكل عصر شأنه بلا حرج وكل هذا يدلنا معاشر أهل الاسلام على فضل ما عرف من أدب العمل عندنا وحث عليه من السعي والكدح في التماس العيش وتحصيل الرزق بأي من انواع الصناعات الشريفة المعهودة في المجتمع بحسب ميل الشخص واستعداده منذ الصغر وليس في الاسلام من حرج أو قيد وحائل يحول دون الترقي في الصناعات على اختلاف أنواعها وتطلب المزيد من المهارة والحذق في الاعمال وتجويدها المطلوب شرعاً كما انه ليس هناك ما يمنع اكتساب المال بالسعي والتوفير في الدرهم والدينار المكسوب من حلال إذ ذلك كله مطلوب مرغوب فيه شرعاً طلبا لقوة الافراد والجماعات ما دامت مراعي فيها الحقوق والواجبات التي عليها ، كما قد أوجدت الشريعة في الارث فيها أجود النظامات الاجتماعية كما يرى في كتب الفقه والمواريث أو الفرائض .

فلكسب العيش وتحصيل الارزاق بل لنوال الغنى والسعادة والغبطة في هذا العـالم لا بد للمرء بحسب أدب الاسلام من عمل يعمل فيه وحرفة يحترفها وصناعة يمارسها بحسب اختياره للحرية العظيمة التي في المبادئ الاسلامية وإذ قد جعل الله في الدرهم والدينار سر ما به قوام كل الاشياء وتقدير قيمها وتبادل منافعها فـكأنه بحسب العرف القـديم والحديث صار هذان النقدان الـكريمان نوعا من الثروة والمال العامل الدائر في كل الشؤون الجالب لخير الاشياء الموفى كلا حقه بقدر عمله ومبلغ ما اعطى من النفع لغيره من صناعة أو سلعة وأخذ منه في مقابلها

وحيث صار من خصائص النقدين الكريمين هذه الفضيلة وتلك المزية من بين الاموال البشرية فلا جرم وجب على كل امرئ عاقل ان يدخر ويوفر لنفسه منهما ليزداد قوة في عمله وحيطـة للاحوال الطارئة فى كل شأنه وايامه المستقبلة وعدم صرفهما إلا فى حقهما وبالمقدار اللازم ولقـد ذم الـكتاب العزيز الاسراف والمسرفين في الاموال قال تعالى « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » أي في الحد الوسط المعتدل وقال تعالى مخاطبا الامة فى خطاب النبي صلى الله عليه

وسلم « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً » فجمع بين النهي عن البخل والشح المذمومين المؤديين الى الضن بالحقوق كما نهى عن بسط اليد الذي ينتهي الى السرف المضيع للمال الموجب للوم النفس والذم والحرمة . وفي الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لئن تذر ورثتك أغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس » ، ولا وسيلة الى ذلك بغير اقتناء الثروة وادخار المال

ولم يكتف النظام الاسلامي والادب المحمدي بالحث على هذه الفضيلة فضيلة التدبير والاقتصاد بل أوجبت الشريعة الحجر على السفهاء حتى تحفظ عليهم أموالهم التي اتيحت لهم « ولا تعطوا السفهاء أموالكم اللاتي جعل الله لكم » ، وجعلت حكم السفيه عن عته أو اسراف كحكم الصبي الذي لا يحسن التصرف وتجب الوصاية والقيامة عليه ولله ما أجملها من حكمة عالية في التشريع كتلك الحكمة العالية في المواريث وجودة مبدائها فى توزيع المال

وخلاصة القول ان العمل واكتساب المال على انواعه من وجوهه المشروعة مع اداء الحقوق المفروضة على المرء فيه

والاعتدال فى النفقة والصرف وادخار الاموال للايام وكبار الاعمال هو القطب الذي تدور اليه رحى هذه الدنيا فى عمارها والمبدأ الذي رمى اليه الاسلام فى أدبه العالي وتعاليمه السامية. فتأدب أيها المسلم العصري بهذه الآداب وليكن لك حزم وعزم فى العمل والكدح واكتساب المال الحلال وحسن تدبيره وتوفيره والقيام عليه لانه قوة لك والبطالة والفقر والسرف ضعف بل موت يتناول الشعوب كما يتناول الافراد فليفقه القوم وليأخذوا بقول الشاعر الحكيم الذي يقول :

للمال عندي جانب لا أضيعه ... وللهو مني والبطالة جانب



الباب الخامس

أدب المعاشرة

الانسان مدني بالطبع—أصل الاجتماع بحسب المبدأ الاسلامى—الزواج—فوائد الزواج—التربية—كراهة التزوج بلا قدرة بأكثر من واحدة—لزومه للجمهور—أركان الزواج—آداب الزواج—الخصال التي تحرى في الزواج—ادب العشرة بين الزوجين—تدبير المنزل—الادب مع الوالدين—أدب المعاشرة مع الاخوان وعموم الهيئة—حسن الخلق—الصداقة—اختيار الاصدقاء—حقوق الصحبة—حقوق وآداب الهيئة الاجتماعية—حقوق الجوار

قال الحكماء « الانسان مدني بالطبع » أى انه لم يخلق ليعيش افراده عيشة الانفراد كأكثر جنس الحيوان بل لا بد له من الاجتماع ببني جنسه على الصورة المعهودة ليأنس بهم ويأنسوا به متكافلين في الاعمال متضامنين في المساعي بواسطة ما ركب فيهم من قوى عالية هي موهبة الآله لصفوته من خليقته على ان كثيراً من انواع الحيوان كما دل عليه الاختبار قد يشارك الانسان على نوع ما في فضيلة العيش جماعات الا انها تختلف عنه في الكيفيات والترتيبات المبنية على قوة الفكر والعلم والعمل المحكم فالقردة التي تعيش مجتمعة وأسراب الفيلة

وبقر الوحش والقطا والنمل والنحل لها كلها عيشة اجتماع تشبه على نوع ما اجتماع الانسان ولكنها مهما يكن من حالها فانها لتخالفه في الاحوال المبنية على العقل الخصيص بالانسان في ترتيباته وحسن اختياراته ولا غرو وهو البالغ الذروة العليا في سلسلة الارتقاء

ولقد نبه القرآن المجيد على هذا الاجتماع الانساني وآدابه المختلفة في مواضع منه بذكر الاقوام الماضية والشعوب الغابرة قال تعالى في تفاضل الشعوب «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» وقال في التعاون الصحيح «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» وبين كذلك حال العشرة القريبة في النسب والمصاهرات والقرابة وهناك أجمل حديث في أدب الاجتماع وحقيقة مبدئه في التكافل والتضامن بين ابناء الهيئة الواحدة وهو حديث «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً» وفي الآية القرآنية الشريفة «انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم» ما يرمي الى هذا الفضل في المساواة والآخاء بين المؤمنين حتى لا يكون لاحد فضل على آخر الا بالتقوى وهي جماع الخير وهناك ايضاً حديث آخر جميل في

المعنى وهو الحديث الشريف القائل « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعي له سائره بالحمى » ولله ما أجمل هذا التعبير في شعور الامة الحية وتعاطفها على ذاتها وحثها على ذلك

*
* *

واول رباط في العشرة « الزواج » وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنته فقال عليه الصلاة والسلام « النكاح من سنتي ومن رغب عن سنتى فقد رغب عني » والزواج أفضل ما يكون فى الهيئة الاجتماعية وحفظ قوامها متى ما بلغ المرء سنه ووجد القدرة عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من كان ذا طول فليتزوج » وهو أفيد ما يكون بالنظر الى العفة المطلوبة والتحصين المرغوب وقد نبه عليه في القرآن المجيد وجاء فى الحديث « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الثاني »

وفوائد الزواج في الهيئة الاجتماعية خمس[1] « ايجاد الولد » بقاء للنسل وحفظاً للجنس وهو الاصل في حكمة الزواج حتى

---

(١) الاحياء للغزالي

لايخلو العالم من جنس الانس وانما وجدت الشهوة بحسب الطبيعة التركيبية المحكمة كالمستحث لذلك والباعث عليه كما يلاحظ شوق التلقيح في الاشجار وجاذبيته بين الذكر والانثى وكما يشاهد ميل الحيوان الى السفاد لهذه الغاية الحكيمة غاية بقاء الاجناس لعمار هذا العمار الارضي وان كانت تلك الرغبة لتوجد على اكرمها واعفها فى الانسان وهو رأس الخليقة وسلطان المخلوقات وخلاصتها المصطفاة ولذلك خوطب بالعفة والحكم على النفس فى حال عدم القدرة على الزواج في أدب الاسلام « فليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله» ولقد جاء في الحديث الشريف لتلك الحكمة حكمة تكثير النسل (تناكحوا تناسلوا) وفي التوراة مثل ذلك أيضاً. ولهذه الحكمة لم يحرج امر الزواج ويعلق من جهة ثانية على الفقر المحرج فقال تعالى (وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله)

ولمراعاة هذا السنن الآلهي والواجب الطبيعي لم يُرَ فى أحوال المسلمين ولا في شريعتهم أمر الرهبانية او العزوبة الدائمة الا للعذر الشرعي بل قد وُجدَ بالضد من ذلك لمصالح اجتماعية

وأدبية سامية اباحة ورخصـة فى (تعدد الزوجات) الى اربع للقادر الواجد حتى تسد الشهوات ونزعات النفوس ولا يكون لغناها وقوتها به سبيل الى الفساد والزنا وهو المحرم شرعاً وعرفاً المفسد لاحوال الاجتماع المردى بالهيئة المشين للافراد المضيع للانساب وهذا السبب من سد الحاجة الطبيعيـة (هو الفائدة الثانيـة) للزواج حتى تكسر الشهوات وتحصن النفوس وتلزم العفة المطلوبة شرعاً وقد تقدم الحديث (من تزوج فقد أحرز شطر دينه) وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم (من يستطع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء) ففي الزواج فضـلاً عن فائدة ايجاد النسل فهو غائلة النفوس وصيانتها من الوقوع في الفساد فساد الاخلاق والاوبقات المفسدة لحال الاجتماع

الفائدة الثالثة (ادخال الراحة على النفس والهناء والسعادة بالتأنس والمداعبة والملاعبة وترويح القلب بذلك حتى ينصرف قلب المرء ولبـه وسمعه وبصره عن غـير حلاله وحتى ينشط ويتفرغ لعمله المعاشي فى نهاره لان النفس ملول وترويحها بالسرور والهناء العائلي ضرورى لترتاح الى القيام بتكاليف الحياة

المطلوبة متى روحت بأمثال تلك اللذات الدنيوية المرغوبة ولذلك جاء في الخبر (لايكون العاقل طامعاً الا في ثلاث تزود لمعاد وحرفة لمعاش ولذة في غير محرم) وقال الامام علي كرم الله وجهه (روّحوا القلوب ساعة فانها اذا أكرهت عميت) وجملة القول ان السرور العائلي الذي ينشده الآن أرقى المجتمعات الحالية من آداب الاسلام وبالتالي من فوائد الزواج المقصودة في تعاليمه السامية ومبادئه العالية

الفائدة الرابعة ـ تدبير المنزل فان المرء لينصرف همه عنه اذا وجدت له زوجة صالحة تعول هم خدمته من الطبخ واللباس والفرش والكنس وتنظيف الاواني وبالجملة تهيئة كل لوازم البيت، واذا كان ذلك من فوائد الزواج وحكمته في ادب الاسلام فلا جرم وجب من أجله (تربية) الفتيات تربية منزلية صحيحة تعلمهن القيام بواجباتهن المنزلية عند ما يصرن نساء لرجال الامة وهن بذلك يوفرن على الرجال أوقاتهم ويجلبن لهم الراحة حتى لاتتعذر عليهم مهام أعمالهم وتذهب أوقاتهم ولهذا جاء في الحديث الشريف (من كان له ثلاث بنات فانفق عليهن واحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة البتة

البتـة) وما الاحسان اليهن هنا الا بحسن تربيتهن ، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون للرجل من هـذه الوجهة في سائر عمله ولقـد فسر بعض المفسرين الحياة الطيبة في قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) قال هي المرأة الصالحة أي المدبرة لامر بيتها بما يجلب الراحة والهناء لاهـله ويدخل السرور على نفوسهم

الفائدة الخامسة ـ مجاهـدة النفس وحثها على زيادة التنشط في السعي على الارزاق والكسب الحلال فان المرء متى ما علم وشعر بحمل وقر البيت والاهل والولد على عاتقـه زاد نشاطه واقدامه على الكسب والربح حتى يقدر على اعالة عائلته وتربية اولاده والعمل لمستقبلهم وفي الحديث تلك الحكمة الرامية الى هذا الغرض (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)

واذا كان الزواج بهـذا المقدار من الاهمية في الهيئة الاجتماعيـة وجب ان تتخذ له العائلات عدته من قبل باحسان تربية البنين والبنات والنظر الى مستقبلهم في الاعمال والواجبات من حيث ايجاد الاعمال للاولاد مما تقوم به حياة البيوت من المهن والصـنائع النافعة ثم تعويد البنات وتربيتهن على

الكمال البيتي بحسب الاذواق العصرية علماً وعملاً وبذلك تصفو الحياة للعائلات وتحصل السعادة للذرية . في الخبر (ان اول ما يتعلق بالرجل يوم القيامة اهله وولده يوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون يا ربنا خذ لنا بحقنا منه فانه ما علمنا ما نجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم) وفي الحديث ايضاً (لا يلقى الله احد بذنب أعظم من جهالة اهله) وهذا صريح في وجوب تربية الاهل والولد والعمل لمصلحتهم والتخلق معهم بالاخلاق الحسنة التي تتعدى الى نفوسهم والشجر على اصولها تنبت

ولهذه الغاية الشريفة من حسن تربية الاولاد واعالة العيلة كره السلف عادة التزوج اذا لم يكن للمرء قدرة على القيام باعباء البيوت وتكوين العائلات لعجزه عن التكسب او لتفاهة مادته او فقدان الثروة الكافية للقيام باثقال البيوت وتربية العائلة بنسبة الاقدار والمقامات في الهيئة . فذلك الفقير الذي لا يسعه غير تقويت نفسه ويعجز عن نفقة غيره يكره له التزوج الا بعد التمكن من القدرة على اعالة الزوجه حتى لا يقع في (اثم من يضيع من يعول) وجاء فيمن يتملص من اهله ويهرب من نفقتهم (ان الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لن تقبل له

صلاة ولا صيام حتى يرجع اليهم) فالذي لا يقدر على القيام بهذا الواجب العائلي بنسبة حاله يكره في حقه الزواج وتحمل اثقال العائلة (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله)

أما من لم يكن بهذه الصفة — وهم في الغالب الجمهور الاعظم من رجال الامة ذوي الاعمال وارباب الحرف والصنائع أية كانت — فلا شك ان الزواج بحقهم متى ما بلغوا سنه المستوفي واستوفوا حقهم من القدرة بنسبة بيئتهم — أفضل لهم واحصن لنفوسهم وأصلح وأسد في أحوال الاجتماع البشري ولقد تقدمت حكمة ذلك وفوائده من بقاء الجنس وبعبارة أخرى تكثير عدد الامة وراحة النفوس وتدبير مصالح البيوت وزيادة النشاط والتقوّي في الاعمال .

وأركان عقد الزواج في الاسلام محل أي زوج وزوجة وولي وصيغة كما هو معلوم وشروط صحته صداق وشاهدان عدل والشروط في الولاية والرضا وصيغة العقد وباقي المندوبات مستفيضة بها كتب المذاهب والسنة [1]

---

(١) راجع الخرشي والشرح الصغير

أما الآداب الاسلامية في الزواج ومندوباته فكثيرة منها تقديم الخطبة لا في حال « عدة » المرأة المعتدة (حتى يبلغ الكتاب اجله) ولا في حال سبق غيره بها إذ قد ورد النهي عن الخطبة على الخطبة كما نهى عن المواعدة سراً (ولكن لا تواعدوهن سراً) ومنها ان يلقى أمر الزوج الى سماع الزوجة أي المخطوبة وان كانت بكراً ويستحب النظر اليها قبل النكاح للتأليف والتأديم بين الزوجين حتى قال بعض العلماء « كل تزويج يقوم على غير نظر فآخره هم وغم » وهذا كثير ولكنه غير مطرد أما الاخلاق فتستوصف للزوجين وتحرى على قدر الامكان وفي هذا من أمر الاختيار والانتقاء في الزواج سواء بالنسبة الى الرجل أو بالنسبة الى المرأة جاءت آثار جليلة وسيأتي منها بعد شيء

أما ما يحرم نكاحه في الاسلام بالنظر الى الارتباطات المانعة كما جاء في الآية (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم الخ) فمعلوم من الآية ومفصل في كتب الفقه ومعمول به عند المسلمين كافة غير ان البلوى عامة طامة من جهة الرضاع في هيئتنا الاجتماعية الحالية فليحذر منها لضررها وإثمها

والخصال التي يلزم ان تتحرى في الزوج والزوجة كثيرة فالرجل ينظر اليه من جهة خلقه وخُلقه واقتداره وهو ما يعبر عنه بالكفاءة التي ينبغي على الولي ان يتحراها فيمن يخطب اليه قال صلى الله عليه وسلم « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » أما الخصال في المرأة فهي ان تكون حسنة الخلق جميلة الخلق حسنة التربية صحيحة البنية للولد عفيفة دينة لانها اذا كانت شرسة الطباع اتعبت زوجها ونغصت عليه حياته ، وان كانت دميمة الخلقة جعلت نفسه تتطلع الى محاسن الناس فربما وقع فى المحظور المنهي عنه وإذا كانت فاسدة التربية لم تصلح شأن بيته ولا تربية أولاده ، وإذا كانت غير ولود فاتته الفائدة الاولى من مشروعية الزواج للولد ، وان كانت غير عفيفة افسدت على نفسها وعلى زوجها واهلها وثلمت صيت عائلتها وشرفها والبستها ثوب الخزي والعار بارتكاب المحرم ولهذا كله ولتلافي شأنه ولتفادي الوقوع فى الفتن فى الهيئة وجد النهى عن اظهار الزينة لغير محرم وتقرر الحجاب الشرعي للصيانة ثم ملازمة البيوت إلا لضرورة فى الخروج مع مراعاة الحشمة وكمال الادب والوقار لدى الخروج الى الاسواق

على ان من يتأمل في احوال النساء الحالية عندنا ويشاهد كثرة تبرجهن وتزينهن عند الخروج من المنازل وهذا الحجاب «الشفاف» الذي يضعنه على الوجوه فيزيدها حسنا وجمالا ربما خلت منه وزينة وحلية ربما كانت مفقودة منها فضلا عن كونه لا يستر منهن الا قليلا مما يخالف الحكمة في الحجاب وآيته الصريحة المقصود بها الحشمة والعفاف ان من يرى هذا كله ليأسف على تلكم الحال الرديئة الدالة على نقص التربية الشرعية الصحيحة وحبذا لو كانت وكان ما يطلبه حضرة العالم الفاضل قاسم بك امين صاحب كتاب تحرير المرأة لانه لو ربيت الفتيات المسلمات تربية صحيحة لما اندفعن بالقدوة السيئة عن الامهات والصويحبات في تيار التبرج «تبرج الجاهلية الاولى» الفاضح مما ليس فى شئ من الاذواق العصرية ولتحشمن وعرفن قيمة الجمال الحقيقي فى الخلق قبل الخلق وما الذنب في هذا كله إلا على العادات الرديئة التي لصقت بالعقول والنفوس فافسدت حال الجنسين عندنا فاياك ايها الشاب المسلم العصري في مسئلة الزواج وخضراء الدمن

ولمثل هذا السبب حث الشارع الحكيم على تطلب ذات

الدين والحسب والنسب كما حث على الولود الودود وما المقصود بالنسبة الى احوالنا الراهنة إلا الفتاة المتصفة بالادب والكمال وهذا لا يكون على أفضله عند الفتيات والفتيان إلا إذا صحبـه التهذيب والادب النفسي بالتربية والقدوة الحسنة مما حث عليه في أدب الاسلام كثيراً .

واقد كرّهوا من جهة اخرى تطلب ذات المال عند الزواج طمعاً فى مالها لانهم عدوا ذلك قلة مروءة من الرجل ولأن المال قد يأسر غالباً لطمع الزوج ارادته أو يجعلها أقل مما هو مطلوب لكمال السلطة في العائلات من ظهور سلطة الزوج أو التوقير لمقامه وحسن سعيه بجده واجتهاده على أهله

ومما يستحب في أحوال الزواج قلة « المهور » والاقلال مما يقدم عادة فى مقدماته وبداياته من التحف والهدايا لان التوسع فى ذلك يعد من قبيل الاسراف الذي لا فائدة منه ولا موجب له ، وكذلك حفلة العرس ينبغي أن تكون على كل حال متوسطة في «وليمته» لا كما هو متبع اليوم فى الزواج والاعراس وحفلات أفراحها الطنانة الرنانة التي كثيراً ما نسمع بما يعقبها من الحسرات والندامات

والآداب المطلوبة من الزوجين وان كانت لتفهم مما تقرر سابقاً من القواعد في الزواج وآدابه إلا أني أذكر منها هاهنا ما هو المطلوب فيها بالذات لتمام الإلفة ودوام المحبة بين الازواج [1] الامر الاجتماعى الذى أجمعت العقول وآداب الاجتماع عند الامم قاطبة على وجوبه وأول ذلك تحسين الخلق بين الزوجين لتصفو لهما المودة وتحسن بينهما العشرة ولقد حث الشارع الحكيم الطرفين اى الزوج والزوجة على ذلك ورغب في التساهل والتحاب باحتمال بعض الهفوات والسقاطات العائلية فيما يشجر عادة بين الازواج كما جعل لطاعة الزوجة عظيم الاهمية لهذه الغاية حتي جعل نظر الزوجين الى بعضهما كفارة للذنوب وان نفور المرأة من زوجها يوجب عليها عند الله الوزر العظيم والذنب الجسيم وفى الآية الشريفة صريح الامر بالمعاشرة بالمعروف بحق الرجال « وعاشروهن بالمعروف » ولقد كان آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم عند احتضاره مما يتعلق بالعناية بالصلاة والرقيق والنساء

الثاني المداعبة والملاعبة بادب وحشمة لادخال الرجل

---

(١) الاحياء للغزالى

السرور على أهله في الاوقات التى تسمح له بالجلوس بين عائلته وفى الحديث الشريف « اكمل المؤمنين إيماناً احسنهم خلقاً والطفهم بأهله »

الثالث ان يتوسط فى الانبساط فلا يجعل من مداعبته وملاعبته سبباً لسقوط مقامه واحترامه في نظر زوجته ومهابته من نفسها فالاعتدال مطلوب والتوسط محبوب وهذا أمر ربما كان لكل امرئ فيه ذوقه انما على كل حال فان التكبر والغطرسة التي قد تلازم بعض النفوس غير المتربية مذموم كما ان الحط بالنفس والتدلى بها مع الزوجة لدرجة تجعل المرء « مسخراً » مذموم جداً والحكمة بين الاطراف والمحبة واطمئنان النفوس ثمَّ

الرابع ـ الاعتدال فى النفقة والصرف وهو مطلوب في كل شيء من الرجال والنساء وما المرأة المدبرة فى بيتها الحريصة على أشيائها الحازمة فى كل تلكم الشؤون الا ربة الدار بالمعنى الحقيق وما المرأة « الأنَّانة » التي تكثر الانين والتشكى و « المنانة » التي تمن على زوجها بما تصنع معه في بيتها أو تلك المرأة « الحدّاقة » التي تشتهي اليه كل شيء تراه أو تلك « البرّاقة »

التي لا هم لها الا تصقيل الوجه وتزجيج الحواجب وتكحيل العيون مما يشغلها عن مهام بيتها الا شر نساء هذا العالم قديماً كان أم حديثاً مما لا يغير خلقهن فيه الا جودة تربيتهن

ويدخل فى هذا الباب من أدب العشرة عشرة الزوجة والنفقة مسئلة الطعام فلا ينبغى للمرء ان يتناول طعاماً مشترى له أو نحوه الا ويطعم منه أهله وولده أما في تناول الطعام العادى اليومي فيفضل أن يجتمع المرء فيه بأهله وولده على مائدة واحدة ليزداد سروره بهم وسرورهم به

الخامس - الغيرة وهو ان لا يتغافل عن مبادىء الامور التي تخشى غوائلها ثم لا يبالغ مع ذلك فى اساءة الظنون لان سوء الظن الذى نهى عنه الكتاب العزيز « ان بعض الظن إثم » لما يتخلله غالباً من الاوهام الباطلة فلا ينبغي ان يتجسس بواطن الامور بالتنقيب والمضايقة التى ربما أضرت من حيث قد يراد بها المصلحة ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تتبع عورات النساء أو ان تبغت وقال في امر الغيرة الكبيرة « ان الغيرة غيره » لانها في الحقيقة تضر بالرجال والنساء معاً اما الغيرة المتوسطة من الطرفين المشروطة آنفاً فممدوحة لانهامن

الشهامة والمروءة الموجبة لصلاح الامور واستقامتها ولهذا جاء في الحديث الآخر « ان من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله »

السادس التعليم تعليم الزوجة ومذاكرتها المعارف الضرورية الدينية والدنيوية ولا ريب في ان هذا من افيد ما يكون في الباب وقد سهل أمره فى هذا العصر بانتشار الكتب والجرائد والمجلات ويستحب ان تكون المدارسة والمطالعة بحضرة الاولاد لانه يكون ولا ريب من افيد ما يكون فيما يراد من أمر تربيتهم وتهذيبهم وتثقيف عقولهم الصغيرة على المبادئ القويمة الروحية والدنيوية

السابع ـ تأديب الاولاد وتربيتهم تلك التربية العائلية الكريمة فاذا جاء له مولود ذكراً كان او انثى فينبغي له ان يفرح به ويسر على حد سواء (بعكس حال ما كان عليه أهل الجاهلية من كراهة البنات ووأدهن تلك العادة الوحشية التي أبطلها الاسلام) وأن يحسن العناية بشأنه ويعق عنه ويختنه اذا كان ذكراً ثم يحسن تربيته والقيام بحقه الى ان يبلغ مبلغ الرجال وكذلك البنت حتى تبلغ مبلغ النساء والآثار والاحاديث في فضائل

الباب باب تربية الاولاد وافلاذ الاكباد اكثر من ان تحصى

الادب الثامن ـ اصلاح ذات البين فيما قد يشجر بين الازواج وهذا معلوم حكمه بالنسبة الى التحكيم تحكيم الاهل في ذلك كما جاء في الآية الشريفة (فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) وما أحكمه من مبدأ او قاعدة تراها جارية الآن في كل الشؤون عند أولئك الغربيين الذين أخذوا آدابنا وعملوا بها ونحن لا نعمل بها اللهم الا ما كان من قشور جامدة وبواسطة ذلك يمكن الصلح بين الزوجين في غالب الاحيان بعد النظر في شكاية الطرفين ومعرفة المحق من المحقوق منهما.

واصلاح ذات البين بين الناس عموماً وبين الازواج خصوصاً من أعظم ما حث عليه الشارع الحكيم وندب اليه الا اذا كان قد وجد بالنسبة الى الازواج ان لاسبيل الى الاصلاح الا بالتفريق بينهم بالطلاق ذلك الذي أباحه الله شرعاً لاجزافاً كما اعتادته عامة المسلمين الآن عندنا بل لاسباب قسرية ولهذا جاء في الحديث ابغض (الحلال الى الله الطلاق) وهو قد يقع مرتين وفي الثالثة لا بد من الفراق البتة ولا يمكن الرجوع الا بعد زواج المرأة بآخر وفي أحوال المسلمين الحالية

في أمر الطلاق والزواج والنفقات ونحو ذلك مساوٍ لا تحصى ولفقهاء السوء فيها فتاوٍ يا لها من فتاوى..

الادب التاسع ـ العدل بين الزوجات اذا كان للمرء اكثر من زوجة الى اربع كما ورد به الجواز بشروطه غير أن مسئلة العدل بين الزوجات من أصعب الامور التي قل ان يتصف بها على التمام انسان فلهذا كان الاقتصار على الزوجة الواحدة من افيد واحكم ما يأتي امرؤ في حياته الاجتماعية كما تقدم

***

اما الآداب بحق ذوي القربى[1] من الوالدين (بالوالدين احساناً) والاخوة وسائر القرابة وما لهم من حق على المرء فمن اوكد ماحث عليه الشارع وجاء به أدب الاسلام الشرعي فلقد جاءت الآيات القرآنية حاثة على ذلك آمرة به وكذا الاحاديث النبوية الكثيرة الواردة في بر الوالدين وحسن القيام بحقوقهما والادب معهما وصلة الارحام والتحبب اليها توددا وتعطفاً قال صلى الله عليه وسلم في حديث في فضل صلة الارحام (من سره أن ينسأله في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه)

---

(١) الاحياء للغزالي

اما عقوق الوالدين وعدم القيام بحقوقهما وتوقيرهما ورحمتهما (ولا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) وكذا جفاء ذوي القرابة وتقاطعهم وتدابرهم وتشاحنهم فكل هذا من أمقت الخصال والعيوب وشر الرذائل والسخائم التي ورد النهي الشديد عنها وبئست الخصال ولا دواء المتفشية الآن بين المسلمين هي

* * *

ثم انه لما كان لكل انسان في احوال المعاشرة والمخالطة والالفة الاجتماعية غير اهله وعائلته اخوانه واصدقاؤه وابناء هيئته الاجتماعية ولهذه الخلطة والمعاشرة الضرورية في النظام الاجتماعي الاسلامي حقوق وآداب جمة وجب لهذا على كل انسان الاتصاف بها لينتظم حاله وتحسن كل شؤونه والمرء كما قيل قليل بنفسه كثير باخوانه وما اخوان المرء بالمعنى الاعم الا أهله وناسه واخوانه ثم عموم بني جنسه

واعظم مؤثر في الالفة الاجتماعية على الاطلاق (حسن الخلق) كما جاء في الحديث الشريف انه ماعبد الله بافضل منه وقد

حث عليه الدين كثيرا لانه موجب للتحاب والتآلف والتوافق في كل الاحوال الاجتماعيـة بخلاف سوء الخلق فانه مؤدٍ الى التباغض والتدابر والتحاسـد وانتقاص الاقدار ولقد مدح الله نبيه صلى الله عليه وسـلم بحسن الخلق الذي تؤلف به القلوب قلوب الامة بقوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) وفي الحديث الشريف (اكثرمايدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق) وقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم لاسامة بن شريك حين سألوه عن احسن ما أعطى الانسان فقال عليه السلام (حسن الخلق) وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب أدب النفس

فحسن الخلق بما يقصـد به هاهنا من التواد والتحاب التآلف والتجاوز والصفح في بعض الاحوال المعينـة هو عين مكارم الاخلاق التي بعث بهـا النبي صـلى الله عليه وسلم وهو مثمر لاعظم أمور الارتباط وهذا يكون من التقوى النفسية الملابسة للنفس والاذواق الكريمة التي تكتسب من الاتصاف بأجمل الاحوال التعاملية إما من طريق الدين واما من طريق الآداب الاجتماعيـة قال الله تعـالى (لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم في مدح أصحاب الاخلاق الفاضلة (أقربكم منى مجالساً أحاسنكم أخلاقاً الموطؤن اكنافاً الذين يؤلفون ويؤلفون) وقال أيضاً (المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لايألف ولا يؤلف) وقال عليه السلام فيما يحرم على المؤمن من المؤمن (إن الله قد حرّم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء) والاحاديث في الباب باب التحاب الاجتماعي في الله والمودة بين الناس والاخوة والصداقة كثيرة والآثار الاسلامية فيها عظيمة ونفعها فى مصالح الهيئة الاجتماعية والامور الدنيوية والدينية اشهر من ان تذكر.

***

هذا هو الشأن العام في الإخاء القومي والمعاشرة الاجتماعية بالمعنى الاعم أما الصداقة بالمعنى الاخص في الهيئة الاجتماعية الانسانية فقد تكون أدق وأمتن مايكون في الباب من حيث اتحاد المشارب والاذواق تبعاً لتلك الخاصية او الجاذبية فى النفوس المعبر عنها بالمناسبة والمشاكلة لان الناس أشكال وأمثال (وشبيه الشئ منجذب اليه) بحكم السن والمماثلة فى العمل والمشاكلة في الذوق ونحو ذلك ولقد أوجد في أدب الاسلام

آداب في باب الصداقة والصحبة تعتبر كقواعد عامة لصلاح الاحوال ودوام المحبة واختيار الاصحاب والخلان لان للغرور النفسي بالظواهر الخداعة مفعوله في الصداقات الكاذبة فيندفع المرء في الشرور بتأثير هذه الصحبة وتلك الصداقة فتكون العداوة بناء على هذا خيراً منها وأفضل ولهذا قد نبه على البغض في الله كما جاء الحث على الحب في الله لانه من المعلوم ان من يحب لشيء فبالطبع يبغض لقيام ضده فاذا وجد للمرء صديق واقع فى بعض المعاصي والرذائل الشائنة كره ذلك منه ووجب عليه شرعاً وعرفاً نصحه وحثه على تركه والاقلاع عنه والا انتهي الحال بالطبع الى القطيعة والهجران عادة هذا اذا كان للصديق المستقيم قوة ارادة وعزيمة وأما اذا كان ضعيفاً فربما جره ضعفه وقوة صديقه الى ممالأة صديقه الواقع في الرذائل والمساوى فيسبح معه في تيار واحد وهو الغالب فيما نشاهد الآن من خداع النفوس وغرورها وسهولة طروء العدوى ولذلك جاء في الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ولهذا أيضاً وجبت صحبة الاخيار ممن يتصفون بالاخلاق الكريمة والخلال الجميلة كاشتهار بعلم

أو أدب أو حسن خلق أو تقوى جامعة فهؤلاء يكتسب المرء من صحبتهم ويستفيد بقربهم فى أخلاقه الفوائد الجليلة بعكس مصاحبة الحمقى والمتنطعين ولا سيما أرباب الفسادوالشر ولعمرى ما أبلغ هذه النصيحة وتلك الحكمة في اختيار الصاحب التي فاه بها الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال « عليك باخوان الصدق تعش في اكنافهم فانهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك الا الامين من القوم ولا امين الا من خشى الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله » وقال جعفر الصادق « لا تصحب خمسة الكذاب فانك منه على غرور ومثل السراب يقرب منك البعيد و يبعد منك القريب والاحمق فانك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك والبخيل فانه يقطع بك أحوج ما تكون اليه . والجبان فانه يسلمك ويفر عند الشدة والفاسق فانه يبيعك بأكلة أو أقل منها »

والللطائف في الباب باب اختيار الاصحاب وانتقاء الاحباب

ممن توفرت محاسنهم وكملت مروءتهم كثيرة فى كتب الادب والمحاضرات الاسلامية المتداولة فلا نطيل فيها وقد صنف ابو حيان التوحيدى المشهور فى المعني رسالة جليلة دعاها «الصداقة والصديق» وهي متداولة وقال المتنبي في فضل الصديق الصدوق

وما بلد الانسان الا الموافق ولا أهله الادنون غير الاصادق

اما حقوق الصحبة وآدابها التي يجب الوفاء بها قياماً بحق الصداقة فقد يمكن حصرها فيما يلى :[1]

(١) الحق في المال قال النبي صلى الله عليه وسلم « مثل الاخوين مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى » يريد المعاونة في الشؤون المالية بالاقراض والمعاونة الى اشباه ذلك ولو وصل الحال الى الايثار على النفس مما بلغت اليه حال المروءة الاسلامية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقد مدح حالهم فيها في الكتاب العزيز «الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ولنا فيما جرى من المؤاخاة بين المهاجرين والانصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاركتهم لهم في الاموال اعظم برهان على ما قام قديماً عند المسلمين من تلك

---

(١) الاحياء للغزالى

المروءات والعنايات الآلهية مما لا يمكن تبعا للاحوال الاجتماعية والاصطلاحات الشرعية والعرفية أن يقوم مثله الآن لان لتلك الاعمال احوالها التي كانت مطلوبة لها والتي كانت الامة في حاجة إليها أما في مثل الاحوال اللاحقة والعرف الذى نحن عليه فلهذا الحق درجات لا تخرج الا بالميزة القليلة عن دائرة سائر المعاملات بين الخلق مراعاة لشأن الصداقة وامر الاخاء وثقة النفوس وتوددها وسقوط التكليف بين الاصدقاء

(٢) الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات حاجات الاخوان ولها درجات في الفضل قد تبتدئ بسؤالها من الصديق وتنتهى على افضلها فى قيامه بها ابتداء لمجرد علمه بها وقدرته عليها مع ابداء الارتياح والبشاشة وقبول المنة واظهار الفرح والسرور لتسر أفئدة الاصدقاء ويدخل فى الباب السؤال عن الاخوان إذا غابوا وعيادة مرضاهم فانها كلها من أوكد الحقوق فى الصحبة واحرى ان تدوم بها المحبة والمودة .

(٣) السكوت باللسان عن القدح فى الاصحاب فيما يعد تنقيصاً لشأنهم وحطاً من كرامتهم او اغتيابهم بما يكرهون فى

نفس او عرض او مال ولا يكتفي بذلك بل يجب رد غيبة الاصدقاء بالدفاع عنهم فضلاً عن نشر الثناء عليهم بما هم اهله مع إبلاغهم مايسرهم مما يكون قد اطرى عليهم به والمجال من المدح والثناء الحق .

ويدخل فى باب نصح الصديق اذا رآه قد وقع بلسانه فى منكر من بذاء او خنا فينهاه بلطف ولين عنه ، وكذا ان شاهد منه جنوحاً الى اقتراف محرم من شرب خمر او تدهور فى رذيلة فان هذا من اوكد الحقوق واجمل الآداب وافضلها مع الاخوان والاصدقاء فضلاً عما فيه من ثواب عظيم عند الله

ويدخل فى ادب الباب من باب اولى الامتناع عن التشاتم والتشاحن والمراء والمزاح «الثقيل» ثم التجسس والتحسس واساءة الظنون فان تجنب هذا كله من موجبات زيادة الإلفة وتوثيق عرى الصداقة والاخلاص ودوام المحبة . قال صلى الله عليه وسلم « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً »

وعلى الجملة فانه يجب معاملة الصديق بما يحب المرء ان يعامله به صديقه وهو النصفة بالحق ولقد قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم حديثاً كريماً « حب لاخيك ما تحب لنفسك »
ولا شك ان الصديق انما ينتظر من صديقه الاخلاص وستر
العورات والنصح ورد الغيبة والابتعاد عن النميمة المحرمة شرعاً
« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » والابتعاد عن المراء
والتسفيه قال بعض السلف (من لاحي الاخوان وماراهم قلت
مروءته وذهبت كرامته) وفي الحديث الشريف (ذروا المراء
لقلة خيره وذروا المراء لان نفعه قليل وإنه ليهيج العداوة) ولا
شك ان المماراة تسقط مروءة الانسان لان من يريد أن يظهر
بمزيد العقل والفضل على الاخوان واحتقار المردود عليه باظهار
جهله أو تجهيله وتسفيهه موجب للتضييع والقطيعة مورث
للعداوة ولقد قال الحسن رضى الله عنه حكمة جليلة في المعنى
قال (إياك ومماراة الرجال فانك لن تعدم مكر حكيم أو مفاجأة
لئيم) أما المذاكرة والمجادلة بأدب والمسامرة والمناظرة بلطف
ورقة فممدوحة ومفيدة جداً

(٤) النطق بحلو الكلام وتعود محاضرة الاخوان بما
يذيع المحامد والمحاسن وينشر بين الاصدقاء لطائف الحديث
وأطايب الكلام والسمر بأدب وحشمة مع ترك هجر القول

وبذاء اللسان والتجهيل والمماراة على نحو ما سلف وبث لطايف العلم والمعرفة والمطارحات والمحاورات فيها بعقل وكمال وتخليل الحديث بشيء من لطيف المزاح ورقيق الملح والفكاهات الادبية بلطف وادب وهو مبدأ كريم من أفيد ما يجرى لدوام الانتفاع بالصحبة والصداقة وإيناس الانفس المتحابة وتطييبها وانعاشها .

(٥) الاغضاء عن صغير الهفوات واغتفار تافه الزلات مما لايخلو منه انسان ولا يوجب قطيعة ولا يقتضى هجراً ولقد تقدم ان النصح عند وقوع الصديق في الرذائل لازم في السر والخفاء وعدم التشهير والتسفيه له شفقة وحنانا واجب لانه لا تثور نائرة الكراهة والبغضاء في النفوس الا من هذا الجانب فاذا قدرت على تقويم أود الصديق واقالته من عثراته وزلاته وانتشاله من أوحاله على هذه القاعده فقد فزت بأجل ما يشكره لك الناس والله تعالى . أما تلك السقطات الخفيفة فيكفي فيها مجرد التنبيه عليها بكل لطف ورقة لتدوم المودة وتوثق عرى المحبة واعلم أنك لن تستبق صديقاً قط اذا أنت اكثرت عليه من الملام والتعنيف فى كل شيء وزدت في التأنيب كما

قال الشاعر مظهراً لحال اكثر الناس فى تلكم الصغائر .

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

(٦) الاخلاص والوفاء وهما من أوكد ما تدوم بهما الصحبة وتعرف بهما المروءات فى الهيئة الاجتماعية فاذا بلغ امرؤ مرتبة أعلى من مرتبة صديقه فليداوم على مودته واخلاصه له ولا يصرم حبال صحبته معه وإن بعدت بينهما الشقة في العشرة مراعاة للمقتضيات أما الوفاء فهو الثبات على الحب حال الحياة وبعد الممات بالتعطف والتلطف على اولاد الصديق وعليه قال النبي عليه الصلاة والسلام « قليل الوفاء بعد الممات خير من كثيره فى حال الحياة »

(٧) التخفيف وترك التكليف من أجمل الآداب وأعظم الاصول حتى لا يثقل على الاصدقاء بالزيارات ولا بالتكاليف ولا بالتغالى وإظهار مالا يقدرون على القيام له بمثله في الضيافات والحفلات الاخوية خصوصاً قال بعض الحكماء « من جعل نفسه عند الاخوان فوق قدره فقد أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا » ولن يتم التخفيف الا باطراح التكليف خصوصاً وإن

عرف المرء فضل نفسه أو عظم ذات يده على صديقه وهذا
هو التواضع المحبوب ومن تواضع لله رفعه

***

هذه جملة حقوق الصداقة وآداب الصحبة أما حقوق
الهيئة الاجتماعية والآداب المطلوبة بين عموم أبنائها على حد
سواء في كل معاملاتهم وأحوالهم فلها أصول ولها مبادئ
أدبية واجتماعية بالنظر الى المعاشرات والمعاملات والجوار [1]،
فالخلطة التي تقتضيها مطلق المعاشرة والمعاملة الاجتماعية أحسن
ما يكون فيها أن تبني بحسب القواعد الاسلامية التي ساوت
بين الطبقات في الحقوق والواجبات على كرم الاخلاق
وحسن المعاملة بالبشر وطلاقة الوجه والمروءة في الفعال والتلطف
في المقال ومما يزيد الإلفة بين الناس افشاء السلام ولين
الكلام وتجنب الأذى باللسان والافعال مصداقاً للحديث
الشريف « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » والتجاوز عن
بعض السقطات وتوقير ذوى المقامات والاعمار والبر والشفقة
على الضعفاء والمساكين واغاثة الملهوفين واصلاح ذات البين

---

(١) الاحياء للغزالي ونحوه

بين المتشاجرين وإزالة المنكر للحديث المشهور من رأى منكم المنكر فليزله الي آخر الحديث فهذا وأمثاله مما يدخل فى باب المروءة الانسانية من الآداب الصحيحة الاسلامية وأفعال الخير الشريفة ليصدق على أفعال أبناء الهيئة وافرادها في شعارهم وكل معاملاتهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد تقدم ايضاً - « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمي » وهو حديث كما تقدم كله حكمة ناطقة بلزوم التضامن والتكاتف بين أبناء الهيئة والتزام الشعور الراقى وكريم الاحساس أو الشفقة والرحمة والغيرة الانسانية والتضامن القومي مما ترى آثاره في الغرب تكاد تلمس باليد والشرق مع ذلك ابو عذرته والآثار في الباب وحقوق المسلم على المسلم كثيرة

أما المعاملات في مطلق الشؤون التعاملية - والدين المعاملة - فيجب فيها الصدق وأداء الامانة التي حملها الانسان والابتعاد عن الخيانة والعدل في الاخذ والعطاء والوفاء بالعهود والوعود كما نطق به الكتاب العزيز والانصاف من النفس وان يصحب الناس بما يحب ان يصحبوه به قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم لابي الدرداء «يا ابا الدرداء احسن مجاملة من جاورك تكن مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً»

ومن الآداب الاسلامية الجليلة ان لا تدخل البيوت في الحاجات الا بعد الاستئذن من اهلها كما تراه اليوم في الآداب الغربية وهو واتم الحق من المبادئ الاسلامية كما في الآية الشريفة «لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم الا أن يؤذن لكم» وكذا الاطلاع على أسرار الناس في مكاتيبهم منهى عنه عندنا جاء في حديث «من أطلع على كتاب أخيه بغير أمره فكأنما أطلع في النار»

ومنها ان يبدأ بالسلام قبل الكلام حتى مع أهل بيته وان لا يبدى استهزاءه بأحد من خلق الله ويتجنب البذاء في كلامه والهجر والسخف فى أقواله وان يجالس الناس بأدب وحشمة ووقار ويعطى كل انسان حقه من الاحترام والتوقير ولا سيما العظاء والعلماء والشيوخ ويفسح في المجالس لمن يقتضي الحال والمقام اجلاسه ولو مكانه كما لا يتصدر في المجالس ولا يزاحم أحداً في الطريق ويسعى في اماطة أذاه باي واسطة

وان يغيث الملهوف كذلك ولقد جاء في الحديث الشريف « من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة واحدة فيها صلاح أمره كله واثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة » ثم الشفقة على الحيوان الاعجم ومنها مراعاة الادب والكمال في مخاطبة النساء وغض الطرف عن محاسنهن وعدم مشافهتهن بقبيح وصيانة الاعراض والذود عن الحريم واحترامه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حمى عرض أخيه المسلم بعث الله تعالى ملكا يحميه يوم القيامة من النار »

ومنها البر بالمساكين ومد يد الرفد والمساعدة الى الفقراء والمعوزين على قدر الطاقة واطعام المرضى وذوي الفاقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أطعم مريضا شهوته أطعمه الله من ثمار الجنة » ومنها الافراج عن المعسر وقد جاء في حديث « من أراد ان تستجاب دعوته وان تكشف كربته فليفرج عن معسر » ولقد تفضل في الصدقات صدقة السر على صدقة الجهر كما يفضل البر العصري من اعانة الجمعيات الخيرية التي تتكفل بحسن توزيع الصدقات طريقته القديمة حتى لا تكثر في الامة طائفة الشحاذين من الكسالى والذين يسألون الناس الحافا

ويفسدون أخلاقهم بأيديهم بالتسول والتكفف وهم بعد في غنى ومتسع من صحة البدن والقدرة على الشغل والعمل .

أما حقوق الجوار [1] — ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً بالجار حتى كاد يورثه كما أوجد أصل الشفعة في الشريعة مراعاة لراحته — فهي من أشرف الحقوق وأجل الآداب الاسلامية وفى الحديث الشريف « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » ولقد جعل من تمام حق الجار ليس ان يكف المرء عنه أذاه فقط بل ان يتحمل ما يمكن أن يحتمل من أذاه وجملة حق الجار وآداب الجوار أن يبدأ المرء جاره بالسلام إذا لقيه ويسأل عنه اذا غاب ويصنع معه في الفرح والترح ما يصنع مع صديقه وينصحه في زلاته ولا يتطلع الى عوراته ويحفظه في اهله ولقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث كله حكمة عالية بعض تلك الحقوق للجار حسبما نصت عليه الآداب الاسلامية الشريفة قال عليه السلام « أتدرون ما حق الجار إذا استعان بك أعنته وإن استنصرك نصرته وان استقرضك اقرضته وان مرض عدته

---

(١) الاحياء للغزالي

وان مات تبعت جنازته وان اصابه خير هنأته وان اصابته مصيبة عزيته ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ولا تؤذه واذا اشتريت فاكهة فاهد له وان لم تفعل فادخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ولا تؤذه بقتار قدرك (رائحة طعامك) الا ان تغرف له منها . ثم قال أتدرون ما حق الجار والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار الا من رحمه الله »



الباب السادس

أدب الحكومة

النظام طبيعي — العدل اساس الملك — الاصول اللازمة في الحكومة — الحكومة النيابية في الاسلام — بسط رواق الامن — العدل وضبط احوال الرعية — ضرورة انتقاء العمال بالكفاءة — الرشوة علة فساد الشرق قديماً — تنظيم الجندية من اهم دعائم الملك — ولاية القيادة على الجند — مهمة الدولة في العلم — لضمان سير الامور — آداب الملوك الخاصة — شأن الوزير — آداب الوزير — اختيار العمال — حاشية الملوك ومقابلاتهم — طاعة السلطان — احترام السلطان في شخصه .

اذا كان هذا الكون المحكم بعوالمه من افلاك وسيارات وكواكب ثابتة أو شبه ثابتة ونيازك سابحة وعناصر مؤتلفة ومختلفة أو شبه مختلفة انما يقوم كله على نظام ويدور بمقتضى تدبير محكم يحوطه بدقة وترتيب عجيب مع ان صانعه الله تعالى قادر على ان يمسكه بقدرته بلا رجوع الى أسباب عاملة أو نواميس ضابطة من حركات وسكنات وجاذبية عامة الى اشباه ذلك مما هو تقدير العزيز العليم فاحر بالانسان وهو بشؤونه الاجتماعية ذلك الكون الاصغر أن تكون كل أحواله واعماله

العامة جارية هي ايضا على نظام يدير شؤونه ويسوس اموره تلك الشبيهة بالاختيارية فمن ثمَّ اقتضت ارادة الله سبحانه وتعالى أن لا يصلح الناس فوضى بل لا بد لهم من سلطان وازع وشرع نافذ منه سماوي ومنه ارضي بذا قضت سنة الله فى خلقه منذ القدم وفي كل الشعوب والامم ولن تجد لسنة الله تبديلا ولهذا قيل السلطان ظل الله في الارض

بالعدل والنظام قامت السموات والارض و بالعدل والنظام تكون الحكومات الانسانية على الارض في جميع ما هو مطلوب من شؤونها اللازمة منها والواجبة عليها ومبدأ القرآن فيما يتعلق بالنظام الاجتماعي دائر على محور اقامة العدل وحسن تدبير الشؤون في سياسة الخلق لحب الله له فضلاً عن مبدئه الديمقراطى فى الحرية والمساواة بين المسلمين ، فسياسة المصالح وتدبير الامور وفاق مبادئها الحقة ونواميسها الصحيحة بحسب الظروف والمقتضيات فى الماديات والادبيات مطلوب من الراعى لرعيته وبعبارة اخرى انه بلا أدنى ريب أساس الحكومة بمقتضى النظام الاسلامى ، ويرجع هذا من تقرير النظام الى بسط رواق الامن وتمهيد سبل استغلال الثروة فى الهيئة ونصب

ميزان القضاء العادل بالشرع والقانون لانالة الحقوق ورد المظالم والفصل فى الخصومات والقصاصات ثم الذود عن حياض المملكة والدفاع عنها ثم تعضيد العلم والعلماء وتسهيل أمر نشر المعارف والامر بالمعروف بين الرعية لتسعد في المعنويات التي توجب ولا شك السعادة في الماديات بالعمل الفردي على مبدأ الحرية فيه

تلك هي أهم الآداب المطلوبة وبالتالى أعظم الامور والحقوق الواجبة على الحكومة في نظر الاسلام المنوطة بها مما حث عليه الشارع ونزل به الكتاب وقام به العرف الصحيح فكان منه الضمان لسير الامور على محور الاستقامة بما جاء فى الاسلام من مبدأ الشورى وأمر النبي بها للتشريع لان مقام النبوة غير مقام الملك كما لا يخفى ، وغريب ان قد وفقت الامم الغربية الحديثة للمبدأ الدستورى النيابي في الحكومة بمقدار ما بعدت عنه الامم الاسلامية التي لها منه مندوحة صريحة فى تلكم الآيات البينات غير أن الامر انعكس لان حب الملك العضوض جعل أمر الحكومة مطلقة فى الاسلام بشروطها المعلومة التي لم تراعي هى أيضاً حق رعايتها في

تدبير شؤون مصالح العباد مما حفظت مساويه الايام في بطون تواريخها الا قليلاً .

واني لا اريد ان ادخل هاهنا في بسط نظام او ترتيب الحكومات الاسلامية على حسب المصطلحات أو العرف من الامامة أو الخلافة [1] أو السلطان ونحو ذلك وانما أريد ان ابسط آداب الحكومة في الاصول الاربعة الآنفة وما يدخل في هذا عرضاً من ادب الحكام والوزراء والقواد وتنظيم الجندية والعمال والقضاة وما أشبه ذلك على حسب ما هو مسطر عنها في كتبنا الاسلامية [2] وما يفهم من المبادئ المقررة فيها والامور الملحوظة مما يرتبط بذلك خصوصاً فيما نرتأيه نحن أبناء هذا العصر مما منه اكبر الفائدة على كل حال

فمن أوكد ما حث عليه الشرع والادب الاسلامى فى سيرة السلطان بسط رواق الامن واقامة دعائم العمران بتسهيل سبل الزراعة ووسائل التجارة واحياء الصناعة لتسعد الرعية وتغبط وتغتني فى أرزاقها وأقواتها وسائر مرافقها فتغبط من ثم الحكومة وتزداد أموال الدولة بازدياد الخراج والاعشار وكل

---

(١) راجع الاحكام السلطانية للماوردى (٢) سراج الملوك ونحوه

الضرائب المأخوذة لاقامة دعائم الملك وفي هذا مبلغ القوة للدولة والعزة وعمار بيوت المال بعكس مالو اهمل السلطان امر اقامة تلك المنافع وتيسير سبل انماء الثروة على الرعية فان الجبايات تقل بقدر تلك النقصانات في وسائل العمارية أو اختلال الامن أو تعدي أعوان السلطان بالظلم فى الرعية والاجحاف وارهاف كواهلها بالمظالم والمغارم فان نفوس الرعية حيال هذا الحال المعكوس بل الفساد المنهى عنه تكسل وتخور العزائم وتثبط الهمم في الاعمال إما للكساد وقيام الصعوبات في الاخذ والعطاء واما لفقدان الامن وكثرة التعدى على الاموال والارواح فمن ثمّ تقل الجبايات والايرادات لتلك الاسباب المانعة ، فتوطيد دعائم الامن وتأسيس المنافع وتسهيل سبل المرافق سواء في الزراعة أو في الصناعة أو في التجارة من أجل وأعظم ماحث عليه الشرع الاسلامى وأوجبته المبادئ الاسلامية في آداب السلطان وبالتالى في مبدأ الحكومة الاسلامية

أما الامور العدلية ومافى حكمها من النظام والشؤون الادارية فمن أعظم متحراها وأجل مبادئها اسلاميا « العدل »

وهو أساس الملك ثم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولقد نص الله تعالى فى غير ما آية من كتابه العزيز على اقامة قسطاس العدل في الشؤون المختلفة فيما يشجر بين الناس من الخصام والصدام في الحقوق وسائر المعاملات والاحوال الشخصية وضبط الشؤون والآداب العامة بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر والشرائع الآلهية والنظامات الوضعية التي تستلزمها ظروف الاحوال والمقتضيات الزمانية بحسب المصالح المرسلة كلها تنشد ذلك في جوهره وتبني عليه للنصفة بين الخلق في الحقوق والقصاصات التي هي حياة للامة ولذلك أوجدت الترتيبات اللازمة لاقامة ذلك من انشاء دوائر القضاء المدنية والجنائية فضلاً عن ادارات الشرطة والعسس والحسبة [١] (تلك الوظيفة الاسلامية المهمة التي تقع في رقبة كل مسلم قادر لانها من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الواجب في حق القادرين من المسلمين وقد حورها الغربيون الآن فقام على مبدئها عندهم مثل جمعيات منع المسكرات والتدخين وحماية النساء وصيانة الآداب العمومية والجمعيات الخيرية وجمعيات الرفق

---

(١) الاحياء للغزالي

بالحيوان الخ) المنوطين بالضبط والربط ورفع الجور والظلم ومنع الفساد والمحافظة على الامن العام واستتباب الراحة بين الانام وصيانة الآداب ومنع شرور الاسواق في بيوعها وغشها وتطفيفاتها الى اشباه ذلك فشأن هؤلاء الموظفين كالاطباء الصحيين في اعمال الوقاية واتخاذ التدابير اللازمة لتجنب الوقوع في الامراض ومعلوم ان دفع الامر ابتداء أسهل من دفعه بعد الوقوع فيه ، اما القضاة المنصوبون من قبل السلطان للقيام بالفصل في الخصومات وتوقيع العقوبات والقصاصات والاحكام فكالاطباء القائمين بوظيفة التطبيب فى الامراض اللاحقة بالاجسام وكل ضرورى ولكل وظيفته في الهيئة الاجتماعية .

واذا كانت هذه التدبيرات بهذا المقدار من الاهمية والنفع في نظام الحكومة الاسلامية قديماً حيال اقامة المصالح العامة بين الافراد والامور المشتركة فى الرعية فلا جرم وجب وتحتم ان يكون القائموق بها من قبل السلطان من ذوى الكفاءة والاستقامة ولهذا اشترط فى نظام الهيئة الاسلامية وآدابها السامية فى اختيار القضاة والحكام وسائر العمال ان يكونوا من أهل العلم والتقوى والنزاهة قال المرحوم قاضي قضاة مصر

السابق السيد عبد الله جمال الدين فى كتابه الموسوم « بالسياسة الشرعية [١] » بخصوص اختيار القضاة ما نصه «ومما يعتني به كثيراً تولية القضاة فيجب ان ينتخبوا من الناس الذين هم أعلم الناس وأورعهم وأعقلهم ومن المعروفين بالعفة والاستقامة والأمانة خصوصاً ولقد ورد فى الحديث الشريف ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » ولقد جاء في الرشوة تلك الآفة التى تبطل المصالح وتفسد الشؤون والنفوس فى الهيئة آيات بينات وأحاديث كريمة فقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي كما لعن شارب الخمر وبائعها . والرشوة كما لا يخفي من أمهات علل الشرق وقد جعل لها العقاب الصارم في أصل الدين على الراشي والمرتشي وأنها هي والظلم والعسف والطغيان النفسي لمن أكبر الرذائل وأعظم الفضائح الضارة التي طالما جرت على الرغم من جودة النظام الاسلامي الى أشأم الظلم فى المصالح وتقهقر أحوال الرعية واضمحلال أمر السلطان ، والرشوة وما فى حكمها هي السحت والربا المحرم وأكل أموال الناس بالباطل

---

(١) السياسة الشرعية

ولكن الحكام لفساد الاحوال والاخلاق التي كانوا عليها شرهوا وعوّدوا الناس عليها وأبوا قضاء المصالح غالباً الا بها مع انها من شر ما حصل امرؤ من مال طالما أفسد حال صاحبه وأهلك الحرث والنسل وهي اذا اخذت لاحقاق باطل كانت من أشأم الظلم والجور الذي لا يفلت صاحبه من عقاب الله الشديد واذا تنوولت لتيسير مصلحة محق كانت من أعظم أكل أموال الناس بالباطل

على ان ما كان ينتحل في الرشوة من اسم الهدية لهو من الكذب على الله والافتراء على الناس لان للهدية شروطاً وحدوداً وآداباً بين الاخوان والاصدقاء لمجرد المحبة الخالصة المتبادلة وانتحالها بين حاكم ومحكوم ليس في شيء من ذلك البتة جاء في صحيحي البخارى ومسلم عن أبي حميد الساعدى قال « استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من الازد اسمه ابن اللثيبة على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا اهدى اليّ فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما بال الرجل نستعمله على عمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي الىّ فهلا جلس في بيت أبيه او بيت أمه فنظر أيهدي اليه أم لا والذى

نفسي بيده لا يأخذ منه سيئاً الا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطه وقال اللهم هل بلغت ثلاثاً »
وقال الشاعر فى مثل تلك الهدايا :

إذا أتت الهدية دار قوم تطايرت الأمانة من كواها

وجملة القول ان من أعظم ما يفسد المصالح القضائية والادارية في المملكة انما هو تمادى عمال السوء في أخذ الرشوة وخيانة الدولة فيما أتمنتهم فيه مما جر قديماً الى أشأم المغاب والفساد وتضييع المصالح وتدمير الممالك الأمر الذى قد أوجدت له النظامات الحديثة القوانين واللوائح الادارية لقصاص العمال عمال السوء والضرب على أيديهم حتى تستقيم أحوال المملكة وتنتظم شؤون الرعية ولقد قال المأمون الخليفة العباسي المشهور هذه الحكمة الحكيمة قال « ما فتق عليّ قط من فتق في مملكتي الا وجدت سببه جور العمال »

ولا غرو فالتاريخ أصدق شاهد على أن تسلط العمال بما يعطون من السلطة غير المقيدة بقانون أو نظام أو كفاءة صحيحة موجب لعدم الضمان وموجد للجور والتمادى فى العسف

فيتخذون الرعية خولاً وأموالها دولاً مما جر ويجر الى أشأم الظلم والفساد وانتقاض الاحوال في المملكة فاختيار العمال واجب وتقييدهم بالنظام لازم وانتقاؤهم من ذوى الاستقامة من أبناء الامة المشهورين بالصدق والاخلاص والعفة والحزم ضربة لازب ولله ما أحكم ما قال الشاعر الحكيم:

وما قادها للخير الا مجرب عليم باقبال الامور كريمها
وما كل ذى لب يعاش بفضله ولكن لتدبير الامور حكيمها
وما سقطت يوماً من الدهر امة الى الذل الا ان يسود ذميمها

أما الاصل الثالث من دعائم قيام المملكة فهو تنظيم « الجندية » للحراسة والذود عن حياض الدولة والامة داخلاً وخارجاً ولقد كان لكل دولة من الدول الاسلامية بل لكل دولة من دول الارض قديمها وحديثها العناية التامة بتنظيم الجندية بحسب المقتضيات الزمانية والمكانية ففي هذا الزمان تخالف هذه النظامات العسكرية ترتيباً وعدداً واسلحة نظامات العصر الذى تقدمنا وذلك العصر يخالف الذى سبقه وهلم جراً والرقي هاهنا مطلوب وواجب حتى يكون استعداد الممالك القائمة والدول ذوات السلطان مناسباً لمقتضيات الاحوال في

حفظ سياج الدولة وبعبارة اخرى مساوياً لما عند الدول القائمة
والممالك المناظرة وكافياً لحفظ الامن في داخلها والسلام خارجها
وهذا أمر مطلوب ومرغوب فيه وداخل في حكم الآية
الشريفة « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »
والدول المعاصرة كلها تتحرى هذا الامر وتتنشده على افضله
واكمله كما ترى من عظم استعداداتها الحربية البرية والبحرية بهذا
تكون الدولة بين الدول ذات سطوة ويحسب لها الف حساب
وتأمن جانب الطوارئ وتصد كل مناوئ لها بالعدوان وتحصل
لها من ثمَّ الهيبة والاحترام بين الدول وفى اعين الرعية بما
يكون لها من وزان في القوى والسياسة وحسن الادارة
الداخلية مما يكون لها من ورائه ولا ريب السلم الحقيقي
وبعباوة اخرى السلم المسلح اذا كان البشر قد صاروا في هذا
العصر فى حال من ارتقاء الشعور لدرجة قد زهدوا معها حقيقة
فى الحروب ومقتوا سفك الدماء وقتل النفوس مما له اصل فى
قول الله تعالى في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بحق اعدائه
« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »

لكن هذا المبدأ في مراعاة السلم وكف العدوان والشر

لا ينفي البتة مبدأ تجنيد الجنود والاستعداد بها للطوارئ براً وبحراً لحفظ سياج المملكة في داخلها وخارجها لا سيما اذا كانت المملكة مترامية الاطراف متباينة الاقوام فيجدر بالمملكة الاسلامية على كل حال بحكم المبادئ الاسلامية والدولية العصرية اخذ الحذر والسهر والمداومة على انتقاء أحسن الترتيبات العسكرية الفنية والعملية مما له أصل ترغيب في القرآن « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكل هذا من أمر الجندية يقتضي اغداق الارزاق على الجنود واختيار أجود العدد والسلاح واللباس لاستكمال الابهة والزينة العسكرية وتلك « الخيلاء » الخصيصة بالجندية والتي لا تحمد الا في مشية الجنود بترتيبها المعهود وزيها المعلوم ونظام آدابها العالية التي تحبب فيها النفوس .

قال الامام الطرطوشي في كتابه سراج الملوك في فضل الجندية والحث على العناية بشأنها وما يطلب من الجند من الشجاعة والبسالة في الكر والفر بحسب اصطلاح عصره ما نصه « الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة والدافعون عن العورة ، وهم جنن الثغور

وحراس الابواب والعـدة للحوادث واعداد المسلمين والحد الذي يلقى العـدو والسهم الذي يرمى به والسلاح المدفوع في نحره ، فبهم يذب عن الحرم وتؤمن السبل وتسد الثغور ، وهم في الارض حماة الثغور والذادة عن الحريم والشوكة على العدو. وعلى الجند الجد عند اللقاء والصبر عند البلاء ، فان كانت لهم الغلبة فليمعنوا في الطلب وان كانت عليهـم فليكسروا الاعنة وليجمعوا الأسنة ويذكروا أخبار غد . وينبغي للملك أن يتفقد جنـده كتفقد صاحب البستان بستانه فليقلع العشب الذي لا ينفعه فمن العشب مالا ينفع ومع ذلك يضر فهو بالقلع اجدر ولا يستصلح الجند الا بادرار أرزاقهم وسد حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر عنايتهم وبلائهم ، وجنود الملوك وعددها وقف على سعود الأئمة ونحوسها ،

وولاية القيـادة على الجند من أهم الخطط والوظائف المشروط لها التضلع من الفنون الحربية وصفات الكفاءة العالية من الشجاعة والشهامة فضلاً عن الاخلاق الاخرى التي تصلح للقيادة وتناسبها من الشفقة على الجنود والحنو عليهم بغير ضعف ولا تدلي لدوام الاحترام وحفظ النظام نظام الجنـدية وشرفها

العالي مع حسن تبصر وتدبير لأقواتهم وصرف أرزاقهم بكل دقة وعناية حتى لا ينفرط عقد الطاعة ولا ينصرم حبل النظام وهو عماد الجندية وسياجها وروحها

وحيث كان الجنـد هو حامي الذمار والذاب عن الدولة فأحر به أن يكون وقواده أميناً صادق الوطنيـة والاخلاص لسلطانه ودولتـه وبلاده لان في « الخيانة » فضلا عن الذلة والمهانة وبيع الشرف العسكري تلف الدولة وسقوطها سواء فيما اذا وجهت سهامها نحو العصيان على السلطة العاليـة أو نحو ما هو شر منها من خيانة الاوطان. والذي يقرأ التاريخ الاسلامي يرى أن ثورات الجنود وكثرة قيامها وهياجها في الدول الاسلامية على السلاطين قديما أو خياناتها لهم ميلا مع الطامعين في الملك من الامراء والمنازعين فيه من المغتصبين انما كان من أقوى العوامل على ذهاب ريح هاتيك الدول وسقوطها بسرعة باضافة تلك الاسباب الاخرى اليها وسبب كل هذا عدم التقييد بنظام متقن يرجع اليه في قصاصات الجنود على نحو ما نراه اليوم في الاحكام العسكرية وقوانينها الصارمة مما لا يمنع منه شرع ولا عرف حسن ولكن لم تكن الفكر لتذهب اليه في تلك الايام

للأسباب الجمة التي ألهت الملوك بأنفسهم وحظوظهم فجاءتهم النكبات من حيث ظنوا النصر والتعضيد لدرجة ان صار الجند كما كان الحال في دولة الاتراك بمصر قديماً هو الذي ان شاء ولى وان شاء عزل فكان قوله القول ورأيه الفصل ولكن هذا ليس من جودة النظام في شيء ولكل أيام دولة ورجال اذ للسياسة أساطينها وللجندية وظيفتها التابعة

وجملة القول ان الجندية ونظامها من أهم النظامات المطلوبة وألزمها في الهيئات الاجتماعية والهيئة الاسلامية ومسؤوليتها دقيقة عظيمة وعبؤها ثقيل وأدبها كبير بقدر ما شرفها عظيم ومقامها لدى البشر مقام خطير .

أما تعضيد العلم ونشر المعارف في المملكة فلا إخال أحداً يجهل مقدار عناية ملوك المسلمين العظيمة وحكوماتهم السالفة ومبادئ نظامهم نفسه به وكل سيرة السلاطين والخلفاء واحتفائهم بالعلم والعلماء واهتمامهم بالمدارس والمكاتب ومعاهد العلوم والوظائف الخصيصة بالعلم والتعليم مما هو من متعلقات الدولة والتي يجب عليها انشائها بما لها من وظيفة القيامة على الامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها كلها معلومة من

التاريخ ولقد كان من الاقوال المأثورة وغرر الحكم المنثورة قولهم « الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك » وما كانت تلك الحكومة الا لمصلحة الراعي والرعية ولذلك أوجدت من قديم الزمان في الاسلام تلك التأسيسات العلمية الجمة والتنظيمات المهمة مما كان من ورائه احياء معاهد العلوم وانشاء المدارس والكليات واغداق الارزاق على العلماء والقائمين بوظيفة التدريس والتعليم فيها وفي المساجد والجوامع في كل فروع العلوم المفيدة وتنشيط العلماء والمؤلفين قياما بواجب حق العلم ونشره لتثقيف عقول الامة وتهذيب اخلاقها وتنوير اذهانها فيما ينفعها دنيا وأخرى على ان النظامات والاساليب العصرية في نشر هذا العلم بين الامة لها مزيتها العصرية وموافقتها الذوقية وليس في ذلك كله منها ما يخالف المبادئ الاسلامية بل يمكن ان يقال انها نعمت الوسائط كما يقال نعمت الغاية غاية تعليم الامة ما ينفعها ويفيدها بحسب المقتضيات وأمر صلاح الدنيا موكول فيه الشأن الى اختيار الامة وحسن الاذواق والعرف المتداول كما لا يخفى « انتم بمصالح دنياكم ادرى مني بمصالح دينكم »

هذه هي الاساطين الاربع التي يقوم عليها أدب الحكومة الاسلامية وبالتالي الاساسات التي يبنى عليها ارتقاء أحوال كل الامم الاسلامية وغير الاسلاميـة متى ما روعيت على الوجه الأتم وهو عين العدل والاصلاح المطلوب اقامته بين النـاس في الحـكم والحكومة على أوسع المعاني واجملهـا بل هو الذي جعل الامم الاوروبية للضمان عليـه وللاستيثاق من تمشيته على نسبه الصحيحة واصوله الحقـة تستنبط له شكل الحكومة النيابية التي يشارك فيها الشعب حكومته في الحكم لا لشيء آخر سوى الضمان وراحة البـال بالاشراف والمشاركة في الامر في التشريع ومراقبة السلطة في التنفيذ مع معرفة حق الملوك مع ذلك واحترامهم واجلال مقاماتهم وطاعتهم بما لا يقل عما اذا كانوا مطلقي التصرف غير مقيدي الحكم بذلك النظام الجليل النظام النيابي بل ربمـا زاد عليه كما هو مشاهد في ممـالك أوروبا الحالية ولقد مر بك ان روح المبادئ الاسلامية ونصوص القرآن تجيز بل تحتم على نوع ما اتباع هذه الخطة في الحـكم وأمر السلطة بمـا قد ندب اليه من الشورى في الامور وامر النبي نفسه بها و بالنهي عن الظلم والاستبداد بالرأى دون

سؤال اهل الذكر من العلماء والحكماء اى اعيان الامة ورؤسائها وتساوى المسلمين في الحقوق والواجبات العمومية ذلك المبدأ الديمقراطي العظيم الذى قد يغبط عليه الاسلام من ابناء الملل الاخرى بالنظر الى احوالها القديمة ولا غرو فقد جاء في الآية « انما المؤمنون اخوة » وفي الحديث الشريف كما تقدم تشبيه المسلمين بالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم ان في المبادئ الاسلامية التى بينها الأئمة المجتهدون في اختيار الخليفة والامام والولاة والقضاة والحسبة ما هو أساس لمبدأ الانتخابات العمومية وانتقاء الحكام الادارين وما وزارة التفويض وأمارته الا من قبيل الوزارات المسؤولة سواء أمام الملوك أو أمام المجالس النيابية التي تشاركها في العمل في النظامات الحديثة ، وجملة القول ان النظامات الاسلامية صالحة باصولها لان ترقي الامم بشرط مراعاة روحها وقبولها للتكييف بحسب المناسبات تحرياً للوظيفة العالية التي للحكومة من اقامة قسطاس العدل في الحكومة الموجب للطاعة على أحسنها واطمئنان النفوس البشرية على اكمله .

واكمل الآداب التي يجدر بالملوك والامراء ان يتصفوا

بها في خصوصياتهم بعد الاتصاف بالاخلاق العامة الفاضلة الواجبة عليهم نحو رعاياهم من العدل والسهر على المصالح العامة والرفق انما هو الترفع عن سفاسف الاخلاق والبعد عن مواضع الريب والظنون والدنا آت والزهد في استصحاب كبير اللعب والمجون والمجاهرة بالمعاصي الامر الذي طالما اسقط ملوكا ولاشى دولا وفي التاريخ الاسلامي اكبر العبر لذلك — فيجب الترفع عن تلك النقائص واستصحاب الكمال النفسي والحلم والوقار والاناة والحزم لان من يحب ان يكون فوق الناس بسلطانه ينبغي له قبل كل شيء ان يكون فوقهم باخلاقه وآدابه ، والخلاصة ان آداب الملك في شؤونه ينبغي ان تكون مرآة حقيقته في الشؤون العامة لان السلاطين كالافراد اذا ما استحكمت فيهم خصال النقص في النفس انتقصت معها امورهم مع سائر الخلق لم ينفعهم معه كرم ولا سخاء ولا عقل ولا دهاء ولقد بين الشاعر الحكيم أبو الفتح البستي حال السلطان الذي يميل الى اللهو واللعب فقال:

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب

وهي حقيقة يرينا اياها التاريخ البشري ذلك الفانوس

السحري للعبر ان هكذا كان مآل كل الملوك من أرباب اللعب واللهو.

وآداب السلطان والخلال التى ينبغي أن يتصف بها ويكون عليها والخصال التى يلزم ان يبتعد عنها ويصون نفسه منها كثيرة عددها المؤلفون ممن كتبوا في الملوك وآدابهم قديماً وحديثاً ولقد عدد منها الفخرى عندنا في « الآداب السلطانية » أموراً كثيرة كما ذكرها غيره ممن صنفوا فى هذا الموضوع الخطير من المسلمين

أما آداب الوزير في مبادئ الحكومة الاسلامية وآدابها فجليلة أيضاً لانه اذا كان السلطان رأس الهيئة الحاكمة فالوزير عضدها وساعد سلطانها قال الامام الطرطوشى في سراج الملوك مستشهداً على فضل الوزير وعظم الحاجة اليه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام فيما حكي القرآن عنه «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي » قال فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران ثم ذكر حكمة الوزير من تفسير الآية نفسها فقال اشدد به أزرى وأشركه في امرى ، دلت الآية على ان موضع الوزارة

شد قواعد المملكة وان يفضى اليه السلطان بعجره وبجره اذا استكملت فيه الخلال المحمودة ، ثم قال كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً دلت هذه الكلمة على انه بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخير والمعرفة تنتظم أمور الدنيا وأمور الآخرة كما ان أشجع الناس يحتاج الى السلاح وأفره الخيل الى السوط وأحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم الى الوزير . »

وآداب الوزير فى نفسه أن يكون عادلاً حازماً مخلصاً بصيراً بالامور عارفاً بالمصالح والخطط المباشر لها والمشرف عليها لانه مسؤول عنها أمام السلطان وأمام الله تعالى كما ان السلطان مسؤول عنها أمام الله والامة وحلية الملوك كما يقال وزراؤهم بل هم واسطة عقد الممالك والدول والمحور الذى تدور عليه امورها وسياساتها وتنتظم به كل شؤونها الهامة الداخلية والخارجية ، ولقد قيل « نعم النظير الوزير » وقيل « أعظم الاشياء ضرراً على الناس عامة والولاة خاصة أن يحرموا صالح الوزراء والاعوان فتكون أعوانهم غير ذات جدوى وغناء وليحذر الملك أن يولى الوزارة غير المتضلعين كي لاتضيع الامور

كما يحذر أن يتطبب بغير طبيب بصير مأمون ،

وكما يطلب من الوزير الحزم في الامور وتدبير المصالح بمهارة ونشاط يطلب منه أيضاً أن يكون ذا رحمة وشفقة على الرعية مع السلطان ساهراً على مصالحها حتى تدور على محور العدل والنجاح في جميع الشؤون المادية والمعنوية ، ورب أمر كرهه الملك فتم لما فيه من مصلحة على يد الوزير وجنى من فوائده الصغير والكبير ، وشر ما يكون بخلق الوزير نفاقه وخداعه للسلطان ومداهنته له حباً بالمصلحة الذاتية فان هذا خيانة بل هو من أكبر الخيانات الموجبة لفساد حال الراعي والرعية وعقباه سيئة جداً على من يؤثره من الوزراء على حب المصلحة العامة ومحض الخدمة القومية قال المأمون لوزيره محمد بن زياد « إياك ان تعصى الله فيما تتقرب به الي فيسلطني عليك » وفي تاريخ الاسلام عبر كثيرة في أحوال الوزراء الذين أسقطتهم عيوبهم بأيدى الملوك فراحوا ضحية مساويهم كما راح ملوك كثيرون ضحية ما ارتكبوا من ظلم وجور في رعيتهم أمام الله عز وجل

واذا اعتدل أمر الوزير كان من دأبه العون على انتقاء العمال الاكفاء والاعوان ذوى الدراية والاستقامة ممن حسنت

أحوالهم واستقامت أعوادهم وغزرت معارفهم فلا يكون للصنيعة ثمّ مدخل ولا للاثرة والمحسوبية وليجة وبذلك تنتظم المصالح وتدور خطط الدولة على محور العدل وحسن السير في جميع فروع اداراتها ودواوينها ولقد تقدم ما فيه الكفاية من حيث ما يجب أن تكون عليه صفة العمال فى المصالح الادارية والخطط القضائية ونحوها كما ترمي اليه روح المبادئ الاسلامية وآدابها الجليلة بهذا الصدد العظيم وكما ترى من آثاره الجليلة في نظامات الدول الحديثة

أما حاشية السلطان وبطانته الخاصة مما كان يعبر عنه قديماً بالجلساء والقرناء فيجب ان يتحرى فيهم أكمل الاوصاف واجمل الخلال الجديرة بمثل هذا المنصب الرفيع والمقام العالى مقام الشرف بالخدمة في بلاط الملوك فيجب ان يكونوا في حظوتهم بالخلطة وشرف المثول بحضرة الملوك على أكمل ما تقتضيه حال الآداب السلطانية وأبهة الملك وعظمة السلطان وجلاله ووقاره بما لا ينزل بهم مع ذلك الى أحقر منزلة وأخس مقام قد يكون فيه النفاق والرياء فخير الامور مع احترام النفس اعطاء السلطان حقه من التوقير والتعظيم بحسب

الآداب السلطانية ولقد جاء في أدب الباب نصائح جمة في الكتب الخصيصة بأمر الملوك والسلاطين لا حاجة الى التطويل بها هاهنا

وللسلطان في مقابلاته لعماله من الوزراء ورؤساء الدولة وعمالها ورجال الحاشية وموظفيها آداب جمة فللوزراء صفة في المقابلة وللعلماء والرؤساء صفة اخرى ولباقي العمال صفات تتفاوت بتفاوت الدرجات وللملك الرشيد والسلطان الحازم الحكيم ذى الاخلاق الكاملة حيال هذا كله حسن بصارته في مخاطباته ومكالماته وتعاطفاته وظهوره لرعيته بما له من الشأن الجميل والقدوة الجليلة والموعظة الحسنة في مثل الحديث الشريف « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » ولهذا وجب على السلطان ان تكون له خلال خاصة كريمة وان تعدم منه خصال لا ينبغي ان يتصف بها تبعاً لرفعة مقامه ودقة مهامه

**
٥

واذا كان لاقوام لمصلحة الخلق وانتظام أمورهم الاجتماعية الا بالسلطان الوازع والشرع الرادع فأول واجب على الرعية ومن تمام أدبها ومصلحتها نفسها مع سلطانها ونظامها « الطاعة »

التي يتم بها شأن الاجتماع البشري وينتظم حال العمران، والطاعة فيما لا يخرج عما حرمته الشرائع أو القوانين المعمول بها من الزم اللوازم لدوام صلاح الهيئة الاجتماعية وقد أمر بها القرآن المجيد في الآية « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » فقرن طاعة الرسول بطاعة الله تعالى ثم اردفه بطاعة أولي الامر ليستبان ان الاخيرة ان كانت فيما يخالف امراً من أمور الشرع وحقوق الله والنظام البشري الحق فلا طاعة اذن كما جاء في الحديث الشريف « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »

قال الفخري في الآداب السلطانية بصدد الطاعة ما نصه « وأعلم ان للملك على رعيته حقوقا وان لهم عليه حقوقا فأما الحقوق التي تجب للملك على رعيته فمنها الطاعة وهى الاصل الذي ينتظم به صلاح أمور الجمهور ويتمكن به الملك من الانصاف للضعيف من القوى والقسمة بالحق ومما جاء في التنزيل من الحث على ذلك وهى الآية المشهورة في هذا المعنى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ومن أمثالهم لا إمرة لمن لا يطاع » ولقد فضلوا بالنظر الى حفظ النظام الملك القاهر المطاع على الملك الضعيف الذي

يهمل أمر الرعية فتفسد وينتقض أمر نظامها وطاعتها له مما هو عماد قيام الامم وواسطة عقد حياة الشعوب

فطاعة السلطان واتباع النظام بشروطهما اذن من اوكد ما حث عليه الدين الاسلامي مراعاة للمصلحة العامة لان عدم الطاعة بمخالفة النظام او بالعصيان والقيام في وجه السلطان من شر ما جر ويجر المصائب والويلات على الممالك وتفسد معه شؤون الهيئة وتضطرب له احوالها الخاصة والعامة أيما اضطراب وفي ذلك من الفساد في الارض الممقوت المبطل للمصالح ما فيه لان الناس لا يصلحون فوضى بلا نظام ولا وازع مهما ارتقت مداركهم وسمت عقولهم فلذلك وجب طبيعياً وسياسياً إقامة السلطان وقيامه بالعصبية القومية والسياسية وجعله بمنزلة الرأس المدبر لجميع حركات الاعضاء الاخرى من البدن وهذه لا تصلح لوظائفها الا بالرأس فاذا لم يؤد الرأس وظيفته ويحترم في جميع اشاراته من سائر أعضاء البدن كانت الامة كالساعية الى حتفها بظلفها ولقد شبه العالم الطرطوشي حال الامة التي فقدت السلطان او دخلت في الفوضى فوضى النظام وانتقاض أمر السلطة والسلطان ببيت فيه سراج منير

وحوله فئآت من الخلق يعالجون صنائعهم فبينما هم كذلك طفيء السراج فقبضوا أيديهم للوقت وتعطل جميع ما كانوا فيه فتحرك الحيوان الشرير وخشخش الهام الحسيس فدبت العقرب من مكمنها وفسقت الفأرة من جحرها وخرجت الحية من معدنها وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوث مع حقارته فتعطلت المنافع واستطارت فيهم المضار كذلك اذا كان قاهراً لرعيته كانت المنفعة عامة وكانت الدماء في أهلها محقونة والحرم في خدورهن مصونة والاسواق عامرة والاموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهر والمرافق حاصلة والحيوان الشرير من أهل الفسوق والدعارة خامل . فاذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع ، ولو جعل ظلم الناس حولا في كفة كان هرج ساعة أعظم وأرجح من ظلم السلطان حولاً وكيف وفي زوال السلطان أو ضعف شوكته سوق أهل الشر ومكسب الاجناد ونفاق أهل الغباوة والسوقة واللصوص والمناهبة ، فبالتأمل في هذا القول وما يرمي اليه من المبدأ والقاعدة الصحيحة من ضرورة وجود الوازع ولزوم استقرا النظام في الامم والشعوب بالتطبيق على أحوال سابقاتها ولاحقاتها نعلم ان ما يصلح الامم غير النظام

و وجود السلطة والسلطان بحسب استعدادها وقابلياتها وان شر ما جلب على الناس ويجاب عليهم الوبال إنما هو الخروج على السلطان او عدم اطاعة النظام فيما جل منه او قل ما دام ليس فيه ما يجحف بحرية الافراد تلك الحرية التي راعاها روح الاسلام وايدها بقواعده الصحيحة وآدابه المنيفة أيما تأييد كما قد حافظ على مبدأ المساواة في الحقوق بما لا مزيد على فضله فيما يطنطن به اصحاب الآراء العصرية في العمران البشري وان تكن مجريات الحوادث كانت كلها تقريباً على العكس مما ترمي اليه آداب الاسلام واصوله الصحيحة

ومن احسن مظاهر الطاعة للسلطان من جهة اخرى احترامه في ذاته وتعظيمه وتوقيره في شأنه وكل شاراته وشارات الامة التي يمثلها في شخصه ثم احترام العمال في وظائفهم ومناصبهم ومراكزهم وجملة القول انه كما وجدت في الاسلام الضمانات القوية والقواعد الاصلية لتنظيم احوال الامة في شؤونها العامة من قبل السلطان وعماله واستقامة احوالها واحواله خصوصاً باقامة العدل والسهر على مصالح الامة وبذل الجهد فى كل ما يؤول الى راحتها وغبطتها حساً ومعنى والبعد

عن الظلم البتة باقامة الشرع العادل والقانون الحق فقد وجد فيه ايضاً حيال هذا ولصالح الكافة ذلك الواجب المحتم على الرعية واجب الطاعة للسلطان والرضوخ لعادل النظام وليس معنى هـذا انه ينبغي ان كل الناس يستشعرون الحب والميل الخالص للسلطان او النظام بدرجة واحدة سواء بالنظر الى ذاته او بالنظر الى اعماله العامة وعماله او للمبادىء الصحيحة المعمول بها بل المراد به ان الناس يجب عليهم مراعاة هذا النظام المستوفي وان يقوموا بالادب الواجب والاحترام اللازم والطاعة الضرورية في الهيئة للسلطان والنظام وكل ما وراء هـذا من تملق او لغط وكلاهما قديم في الهيئات الاجتماعيه فربما كان من أولهما الضرر ومن ثانيهما فائدة للسلطان اليقظ لانه يعلم من ذلك اللغط اوبعبارة أخرى من ذلك الانتقاد مواضع الضعف والنقص التي تئن منها الرعية وتشتكي فيبادر باصلاحها ورتق فتوقها بمعاونة الحكماء والعظماء من وزرائه وأرباب دولته ورجال مشورته وهوما تمتلك به القلوب حقيقة وتستصفى به السرائر وتصلح به الاحوال لان الناس بموجب المبدأ الاسلامي احرار واخوة ماداموا غيرخارجين عن العمل بالشرع المشروع والنظام الحق الموضوع فامتلاك

القلوب انما يكون بعد هذا كله بالمزيد مما يجلب عليهم أسباب الراحة والهناء والرفاهية مما هو فى مصلحة السلطان نفسه لانه يزيد الدولة قوة وثراءً والسلطان عظمة ومجدًا حقيقياً واذا كان السلطان كما جاء في الأثر الشريف ظل الله في الارض فاحر به أن يكون فيئاً وارفاً وظلاً ظليلاً

الباب السابع

﴿ أدب النفس ﴾

نفس الانسان المخاطبة ـ النفس والقلب والروح ـ الشرور ومداخلها جنود النفس واعوانها ـ فرق ما بين ادراكات الانسان والحيوان ـ استصلاح الارادة ـ أهمية تربية الوجدان ـ تقسيم أدب النفس

قال الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وقال تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية) فدل تعالى بهذا على ان تلك النفس الانسانية الكريمة هي التي عليها المعول في الخطاب وسائر التكاليف وانها القطب الذي تدور عليه عموم أفعال الانسان أي اعمال الجوارح الخادمة ، وكل خطاب القرآن الموجه الى القلب ونحوه « أنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى

القلوب التي فى الصدور » « لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد » انما يراد به النفس الانسانية الجامعة لمبادئ الخير كله والتي عنها تصدر جميع أفعال المرء الارادية وما يبطنه في سره ووجدانه (تلك المضغة في القلب أو اللب التي اذا صلحت صلح سائر البدن) في كل أعماله ولهذا افرد ادب النفس وتربية الوجدان وتهذيب الاخلاق بالعناية التامة عند المتقدمين والمتأخرين وفي الاديان السماوية حتى تستصلح آداب الجوارح في كل شؤون البشر الاجتماعية وفي آدابنا معاشر اهل الاسلام مما قد أتيت على كثير من أمورها المهمة بالايجاز في الابواب السابقة من هذا الكتاب كما رأيت

والنفس والروح والقلب والعقل كلها كما قال الامام الغزالي في الاحياء وغيره قد ترد مترادفة لمسمى واحد هو (حقيقة الانسان) المدرك العالم المخاطب والمطالب، وعلاقة هذه اللطيفة من النفس الانسانية واتصالها بالبدن وقيامها بشؤونها من الادراك والحس من أدق ماحارت فيه عقول الاقدمين وطارت له احلام المتأخرين فمن منقب عن عملها بالدماغ ومن قائل انها بالقلب ومن حاك انها جارية في عموم البدن مجرى الدم في

العروق والحقيقة التي لا مرية فيها أنها « الانسان » ذلك الكون الأصغر الكادح الى ربه كدحاً فملاقيه إما بنفس زكية وإما باعمال مردية ، ولقد شرح الامام بن مسكويه من حال النفس وماهيتها وادراكها وحسها وحركتها في كتابه « الفوز الاصغر » ما فيه متسع لاهل البحث والتنقيب عن حقيقة ذاتنا الانسانية .

ونفس الانسان هى التي تحفظ عليه صور المعلومات وهى التي ترد به سائر الموارد في الافعال الاختيارية وما يبطن من كمال انسانى وقوي نفسانية اقتضتها الفطرة الحكيمة التي فطر الله الناس عليها لحفظ بقاء النوع فجاءته الاهواء والنزعات الشيطانية من جانبها فكانت في أحوال كثيرة شروراً وأضحت رذائل للنفس شائنة ولقد شرح الامام ابن قيم الجوزية في كتابه « الجواب الكافي » تسرب الشيطان والاهواء الى النفوس ومداخلها اليها باسلوب غاية في اللطف تفسيراً لقول الله تعالى في القرآن المجيد « رب بما أغويتنى لاقعدنّ لهم صراطك المستقيم ولآتينهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » فالأهواء والنزعات الشيطانية تأتي الانسان من

صوب كل عمل يأتيه أو قول ينطق به أونظر يرمي اليه والشرور أو الذنوب المستلزمة للعقوبات الشرعية والقدرية كثيرة ، أما الشرعية التي اذا أقيمت رفعت القدرية او خففتها فهي كثيرة تعلم من أنواع القصاصات والتعازير الشرعية في حد مثل الزنا وشرب الخمر والسرقة والقتل ونحو ذلك بحسب الشرع أوالقانون المبني على صحيح مفهومه من قصد الزجر والردع والتخويف لتستقيم لافراد الهيئة الامور بما يوافق روح الشرع من جهة وذوق العصر من جهة أخرى .

أما العقوبات القدرية أو المعنوية فنوعان نوع على القلوب والنفوس (وقد ذكر الله أمرها في غير ما موضع من القرآن من الطمس والاعماء والترك في الضلالة غضباً وسخطاً الخ) ونوع على الابدان والاوصاف والاموال (وآثار هذه ظاهرة في فقدان أرباب الشرور والفساد للصحة صحة الابدان وللشرف شرف السمعة وللأموال اسرافاً وبداراً) فالعقوبة القدرية تكون على هذا أشد على الانسان لان آثارها الظاهرة في الدنيا شائنة ويترصد صاحبها مع ذلك في الآخرة القصاص الاخروى الشديد ولا سيما تلك الذنوب التي تنجم

عن معاملة الناس بالخيانة والغش والسعاية والنميمة والغيبة واغتيال الحقوق لان الذنوب مهما خفيت وصغرت لاتخلو من عقوبة البتة ولكن لجهل العبد لا ينظر بل لا يشعر بما هو واقع فيه من عقوبة للغفلة الراكبة والغواية الشيطانية المستحكمة التي تجعله بمنزلة المخدر والسكران ولكن للسكرة فكرة وحسرة واي حسرة ، فيخلق بالعاقل ان يستحضر العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب ويجوز وصولها اليه وهذا انجع واسطة لهجران النفس الرذائل واتقائها المساوى والشرور ولمثل هذا فليعمل العاملون

فالنفس هى العاملة واعضاء البدن مسخرة لتلك النفس التي يعبر عنها « بأنا » فهي جنودها الظاهرة وأعوانها المطيعة من الحواس الظاهرة كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس ثم الحواس الباطنة من الحب والبغض والادراك وهذه وتلك كلها جنود للنفس واعوان لها بواسطة أعضاء البدن من اليد والرجل والعين والاذن والانف والفم والدماغ والاعضاء وهي إنما تعمل للنفس تحت إمرة النفس فتجاب لها على مقتضى ذلك إما الخير اذا اعتمدت النفس على حكم العقل الرشيد و إما

الشر اذا كان الدافع هو الهوى لفساد حال النفس وهى كلها
انما تسمى بها هذة النفس وتسخرها لامرها في تحصيل اسباب
المعاش والملاذ الدنيوية في هذا العالم الارضى فبدافع الشهوة
المودعة في النفس تسمى الاعضاء في تحصيل الاقوات والارزاق
وسائر أمتعة هذه الحياة الحسية والمعنوية وبدافع « الغضب »
المودع الى جنب الشهوة في هذه النفس يحصل الذود والدفاع
عنها والحفظ لها وبالادراك والعقل المسيطر على كل قوى النفس
والمهيمن عليها يقع التمييز والتفرقة أى العلم بالنافع والعلم بالضار

قال الامام أبو حامد الغزالى في الاحياء ما محصله ولقد
يعبر عن هذه القوى أو الجنود الباطنة للنفس من ذلك الباعث
والمستحث في الشهوة طلباً لجلب النافع ودفع الضار « بالارادة »
للاول و « بالقدرة » للثاني لانه المحرك للجنود النفسانية المبثوثة
في الاعضاء ولا سيما العضلات منها والاوتار أما القوة الثالثة
قوة الادراك فهي المدركة العارفة بالاشياء بواسطة وسائله
وآلاته من الحواس الخمس الظاهرة البصر والسمع والشم
والذوق واللمس وهى مبثوثة في أعضاء معينة مرتبطة بالاعضاء
الرئسة التي تسكن قوى الادراك الباطنة من تجاويف الدماغ

وتلافيف جوهره المكنون من المخ الانساني والتي هي مصدر حركات البدن كله وسبب ادراكاته العظيمة و « مستودع » معلوماته الغزيرة ومستصدر ارادته وقدرته وتنفيذها بواسطة سائر أعضاء بدنه وهي مكان « نقد » افعاله وميزان اعماله بواسطة ذلك الوجدان الانساني الشريف وضميره المنيف أو بعبارة أخرى عقله الرشيد الذى يميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين والخطأ والصواب والخير والشر فاذا وُفّقَ الانسان الى اكساب هذا الوجدان وذلك العقل مبادىء الاشياء على حقيقتها واستفادها على صحتها وما يتحرى فيها لبلوغ السعادة الحقيقية وصرف لحظاته وخطراته واميالهومحباته الى الخير المحض استصلحت ولا ريب كل احواله واعماله واستقام عوده فصلحت من وراء هذا احوال المجموع فقلت المعاصى والشرور وتجنب مسترذل الذنوب والعيوب ولقد افاض الغزالى وابن قيم الجوزية في كتابيهما السالف ذكرهما في هذا المعنى بما لا مزيد عليه ، والخلاصة ان الانسان قادر بما وُهِبَ من قبل الخالق تعالى من موهبة العقل والادراك والاذواق الدقيقة العالية على اصلاح أحوال نفسه المودع فيها

كل اسباب الخير وكثير من دواعى الشر

وانه لئن شارك الانسان كثيرٌ من الحيوانات العالية في الادراك كما يتبين للناقد الحكيم في سلائق الحيوان وطبائعه فلقد يرى القرد الصغير الثعبان مثلاً فيرجف منه ويفزع ، وترى الشاة الصغيرة الذئب فتضطرب وتهرب فهذا الادراك أو الشعور الغريزى وان شارك في كثير منه الحيوان الانسان الا ان مما يختص به الانسان وهو المشرفَ خلقاً وخلقاً إنما هو الاحساس الباطنى المبني على الامور العقلية الخصيصة التي تدرج في ارتقائها العقل بارتقاء الانسان بكيفية مخصوصة وتقدم فيها بما وهبه الله من سمو المنزلة والقوة العظيمة التي أشرنا الى مستودعها العظيم من نفس الانسان وتركيب عقله فان هذه أمور وراء المحسوسات وما في حكمها من السلائق الحيوانية ولا يشارك فيها الحيوان الاعجم الانسان مهما رقى بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل البشرى اذ يحكم هذا العقل الكريم مثلاً انه لا يتصور ان يكون الشخص في مكانين في حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على سائر الاشخاص

إنما جاءه بطريق الحل والقياس الصحيح وهو زائد على ماأدركه بالحس واذا فهمت هذا في العلم الظاهرى الضرورى للعقل البشرى فهو في سائر النظريات المدركة للانسان أظهر وأجلى .

أما الارادة وما ينبغى أن تستصلح له من وراء العلم بالمبادئ على حقيقتها فانه اذا أدرك المرء بالعقل عاقبة الامور وطريقة الصلاح فيها انبعث عن ذاته شوق ورغبة وعزيمة بالميل الغريزى الى الخير المودع فيه الى جهة المصلحة والى تعاطي أسبابها وذلك غير ارادة الشهوة العمياء وبعبارة أخرى غير ارادة الحيوان الاعجم بل يكون ذلك على ضد الشهوة أو بالتالى بحسب ما هو الصواب فيها لما يجد من الزواجر النفسانية المستفادة من صحة المعلومات وحسن الاذواق التي صارت له ملكة راسخة بحكم العادة فى مجتمعه واستشعر وجدانه بفضلها وثمرتها ولذاتها الصحيحة .

واذا تقرر هذا علمت مقدار أهمية تربية النفس وإشعار الوجدان منذ الصغر مبادئ الاشياء على حقيقتها وحقائق الامور على أفضلها وانكشف لك المعنى السامي المودع في قوله تعالى « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » فهذا

بخصوص ما أودع الباري تعالى في النفس البشرية من القوى وركب فيها من الشهوات للحكمة الخلقية ثم دقيق معنى ما عطف عليه بقوله عز من قائل « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فهذا اشعار وتنبيه بضرورة القيام بتربية النفس وتهذيبها حتى لا تخيب ولا يشقى المرء بها في الدنيا والآخرة ولتمام الرحمة بعث تعالى الانبياء والرسل الكرام في الامم مبشرين ومنذرين « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولقد تقدم في الحديث الشريف « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق »

وتربية النفس تنقسم الى قسمين قسم يتعلق بالجوارح ووظائفها وقسم يختص بما يقوم خاصة في السرائر والضمائر وتظهر مع ذلك آثاره بواسطة الجوارح وفى أعمالها - وكل اناء بالذى فيه ينضح - وهذا القسم أهم من الاول بل هو الاصل في الباب وانه للغرس الذى يثمر كل الثمار إما فاكهة وأبا وإما حنظلاً وشوك قتاد ، فاذا صلحت تلك المضغة من النفس أو القلب صلحت كل أعمال جوارحنا وان قلت » واذا فسدت منا القلوب والنفوس فهذا لعمرى ما يفسد معه كل شأن

للانسان ومهما تعلم وسما ومهما ارتفعت منزلته فانه ليكون الساقط في مهواة من الضعف والشر تظهر آثاره عليه في الدنيا وانه ليترصده عليه في الآخرة كما توعد الله تعالى المجرمين عذاباً شديداً ولهذا قال عمر بن الخطاب «تأدبوا ثم تعلموا» وهو لا يعني ولا ريب بذلك غير أدب النفس قبل أدب الجوارح :

هذا ولقد تقدم في الفصول السابقة جملة مما يختص بادب الجوارح في الاعتقادات والعبادات والمعاملات الى آخر ما مر بك على مقتضى قواعد ديننا الاسلامي الحنيف وأصول آدابه السامية وما جرى به حكمه الظاهري فيها أما هذا القسم من « أدب النفس » الجليل القدر العظيم الخطر فيقسم الى قسمين قسم يتعلق بشأن الخلق فيما بينهم لتصلح به كل أحوالهم وقسم يجب ان يتحلى به المرء مع الخالق تعالى مصدر جميع الخيرات ومفيض كل النعم .

رب ان الهدى هداك وآيا   تك نور تهدى به من تشاء



القسم الأول

أدب النفس مع الخلق

قوى النفس الحيوانية والممتازة — العقل الرشيد وسلطانه في الدفع — مصادر ادب النفس والعقل — الاخلاق وتهذيبها — التربية النفسية — شؤم الذنوب والرذائل — آثار الذنوب اللاحقة — امهات الفضائل واطرافها من الرذائل — طائفة من الفضائل — الاخلاص — اداء الامانة — البشر — الترفع — التواضع — الحلم — الرحمة — السخاء — سلامة النية — الشجاعة — الصبر — الصدق — القناعة — كتمان السر — المحبة والود — المنافسة — الوفاء — الوقار — جملة الاخلاق الفاضلة ومحاسنها — استئصال الرذائل — رياضة النفس — هل يمكن تغيير الخلق — مطية النفس .

ترك نفسك يوماً وهواها سعى لها في رداها

لقد صحب الانسان لكمال خلقه الحيواني ثلاث قوى كما تقدم الشهوة والغضب ثم حب الذات أي الأثرة لحفظ النوع وامتاز عن باقي جنس الحيوان وفضل وكرم من بينها بتمام العقل أو عظم الادراك كما سلف ، فهذا العقل الخصيص بنا سلطان حاكم وباقي القوى مسخرة له فمن غلب على عقله شقوة شهواته البهيمية فقد التحق بافق البهائم الموصوفة بالشراهة (اولئك كالانعام) ومن غلب غضبه عقله فقد صار الى مرتبة السباع

الكاسرة والحيوانات المفترسة ومن خبثت نفسه وفسدت سرائره واستعمل عقله واستخدمه في المكر والخداع والغش والرياء (يخادعون الله وهو خادعهم) فقد انطوى طى المردة من الشياطين ، ومن ساد عقله الرشيد كما هو المراد منه كل قواه الاخر فجرى في تسخيرها بالاعتدال والحكمة فاز بكمال الانسانية واتصف بأجمل ممادحها وأجل صفاتها الممتازة وصار من ثمَّ احرى بأن ينتظم في سلك الملائكة المكرمين والبررة المقربين من الله تعالى «واولئك هم المفلحون» في الدنيا والآخرة .

واذا كان هذا العقل الرشيد هو السلطان الحاكم المدبر لعموم الافعال الانسانية بالحكمة والسداد لهذا كان قابلا ومستعدا تمام الاستعداد لأن يؤتي الحكمة ولان تنطبع فيه على اكمل صورة صور المعلومات ووهب لهذا قوة التمييز والتفريق بينها بمحك النظر الصحيح لتلك الهداية الصمدانية والنورانية الربانية المودعة فيه وهي التي ترتب المعلومات وتزاوج بينها وتقارن وتبنى الاحكام وتحصل النتائج متسلسلة والافكار متناسبة آخذاً بعضها برقاب بعض أو مختلفة بحكم اختلاف العلل والاسباب ولهذا كره الوقوف على المعلومات الواحدة والاساليب الواحدة

بالتصلب فيها خصوصاً فيما يتعلق بالمعلومات المستفادة بالتقليد الاعمى دون اطلاق العقل وتسريح الفهم لارتياض الحقائق واقتناص الشوارد لان هذا يوجب الجمود بل التقهقر لرسوخ الامور التقليدية وتشربها العقول فلا تقدر على الخلاص من ربقة الاسر والضيق وبالتالى لا تتوق ولا تنشط الى الاخذ بما هو من مزايا اللب وفضائل هذا العقل البشري وتطلب العلاء وحسن الاختيار بحسب المقتضيات والظروف العمرانيـة التي وان حصلت بالتدريج لكنهـا تظهر فيها الفروق العظيمة بالنسبة الى أحوال الجامدين بالقياس على أحوال غيرهم من الهيئات التي تنشد الرقي ولا تأسر نفوسها الامور التقليدية مما ذمه الله تعالى في حال الامم التي قالت « انا وجدنا آبائنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » وهذا باب واسع قد يطول فيه الشرح فلنرجع الى المقصود بالذات

لقد يكسب هذا العقل الرشيد بموجب الادب الاسلامي حقائق المعلومات والمعارف النفسانية لينتفع المرء بها دنيا واخرى في نفسه وجوارحه الاخـذ بما جاء في الـكتاب والسنة وفهم معانيهما ثم استخدام العقل فيهما بالتدبر والتفهم ومعرفة ما ينطوي

طي هذا من حكم وأسرار وآداب ورقائق وهذا يقتضي دراسة مبادئ العلوم العقلية كما يقتضي الاستعانة بالمعارف الآلية وما الداعي الى عزل العقل البتة اكتفاء بالتقليد الا جاهل ، وما المكتفي بمجرد العقل في مثل تلك الاحوال دون التنور بانوار الكتاب والسنة الا مغرور . وجملة القول أن العلوم العقلية والطبيعية فيما يقصد بها هاهنا لفائدة البشر كالأغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض قد ينغص بالغذاء اذا فاته الدواء فلهذا كانت أمراض النفوس لا سبيل الى معالجتها على أحسن حال وأفضلها الا بالادوية المستفادة من طب الشريعة وآدابها المستنبطة منها بالبصائر النيرة في امور الاعتقادات والعبادات والاعمال لتنتظم أحوال النفوس وتصلح وتتصف بالخير قلباً وقالباً وتحيط مع ذلك بالاشياء على حقيقتها الامر الذي يعود نفعه على المرء في نفسه وهيئته وسائر عمله فيها وارتباطه بها .

هذا ما يختص باكساب العقل لدينا المعلومات الشرعية والعقلية اللازمة له حساً ومعنى والتي هي كالأساس للتربية وأمر ما يسمونه تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق التي افترق فيها لاهميتها الى فرق ومذاهب ولا غرو وهي أول متحرى الباب

باب ادب النفس عند سائر الخلق. ولقد عرفوا الخلق بانه عبارة
عن الهيئة الراسخة في نفس الانسان التي تصدر كل الافعال عنها
بسهولة من غير ما حاجة الى كبير فكر أو روِّية لسابق الاعتياد
عليها بالمتكرر للنفس فيها وإلفها لهـا فان كانت تلك الهيئة في
النفس بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا
بحسب العرف سميت « الخلق الحسن » واذا كانت بعكس ذلك
دعيت « الخلق السيء » وانما اشترط الرسوخ لتلك الصفة أو
الهيئة ليحكم برسوخ الملكة والعادة واسم الخلق ولا عبرة بالاعراض
الطارئة سلبا وايجابا في الافعال إذ العبرة بالاتصاف الحقيقي
الملازم للنفس ، فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها
الباطنة وجمالها وجلالها في كمالها الاتصافي فيما ترشح من اناءنا
على سائر القوى وافعال الجوارح بسهولة . واذا كان الجمال
الظاهري للصورة الا دمية يقتضي تناسب أعضائها واعتدالها
فللجمال الباطني مثل هذه الحال أيضا من حيث لزوم التناسب
بين قواه حتى يتم للمرء حسن الخلق ، وهاته القوى اذا اعتدلت
وتناسبت حصل ولا ريب حسن الخلق أو اعتدال المزاج أو
ملكة الاذواق السليمة ولحسن حظ النفوس انها قد جبلت

قابلة لهذا الحال من قبول التهذيب متى ما مهدت لها وسائله وتدرجت عليه شرعياً وعقلياً على الوجه الآنف

وهذا ليس بالذي ينال على أحسنه الا بالتربية والترويض على محاسن الاخلاق وكريم الشيم لكي تخدم سائر القوى ذلك السلطان من قوة الفكر والعقل الرشيد فتحسن من ثم الارادات وتمتاز الرغائب ، وأفضل ما يكون من هذه التربية ما يقع منها في الصغر وزمن الحداثة ولدانة العود وهو الامر الكريم الذي أجمع على جودته وضرورته السلف والخلف لان نفس الصبي جوهرة نفيسة وجمانة خالية من كل نقش واثر لصورة ما فهو لهذا أسرع قبولا واسهل ميلاً لما يمال اليه عوده، فان عود الخير بالافعال والقدوات الحسنة العملية في العائلة والمجتمع وعلم نظريا وبين له حكمه وحكمته سعد في الدنيا والآخرة وشاركه أبواه ومعلموه في الاجر عند الله ، وان اعتاد الرذائل والشرور وأهمل شأن تقويم نفسه شقي ووقع في الآثام والذنوب وكان الوزر في رقبة أبويه كما في رقبته بل في رقبة الهيئة الاجتماعية التي رضيت لاحد اعضائها به

وشؤم الذنوب ومصائب الرذائل النفسانية لها في النفوس

آثار رديئة من حيث عرقلة الاحوال ومغاب سيئة في سائر الشؤون والافعال فضلا عما يترصد أصحابها من القصاصات من الشرع القائم والوعيد بالعقوبات الاخروية مما يظهر أثره في الحياة الدنيا أيضاً وما استدفعت النقمة بمثل الطاعة وتحسين الاعمال والاخلاق مما هو مجلبة كل خير كما ان أضداد ذلك من أكبر الاسباب الجالبة لكل شر ، وقد رتب سبحانه وتعالى حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور والسعادة فيهما في كتابه العزيز على الاعمال ترتيب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة ، فالامر صريح والشأن ظاهر فى ترتيب الجزاء بالخير والجزاء بالشر لصلاح أحوال البشر في دنياهم ولتمام سعادتهم في أخراهم (الآيات القرآنية في ذلك كثيرة) ومن الجهل الفاضح والشر الواصل ارتكاب الذنوب ومغالطة النفس في التلوث بالرذائل اتكالاً على عفو الله ومغفرته والتسويف في أمر اصلاح حال النفس العائد نفعه على ذات المرء فالتوبة النصوح وقوة الارادة بالرجوع عما عنه نهى وزجر أمر صريح الوجوب بنص الكتاب والسنة السمحة

ولقد عدد ابن قيم الجوزية الآثار القبيحة للذنوب والرذائل

اللاحقة آثار اضرارها بالقلوب والنفوس والابدان وكل الشؤون
الاجتماعية في الدنيا فضلا عما هو مرتب عليها من القصاصات
في الآخرة فمنها حرمان العلم وفساد العقول والغفلة في الشؤون،
ومنها ظهور الفساد في الارض وقلة البركة في الارزاق والاحوال،
ومنها حلول النقم والهوان والذلة والصغار والاحتقار من الناس ،
ومنها التخاذل القومي وتفكك الروابط بين أفراد الامة هذا
فضلاً عن العقوبات المعنوية في النفس والوجدان من لحوق
الغم والكدر وحلول الامراض البدنية والنفسانية ثم قطع
الامداد والطرد من حضرة الله ثم العقوبات الاخروية من
العذاب ودخول النار الى آخر ما فصل وبين وشرح من ذلك
ابن قيم الجوزية والامام الغزالي وغيرهما

أما محاسن الاخلاق او الفضائل النفسانية فيجب أن تنشد
على وجه عام لعموم أبناء الامة بموجب المبدأ الاسلامي وبالحديث
الشريف « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » والآثار في الباب
باب وجوب التحلي بالفضائل ومكارم الاخلاق في كل الشؤون
وفي جميع الاحوال مشحون بها الكتاب والسنة ناهيك عما
هي لازمة له في شؤون البشر بموجب كل المبادئ الانسانية

والاحوال الاجتماعية ليسعد البشر ويغبطوا فيما هم بصدده من الاسباب والاعمال مما يجعلهم رحماء بينهم متضامنين متكاتفين في الشعور والاحساسات وكل العواطف الكريمة الفردية والقومية حتى تعتدل لهم أمور الحياة وتصفو لهم الموارد من الاكدار والخبائث قياماً بالواجب الانساني لنوال الكمال الانساني وتحرياً للعقل والفضل الانساني لان حد العقل كما قال ابن حزم استعمال الطاعات والفضائل وتجنب المعاصي والرذائل ولقد نص الله تعالى في غير ما موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل ومن شر العصيان الاتصاف بالرذائل الاجتماعية بين البشر خصوصاً فيما يتعدى ضرره الى الغير والدين المعاملة

وأمهات الاخلاق التي ذكرها اخلاقيو الاسلام[١] اربع «الحكمة» و«الشجاعة» و«العفة» و«العدالة» قال الشيرازي وهي أوساط طرفاها البعيد ان رذيلة «فالجزبرة والبله» طرفا الحكمة و«التهور والجبن» طرفا الشجاعة و«الشره والجمود»

(١) يراجع أيضاً على هذا الفصل كتاب الاخلاق للشيخ محي الدين بن العربي وتهذيب الاخلاق للحكيم ابى زكريا يحيى بن عدى وتهذيب الاخلاق لابن مسكويه

طرفا العفة و « الجور والمهانة » طرفا العدالة . ولكل من هذه الفضائل والرذائل فروع وحدود وتعريفات وطرق استفادة واكتساب وطرق علاج في الاضداد وطرق لدوام حفظ صحة النفس كما تحفظ بالوسائل الصحية الحسية الابدان وتوقى من الوقوع في الامراض والاوصاب . ولقد استوفى ذلك كله في كتب الاخلاق الاسلامية وقال الامام الراغب الاصفهاني في كتابه الذريعة الى مكارم الشريعة حكمة نفيسة في اكتساب الفضائل قال « حق الانسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقاً ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه ان يبرز ذلك فعلاً أو لم يمكنه وذلك بان يكون على هيئة الاسخياء والشجعان والحكماء والعدول وإن لم يكن ذا مال يبذله ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيها عدالته فقد قيل لبعض الحكماء هل من موجود يعم الورى فقال نعم ان تحسن خلقك وتنوي لكل أحد خيرا وقال عليه الصلاة والسلام « انكم لن تسعوا الناس باموالكم فسعوهم باخلاقكم »

قلت ان للفضائل فروعا ولوازم ولقد عدوا منها ما ينيف

على العشرين خلقاً حسناً لا يمكن للانسان ان ينكر فضلها في كل أين وآن أو أن يقدح في نفعها وثمرتها أو يدعى عدم لزومها والغناء عنها في الحياة الادبية والاجتماعية وإن تفاوتت فيها الهمم وتباينت العزائم بعد ان أجمع الاولون والآخرون على ضرورتها ووجوب تحريها من جهة العقل ذلك الذي هو حد الفضائل ومن جهة الشرع ذلك الذي يهدي الى المحاسن وهاك هي مع اضدادها مرتبة على حروف المعجم ليسهل تناولها والاستدلال عليها .

الاخلاص — هو عماد كل الاعمال واكرم أس في جميع الاحوال فمن أخلص في عمله وفي حاله كله بين أبناء هيئته كان الناجح في كل شؤونه الظافر بمرغوبه الظاهر بين اخوانه باحسن الفضائل وأجمل الشيم الاجتماعية التي يجب ان يتحلى بها الانسان لتصفو له موارد الحياة والمودات الانسانية وفي الحديث الشريف « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وسيأتي مزيد بيان لهذه الخلة الكريمة في قسم أدب النفس مع الخالق

أداء الامانه — قال الله تعالى يصف الممدوحين بهذه

الفضيلة عنـده « والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون » وأداء الامانه قرين الوفاء الآتي ذكره وإنما يزيد عليـه بانه التعفف عما يتصرف فيه الانسان من مال الغير باحد التصرفات الممكنة من مثل الوكالة والوصاية والقيامة على القصر والمعتوهين والسفهاء وتولى الاوقاف والوظائف العمومية ونحو ذلك فكل هذا يدخل التعفف وأداء الامانه فيـه فى باب أدب النفس الجميل دنيوياً ودينياً وما الخيانة في مثل تلكم الاحوال ونحوها الا الشر المردي في النهاية بصاحبه ، المفسد عليه جميع أحواله في المجتمع ، المثلم لشرفه وصيته ، المشهر له باحط الاوصاف . وكفى بالخيانة أثماً مبيناً وعاراً وشناراً قد لا يمحى ولقد جاء في الحديث الشريف « إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا ائتمنتم واصدقوا إذا حدثتم واحسنوا جوار من جاوركم »

البشر وطلاقة الوجه — هو ذلك الخلق الكريم الذي يكسب صاحبه محبة الخلق وإلفهم له وعطفهم عليه وهو خلق مستحسن من جميع النـاس يكسبهم كل خير بعكس عبوسة الوجه وتقطيبه — ولقد كره في الحديث ان الله يكره المعبس في وجه اخوانه — الدال على سوء الخلق وشراسـة الطباع

والكبر غالباً ، والبشر وطلاقة الوجه من أجل أنواع البر قال الشاعر :

لعمرك ان البر شيء هين — وجه طليق وكلام لين

الترفع والتصون — هما من أجمل الخلال البشرية ويجريان في تجنب الهزل والقبيح وذكر الخنا وثقيل المزاح وسخيفه وخفة الاحلام ونزق النفوس والانقباض عن ادنياء الناس في المعاشرة والمخالطة وفي الترفع وعزة النفوس وشمم الافئدة والتحرز من العيشة الزرية واكتساب المال وطلب الحاجات بالمداهنة والتملق والرياء والخداع فان هذا كله وأمثاله معيب شائن لا يأتيه الا سفلة الناس وأصحاب النفوس الدنيئة وبذل ماء الوجوه وتعفير الخدود ولقد جاء في ذم ذلك آثار جليل وحكم حكيمة واقوال للسلف وامثال غاية في السداد فيجدر بالمرء العاقل والمسلم المتأدب بأدب الاسلام بل بالآداب العصرية ان يصون نفسه ويترفع بخلقه وأن يزن اموره بالحكمة ويجري في شؤونه بالعقل مترفعاً متصوناً وهذا لا ينفي مبدأ التواضع الآتي . لانه بون ما بينهما

التواضع — خلق جميل ممدوح وخلة شريفة لا تزيد

صاحبها الا رفعة في الهيئة ومحبة ومودة بين الناس لان ترك المباهاة بالجـاه الحسي والمعنوي أمر محمود من ذوي الجاه خصوصا أما الكبر والغطرسة والاستهانة بالناس والترفع عليهم بحق وبغير ما حق يوجبه على نحو ما سلف في الترفع والتصون المطلوب عن الاحوال المزرية مما يجعل النـاس يزدرون المرء ويمقتونه من أجله فأمر مضر به ضرراً بليغا لان من يبغضه الناس ساءت أحواله فضـلا عن ان المرء بالتشبث بالـكبر والاعجاب بالنفس يبعده ذلك عن اكتساب الآداب والمحامد الصحيحة ومن لم يستزد منها بقي أبداً في نقصه وانحطاطه دون نوال الكمال وما اخر به غير كبره وصلفه ولقـد جاء في مدح التواضع وذم الكبر آثار جليلة وآيات بينات من الكتاب والسنة وآثار السلف واساطين الحكمة بما فيـه اجمل الموعظة الحسنة جاء في الحديث الشريف « التواضع لا يزيد العبـد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله تعالى، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله تعالى ، والصدقة لا تزيد المـال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله عزَّ وجل » وقال تعالى « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا »

الحلم — قال الشاعر:

بحلم وعلم ساد في قومه الفتى وكونك اياه عليك يسير

فالحلم — والحلم بالتحلم كما في الحديث الشريف من اكرم الخلال وهو اصل من اصول الدين وقد وصف الله تعالى به نفسه وأثنى به على أنبيائه فهو من أجمل عزائم الصبر واجل فضائل العقل والاناة والتوءدة المحبوبة وعلو الهمة الآتي ذكرها، ولقد حدوا الحلم بانه «ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة عليه» وهو حال محمود ما لم يؤد الى ثلم الشرف أو فساد الامور ويضاد هذا الخلق من الرذائل «السفه» وكفى بهذه الاسماء والنعوت من السفه والسفاهة والسفيه شيئاً، والسفه سرعة الغضب والطيش من يسير الامور والمبادرة بالانتقام والطيش أو الحمق والسب والشتم وياله من خلق دنيء وسفالة في النفوس الغبية الجاهلة شائعة في الطبقات النازلة خصوصاً. فاستصحاب الحلم والتحلم والتوءدة والتشبث بذلك كله إنما هو من أفضل الاحوال الجليلة والاخلاق الجميلة التي يجب ان يتحلى ويتخلق بها في الهيئة الاجتماعية. ولقد اشتهر عن كثير من ذوي المقامات الجليلة أنهم ما اكتسبوا المجد

والسؤدد والمدح والثناء إلا من استصحابهم هذه الفضيلة فضيلة الحلم فظفروا بها ونجحوا في أعمالهم وتدبيراتهم كما اشتهر عن معاويه بن أبي سفيان رضي الله عنه وغيره كثير

الرحمة — وقد وصف الله بها نفسه في كثير من المواضع في القرآن المجيد والذكر الحكيم فيجدر بالانسان ان يتصف بالرحمة ذلك الخلق الكريم والفضيلة الانسانية العظيمة من الشفقة والحنان والعطف على الاخوان ومع سائر أبناء جلدته بل عامة مخلوقات الله تعالى فالشفقة مطلوبة والرحمة واجبة والراحمون مرحومون من الرحمن مشكورون من الناس . والرحمة أوقع في النفوس اذا كانت من الاكابر الى الاصاغر ومن الاقوياء الى الضعفاء وفى الامة بين بعضها والبعض مما هو من أحسن وأجمل مظاهر التضامن والتضافر للتماسك المطلوب فيرحم القوي الضعيف ويوقر الصغير الكبير ويواسي الواجد المعدم .أما القسوة والشراسة والاثرة والتخاذل والتجافى وعدم الرحمة والشفقة فمن الخصال الممقوتة والفعال المضيعة التي لاتوجب لصاحبها فى الهيئة إلاًّ ولا ذمة ولا جزاءً ولا شكوراً فاذا ما منيت الامة بعدم الرحمة وبليت بالتقاطع والتدابر وغطرسة

النفوس (خلافاً لما جاء فى الحديث مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعي له سائر الاعضاء بالسهر والحمى وفى الحديث الآخر المسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضاً) فاذا ما منيت الامة بذلك فلن يكون بين أفرادها غير الكراهة والبغضاء والحسد والسخط وان وجد شيء من الميل والعطف فبطريق المداهنة والرياء نفاقاً وليست تكون فى شيء من كسب الاحترام الصحيح والمحبة الحقيقية المبنية على تبادل المحبة بالاخلاص والصدق الآتي من قبل الرحمة الحقيقية والناتج عن الشفقة والحب الخالص المتبادل من أجلها بالاخلاص . فمن خص بهذه الحلة الكريمة من الرحمة والشفقة فقد فاز بأجل شعور للانسانية وحظى من أجل ذلك بين أهله وناسه وعموم أبناء هيئته بأجل الأرب وأفيد الآداب الاجتماعية.

السخاء - هو بذل المال عن قدرة فى حقوقه ووجوهه الاجتماعية المفيدة وقد تقدم شيء من ذلك ، وهذا الخلق مستحسن ما لم ينته الى السرف والتبذير فالاعتدال واجب فى كل الاحوال كما ان البخل والشح والضن بمد يد الاعانة والرفد

والمساعدة فى وجوهها المطلوبة شرعياً واجتماعياً مذموم لانه
يحرم الانسان مما لا ينبغي أن يحرم نفسه منه فى هيئته
في حال ميسرته وغناه ومقدرته على اكتساب المحامد
والمفاخر الاجتماعية بواسطة ماله بين هيئته ولله ما أجزل معنى
الحديث الشريف « السخي قريب من الله قريب من الناس
والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس » ولا ريب انه يقصد بهذا
القرب ما أشرنا اليه من الجهة النفيعة المثمرة للمحامد

سلامة النية وحسن الطوية - وهو اعتقاد الخير لكل
الناس ومعاملتهم بقلب سليم وهو من الاخلاق المرضية الواجب
التحلي بها دينياً أيضاً وتنكب عن الخبث والغيلة والمكر والخديعة
تلك الصفات التي هى من شر ما يجنى المرء بها على نفسه في
سائر المعاملات وان ظهر له أنه الرابح الناجح بتلك الخصال
الذميمة بادئ بدء لكن لايلبث من يتصف بها ان يرى الناس
وقد علموا بخبث طويته وقبح سريرته احتقروه وازدروه
وتجنبوا معاملته بل ربما كالوا له بما يكيل لهم به فلا يعود غالباً
ينجح بينهم او يظفر منهم بطائل الا بمقدار ما ينتفع به منه في

المجتمع فضلا عن الانتقاص الادبي والسمعة الرديئة « ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله »

الشجاعة — الشجاعة الادبية من خير ما تحلى به النفوس وتنجح به كل الشؤون اذ لخوار العزيمة والجبن الادبي ضررهما البليغ في نفوس الافراد بما لا يمكن حصره ، والشجاعة الحسية من أفضل الصفات لان الثبات عند المكاره والنوازل أمر مطلوب لسلامة الحياة البشرية والذود عن الحياض ولقد قال الشاعر العربي القديم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

وليس للمرء أفضل من سلاح الشجاعة ما دامت غير بالغة حد التهور وكذلك الحال في الشجاعة الادبية من حيث قول الحق والصواب غير هياب ولا وجل إنما يكون بمراعاة آداب لها وشروط تبعاً للنظام المرعى ولقد كان للمسلمين هذه الملكة ملكة الشجاعة الادبية على أشدها في الاعصر الاول ولكنها تلاشت من نفوسهم شيئاً فشيئاً تبعاً للتقلبات والتغيرات الشديدة التي أبعدت النفوس عن مبدأ الحرية والمساواة الاسلامية حتى أضحت في أخريات الايام كلا شيء الامر الحري

بان يرجع اليه طلباً لمظاهر الحياة الاجتماعيـة الصحيحة وحرية الافكار المفيدة وفي الحث على هـذه الشجاعة الادبية جاء في الحديث «لا ينبغي لامريء شهد مقاماً حق الا تكلم به فانه لن يؤخر اجله ولن يحرمه رزقه»

الصبر ـ الصبر عنـد الشدائد وهو خلق مركب من الشجاعة والوقار ومستحسن جداً في كل الامور أما الجزع والقلق والاكثار من الاضطراب بحيث يصير المرء كما قال الشاعر

كريشة في مهب الريح طائرة لاتستقر على حال من القلق

فليس بمفيد صاحبـه ولا هو بالمغنى عن الصـبر فتيلا في التـدبير واستنباط الحيلة بالثبات والاجتهاد بالحكمة لدفع ضرر الشدائد وتذليل المصاعب واحتمال المكاره والتماس المخارج وهذا لعمري ما يسميه اخلاقيو العصر بالثبات والثبات والصبر مترادفان هنا على ان للصبر فضلا في كل الامور وهو مطلوب دينياً في كل الاحوال وعقباه محمودة في احتمال تصاريف الاقدار الجارية على الانسان التي يعد الجزع فيها عصياناً وسخطاً على مقدور الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «في الصبر على ما تكره خير كثير» وقال «الصبر والاحتساب خير من عتق الرقاب ويدخل

الله صاحبهن الجنه بغير حساب » وقال بعض الحكماء « الصبر باب العز والجزع باب الذل » وقال الشاعر الحكيم

الصبر أفضل ما اعتصمت به   ولنعم حشو جوانح الصدر

والصبر صبران صبر على الاقدار وصبر على الاعمال وسيأتي زيادة شرح على الاول في قسم أدب النفس مع الخالق تعالى .

الصدق - والصدق منجاة من العطب - وهو ذلك الخلق الكريم والخلة الجميلة من الاخبار بالامور على حقيقتها والجري في كل الشؤون بموجب أدبها والمؤمن كما في معنى الحديث الشريف اذا قال صدق واذا وعد أوفى - والصدق مستحسن من كل الناس وخليق بمن يتصف به ويشتهر ان يكتسب احترامهم وثقتهم به واجلالهم لمقامه مقام لسان الصدق أما نقيض هذه الخلة من الكذب فمن اقبح الرذائل واخس وأردأ الخصال المفسدة للاحوال المضيعة للحقوق في مثل شهادة الزور والبهتان والحلف الكاذب فانها كلها حرام ومن أشأم الخصال التي يتخلق بها امرؤ سفلت نفسه وانحط خلقه ، ويدخل في باب هذه الرذيلة بل هو من شر الكذب « الغيبة » و « النميمة » « والسعاية والوشاية » ويالله ما أقبحها وأسوأها من صفات

دنيئة وخصال رديئة تعود بالضرر على المتصف بها اكثر مما قد تضر بمن عداه وكتب التاريخ والمحاضرات الاسلامية مملوءة بالعظات البالغات مشحونة بالعبر القارعات ناهيك انه قد تضافرت النصوص الدينية الصريحة والبراهين العقلية الرجيحة على سوء مغبة من يتصف بالكذب وقبح حال من أكل لحم أخيه ميتاً او شهد شهادة الزور الى آخر ما في الباب من تلكم الاذيال الذميمة والخصال السخيفة التي لا تقوم عليها مصالح البشر الحقيقية البتة ولا تضر الغير بمقدار ما تضر أصحابها في الهيئة فضلاً عما يترصد المتصف بها من العقاب الشديد يوم ينفع الصادقين صدقهم

العدالة ـ هى التقسط اللازم للاستواء في جميع الفعال وكل الشؤون واستعمال الامور في مواضعها وبأوقاتها وفي وجوهها وحقوقها وقد مضى شيء كثير مما يتعلق بها في أدب المعاملات وغيره وأدب الحكومة ، أما الظلم والجور ذلك الذي يضاد العدل ويخرب البيوت والممالك ويفسد كل الاعمال فهو خروج المرء عن العدالة المطلوبة في جميع الامور كأخذ الاموال من غير وجهها الحلال والمطالبة بما ليس له فيه حق

ووضع الاشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ولا على القدر الذي يجب والوجه الذي يجب كالسرف والتبذير وتطفيف الكيل وتخسيره ونحو ذلك

العفة ـ وما أحلى اسمها وأجل خلقها واعم نفعها في ضبط النفس دون الاسترسال في الشهوات ووزنها بميزان العقل والحكمة وقصرها على الامور الحلال وهو الامر المطلوب انسانياً لصلاح حال البشر وجمعياتهم صحياً لتقدمهم وسلامة أبدانهم ونفوسهم وعدم اضاعة أموالهم ولتحصل بالوزان الشرعي الانساني أمور التناسل والتكاثر على مقتضى مبادئها الانسانية الحقة بعكس حال نقيض هذه الخلة من الفجور والانهماك في الشهوات والشرور وارتكاب الموبقات وشرب الخمور والفحش تلك المفاسد والشرور الهادمة للبنية الانسانية المقوضة لدعائم الهيئات المحطة بشرف النفس الآدمية المردية بقواها العاقلة والادبية ، والآثار والاخبار في مدح العفة وما تحتها من الخلال الحميدة وذم الفجور والفسوق اكثر من ان تحصى وما اقبح من ان يصير المرء الحر عبداً بارادته وأسيراً لشهواته التي تجره الى اختلال

أمره والانتهاء بتلاشي شأنه « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون »

علو الهمة - خلة من أجل الخلال الانسانية الخصيصة بالانسان والحرية بكماله العقلي وشرف ارادته التي يجب ان تحرر من اسر الاهواء والسفاسف ويتحرى بها اعالي الامور في جميع الشؤون دون حقيرها ودنيئها الدال على خساسة الشأن وغباوة النفس وجهلها وصغر الهمم وانحطاط العزائم الامر الذي تسفل معه كل الاعمال والافعال ، وعلو الهمة وكبرها حال بين « التفنج وصغر الهمة » فالتفنج تطلع الانسان لما لا يستحقه ولا هو كفؤ له وهو البذخ وصغر الهمة ترك ما يستحقه وهو الدناءة وكلاهما مذموم على انه قد قيل (المرء حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت وان قصر بها اتضعت) فيجدر بكل امرئ ان يجتهد ولا يصغر همته او يحط بنفسه قال الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه (لا تصغر من همتك فاني لم أر اقعد بالرجل من سقوط همته) وهذا انما ينال بالجد والاجتهاد والترفع والتصون وتحرى أحسن الاحوال من غير ما صلف ولا تفنج في الشؤون علماً وعملاً ولله ما اجمل ما قال الشاعر

فقل لمرجى معالى الامور بغير اجتهاد رجوت المحالا

أما صغر الهمة والدعة في متحري الاحوال كلها فموجب للانحطاط والخسار ولذلك قيل ما لزم احد الدعة الاذل، وحب الهوينا يكسب الذل وحب الكفاية مفتاح العجز» وقال الشاعر:

اذا ما الفتى لم يبغ الا لباسه ومطعمه فالخير عنه بعيد

غير أنه لما كان التوسط في كل الامور من أهم شروط الحكمة والتوسط في كل الاحوال من اكمل الادب الانساني فلهذا يجب على كل عاقل ان يتوسط في أمره ولا ينزل نفسه الا منزلتها ويتدرج في شأنه بالحق والاعتدال تدرجا فلا تبلغ به محبة التفاني في التعالي الى درجة « التفنج » المذموم ولا يحط بنفسه وهمته وعزيمته الى درجة الحقارة والاخلاد الى أرض المهانة وما الحكمة الا بين الاطراف وخير الامور أوساطها كما جاء في الحديث الشريف.

القناعة النفسية من أجمل الخلال وأحسنها وليس معناها الاخلاد الى أرض الدعة والكسل والخمول والتنكب عن السعي والعمل بالجد في تحصيل الارزاق والمكاسب بهمة ونشاط وعزيمة صادقة ضمن دائرة الشرع فيما لم يحرم من

الاعمال والمساعي كما تقدم القول فيه في باب أدب العمل بل المراد بها تلك الصفة التي تلازم النفوس الكريمة والهمم العالية المتأدبة بأدب الاسلام فترضى في نفسها بالحاصل لديها في الوقت والحال ولا تظهر التألم والتمني والشره بل تتناول ما تسمى اليه بالحق وما تحصله منه بالقدر المحبوب الممدوح فهذه القناعة هي ولا ريب التي عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم « القناعة كنز لا يفنى » وهي بهذا الحال من أفيد ما يتحلى به الانسان ومن خير ما ترتاح اليه النفس ناهيك وان الطمع والشره من أضر ما يضر بالمرء لانه يفتح عليه باب الشر ومداخله الكثيرة والوقوع في الحرام في باب الكسب لفرط الطمع والجشع ولله ما أحسن القصد والاعتدال وبعبارة اخرى ما أجمل القناعة ذلك الكنز الذي لا يفنى .

كتمان السر — خلق ممدوح وهو يدخل في باب أداء الامانة والوفاء ، فاذا ما أتمنك انسان على سر يلقيه اليك أو حدثك حديثاً يجب اخفاؤه فلا تكن سفلاً سفيها بازاعته خائناً بافشائه نا كثاً عهد الامانة فيه ولقد قيل في مدح من يكتم أسرار أصحابه واخوانه

ويكاتم الاسرار حتى أنه ليصونها عن ان تمر بباله

وشر الناس اولئك الذين لا خلاق لهم من الثرثارين الذين يستنزلون الناس اسرارهم حتى إذا ما استفرغوا ما في بطونهم من شكاء وبرحاء وامور هامة ازاعوها عنهم للتشنيع بهم والحط من أقدارهم أو لمقاصد خبيثة يطوونها وهؤلاء هم شر بني آدم وهذا الخلق من أردأ الاخلاق وأحطها وأشأم الخصال وأخسها فالمرء الحر الشمائل الحسن الآداب يجدر به ان يكتم سر أخيه فيما يحط به أو يضر بشأنه ولا يفشي عليه ما يكره من شكوى أو بلوى يبثها اياه ليفرج همه وكربه ولله ما ألطف وأرق هذه الحكمة التي قالها امرؤ عاقل لصديق له حين قال له « أريد أن أفشي لك سراً تحفظه عليّ » فأجابه الصديق الحكيم على الفور « لا أريد ان اربك قلبي بجواك واجعل صدري خزانة شكواك فيقلقني ما أقلقك ويؤرقني ما أرقك فتبيت بافشائه مستريحا وبيت قلبي بجره جريحا .

وافشاء السر حرام لانه أمانة قال الحسن رضي الله تعالى عنه « من الخيانة ان تحدث بسر أخيك »

المحبة والمودة — وهي احدى أسباب نظام العالم العلوي

والسفلي ولو وجدت المحبة بين الناس كلهم على حقيقتها لاستغنى عن العدالة ولذلك قيل العدالة خليفة المحبة ، على ان هذه المحبة والمودة مما يجب بمقتضى أدب الاسلام أن يتخلق بها الناس بين بعضهم والبعض من الاهل والاقارب وأبناء الهيئة وعموم بني الجنس ولقد مضى عنها شيء في أدب المعاشرة وهي مفيدة جداً في أدب النفس واستشعارها باخلاص بالنسبة الى أدب السلوك الاجتماعي ووسائلها كثيرة وقد جمعها الله في قوله تعالى « أدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » فمن عامل الناس بمروءة وشهامة وتسامح وتجاوز أحبوه وفاز بينهم بانجح المقاصد واجل الارب أما العداوة والتباغض والتحاسد والتدابر بين الناس فليس من شر يفوقها في جر المصائب والويلات فيما بينهم وفي الآداب الاسلامية آثار جليلة في المعنى للترغيب في توطيد دعائم هذه الخلة الاجتماعية الجميلة مما يغني عن الاطالة وسيأتي في أدب النفس مع الخالق ذكر حب الله .

المنافسة — وهي التقليد والتشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي الى درجة أعلى وهو أمر مفيد

إذا كان فيما يتعلق بالخيرات الاجتماعية والامور الجليلة الانسانية كما قال الشاعر

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنّ التشبه بالرجال فلاح

وهذا الخلق يوجد في الصغار اكثر مما يوجد في الكبار لحكمة انتظام أمور الخلق ولهذا يتحتم على كل امرئ أن يظهر باحسن المظاهر المؤثرة في منافسيه حساً ومعنى من غير ما كبر ولا عجب وما اكثر ما تفسد أحوال الذراري من القدوة السيئة الفاسدة في الآداب العامة والاخلاق الشائعة في كل الشؤون المحدقة بهم وتسرق أخلاقهم منه. ويلحق بهذا الخلق اذا كانت النفوس حسنة التربية إما «الغبطة» أي تمنى ان يرى الانسان نفسه بمثل حال المغبوط دون ميل الى تمنى زوال نعمته واما «الحسد» اذا كانت النفس خسيسة فاسدة التربية والحسد هو ذلك الخلق الذي لا يسود صاحبه والذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما جاء في الحديث الشريف فالحسود لا ينجح أبداً في أموره لتمنيه المكروه للغير والعمل لاعدام نعمته أو الحط من فضله وهو خلق سافل رديء ياله من خصلة في المنافسة ذميمة قبيحة ضارة بصاحبها أيما ضرر قال بعض الحكماء

(الحسد داء الجسد) وقال الاحنف بن قيس (لا راحة لحسود) ومن بليغ ما قالوا في هذه الرذيلة الاجتماعية (الحسد يبدي نقص الحسود ويدل على كمال المحسود وكفى بالانتقام منه ان يتقطع حسرة وهو مع لؤم طباعه وخساسة نفسه واتضاعه ينبه على فضل غيره ويظهر ما خفي من خيره) وفي ذلك يقول الطائي :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

الوفاء ـ خلة مدحها الله تعالى (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) ـ (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) وعرفوا الوفاء بأنه الصبر على ما يبذله الانسان من نفسه ويرهن به لسانه. وخلق الوفاء خلق محمود ينتفع به كل الناس في مصالح هذا العالم وتنتظم به أمورهم فمن عرف به كان مقبولا موثوقاً به ناجحاً في جميع أعماله ويقابل هذه الخلة من الرذائل (الغدر) لانه الرجوع عما يبذله المرء ويضمن الوفاء به من نفسه وما أشأم الغدر والنكث والتنكب والخيانة على بني آدم لان من يشتهر في الهيئة الاجتماعية بها لم يركن اليه البتة ولا يثق بعهده ووعده انسان فتضطرب حاله وتهوش عليه أموره ويعيش في حال

من المذلة زرية وأمر من الصغار واحتقار الشأن شائن جزاء خيانته وخبث نفسه وطويته

الوقار - وهو الامساك عن الفضول في الكلام والعبث وكثرة الاشارة والحركة خفة ونزقاً فيما يستغنى عن التحرك فيه وقلة الغضب والاصغاء عند الاستفهام والتوقف عن الجواب والتحفظ عند السرعة والمبادرة في جميع الامور . وهذا الخلق من أفيد الآداب النفسية في السلوك في الهيئة الاجتماعية ويدخل فيه (الحياء) والحياء كما في الحديث شعبة من الايمان وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام الفاحش والامر الفاحش حشمة وتحشما . ويقابل هذه الخلة من الرذائل الخرق وقلة الحياء والوقاحة وهي الجرأة في الكلام بلا احتشام ولا تحفظ وكثرة الحركات والاشارات وشدة الضحك المميت للقلوب والاتيان بالهزل والهذيان الذي استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعوذ بك من الهزل والهذيان) واكثر ما توجد هذه الخصال الذميمة في أبناء السوقة وأرباب السخف والمجون وأهل الدعارة من غوغاء المدن خصوصاً ولكنه على كل حال أمر شائن دال على سخافة العقول وبعبارة أخرى على

استحكام الجهل والغباوة وفساد الاخلاق في تلك النفوس وقلة مادتها الادبية

*
* *

تلك هي جملة الاخلاق الفاضلة التي يجب ان يتخلق بها المرء بموجب أدب النفس مع الخلق في الاسلام وكلها داخلة في باب المروءة والاذواق السليمة ويجمعها اسم (الحكمة) على أوسع معانيها التي قال الله تعالى فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وكلها وما يتفرع عنها قد نبه عليه في حكمة القرآن وآداب السنة المطهرة النبوية . تنبيه حث عليها وتنبيه نهى وتحريم فيما يضادها ولقد تقدمت الاشارة الى شؤم الذنوب والرذائل والقصاص والوعيد عليها ناهيك أن الرذائل في جملتها وتفصيلها مفسدة لشأن الانسان في حد ذاته وعمله كله وهى تتعدى اى تتناول افساد حال الهيئة الاجتماعية فمن اجل ذلك كله من شرها أوجدت القصاصات في الشرائع بأجمعها لاقامة قسطاس العدل بين الانام لما ينقصهم من آداب النفوس المؤسس عليه أدب الجوارح لان امثال هاته الفضائل وان لزمت بل وجب دينياً وأدبياً على كل انسان تحريها في نفسه

وفي أهله وولده غير أن مما لا خلاف فيه انها قلما تجتمع في انسان على التمام وان وجدت جملة في مجموع الامة كذلك ما يسمى رذائل من نقيض هاته الفضائل فان شيوعها هو كذلك ويستحيل ان تجد انساناً فيه عيوب الا وتجد الى جانبها فضيلة او اكثر قد تستحسن منه وتستظرف فيه غير أنه لاينبغي مع ذلك المرء العاقل ان يقصر من همته ويتخذ ذلك حجة بل يجب اسلامياً لما جاء في الآية الشريفة (فاستبقوا الخيرات) ان يجد ويجتهد ليحصل الفضائل الرئيسة ويتحلى بالخلال الشريفة وان يتجنب الرذائل الشائنة الحسية والمعنوية لان ذلك انما هو الوسيلة العظمى الى نوال السعادة في الحياتين ومفتاح للنجاح والفلاح فى كل الاحوال والاعمال (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) والدين كما قيل فى الاثر الشريف المعاملة معاملة الناس بأحسن الاخلاق واكرم الآداب الاجتماعية ومن لم يجاهد نفسه ليتصف قلباً وقالباً بالمحامد الاجتماعية والممادح الادبية فى الهيئة والقيام بكل الواجبات المفروضة على افرادها فى سائر الشؤون والتزام الادب النفسي فى كل انواع السلوك فهذا قل ان ينال تلك السعادة على التمام بل كان بالشقاء أحرى

وباسم المقصر فى حق نفسه وحق أبناء هيئته أولى ولحقته اذا
غلبت شروره فضائله الاضرار والقصاصات المنصوبة للردع
والقائمة للزجر وتقويم معوج الانفس والاعمال وتلك السعادة
المطلوبة لن تنال بالراحة فى هذه الدار بل الراحة فى التعب
والنصب واللذة فى مجاهدة النفس على الدوام لتحصيل الفضائل
والمعارف وابتناء المنزلة فى القلوب وعند الرب تعالى بالاعمال
الصالحة فى الهيئة الموجبة لسلامتها سواء قام بها الافراد أو تضافرت
عليها ايدي الجماعات تحرياً لاستقامة أمورهم كلها فى هيئتهم
نزوعاً الى الرقيّ والكمال الانساني الذى ينساق فيه الانسان
بطبيعة العمران وما الشرور والرذائل الا معوقات فى سبيله
مقوضات لأركانه فهي من قبيل الامراض التي قد يمكن تلافيها
او هي بعبارة أخرى كتلكم الحشائش التي تلتف حول
اصول الاشجار والنبات الطيب من اصل الفطرة فتعكسها
وتوقف نموها وتمتص غذاءها ولهذا وجب على كل امرئ
مجاهدة نفسه التي بين جنبيه على استعمال أحسن ما فيها
واستئصال ما قد ينبت الى جنب ذلك من ردىء حشائش
الرذائل خصوصاً ما قد تريه اياه غوايات النفوس انه من اكمل

الحظوظ وانواع اللذات والسعادات وليس هو عند التمحيص الدقيق منها فى شيء بل ربما كان من شر جالبات الشقاء والتعاسة والقيام بهذا كله يدخل في ذلك الامر المحبوب المطلوب سواء فى آدابنا الاسلامية او فى آداب غيرنا من تزكية النفس وترقيتها مما لا فلاح ولا نجاح البتة الا به

فرياضة النفس بموجب كل الآداب القديمة والحديثة اذن واجبة وهذه الرياضة او المجاهدة العملية تكون بتهذيب النفس اى تعويدها الفضائل الاجتماعية والاعتدال واستخدام العقل الرشيد فى كل الشؤون الحيوية واجتناب الرذائل والافراطات فى تلكم الاحوال ولا يستثقلن احد ذلك بل لا يعذر فى تركه ذو أدب اسلامي والقرآن المجيد امامه والسنة النبوية بين يديه وكل ماتقرر بواسطتهما من النظامات الاجتماعية والآداب الصحيحة فيه يسر وتيسير من حيث سد حاجات النفوس وتطلعات القلوب بما فيه مندوحة للاخذ بالحلال الصرف وتجنب الحرام المنهى عنه (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقد امرنا بالاخذ بأحسن الاشياء الحسية والمعنوية وامرنا بان نؤدب نفوسنا وتجنب الفواحش من الرذائل

ما ظهر منها وما بطن وان نحسن المعاملة والسلوك مع الخلق وجعل هذا كله مفتاح النجاح والفلاح بل قطب رحى السلامة فى الدنيا ونيل السعادة فى الآخرة

ولقائل ان يقول ان الاخلاق لا يمكن تغييرها لانها الخلقة الباطنة أو صورة النفس أو ترشيحها من الطبع الآدمي فهي كالخلقة الظاهرة من حيث ان هذا جميل الصورة بهي الطلعة وذاك دميم الصورة قبيح المنظر ، وذاك طويل القامة وذاك ضعيف البنيـة فكيف يطمع في تغيير ما يظهر أنه من متممات الطبيعة البشرية لانتظامها به حساً ومعنى ناهيـك ان للبيئات حكمها طبيعياً ومعنوياً خصوصاً إذا كانت تلك البيئات الادبية كثيرة الشرور والفساد وهي باطراد الاحوال مطردة الفساد والافساد في الاخلاق بالتلقيح والعدوى من القـدوة السيئة بالطباع السوء التي يقول فيها الشاعر

اذا كان الطباع طباع سوء ... فلا ادب يفيد ولا اديب

على ان هـذا كله قول ضعيف لانه لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير والله تعـالى يقول (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسـهم) لبطل شأن الوعظ والتأديب الشرعي ،

وكيف ينكر قبول التغيير بخلق الانسان صاحب الاستعداد الفطري العظيم والقابلية الكبيرة مع أن الحيوان الاعجم قد يتغير خلقه بالتهذيب والتدريب ، فالبازي ينقل من الاستيحاش الى الانس والكلب من الشره الى التأدب والامساك والتخلية (كما هو مشاهد في كلاب الصيد) والفرس قد تنقل من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير في الاخلاق أخلاق هذا الحيوان الاعجم الغريزية فكيف بالانسان سلطان المخلوقات وصاحب العقل الرشيد ؟ لا ريب أنه أولى وأحرى بان تقبل أخلاقه التغيير وتسلس طباعه لا سيما والنهج ميسر له والطريق طريق الخير مفتوح الباب اسلامياً واجتماعيا لديه وهو بمقتضى سير العالم لو حاد عنه الى ما يسفل بشأنه دون التمسك بما يرقى أمره ويعلي قدره كان ولا ريب الساعي الى حتفه بظلفه إذ العالم في جهاد مستمر فاليقظ الآخذ باسباب الكمال والفلاح هو الناجح الظاهر والمخلد الى أرض الخساسة في الاعمال والسفالة في الاخلاق هو الخاسر ، فهل الاسلام يأمر بذلك ؟ هل يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء

والمنكر وكل الاخلاق الذميمة وينجح أهله إلا باتباع ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ؟

فمن تمام النعمة علينا في أدبنا الاسلامى أن أرشدنا الله تعالى الى كل خير أصلي يصلح لكل زمان ومكان كما أمرنا ان نمسك بذلك تمسك فعل في كل ادوار الحياة مما يدل على قبول الاخلاق للتغيير وأن نفوسنا قابلة لأن نضعها حيث أمرنا حتى نصلح لهدايته وفيوضاته القدسية (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ولتمام الابداع في الصنع لم يعط الانسان هذا الخلق بادئ بدء تاما كاملاً و بعبارة اخرى غير قابل للتغيير والتبديل بل الاعضاء الباطنه أو الحواس النفسانية من الادراك والعقل و إن كانت كالاعضاء الظاهرة من حيث أنها تبتدئ تمو شيئاً فشيئاً حتى تشتد مع الزمان إلا أنه قد جعل لها فوق ذلك تلك الاستعدادات العظيمة والقابلية الكريمة والاختيار والارادة للتكليف بها والتحوير وتصحيح المبادئ بفضل ما وهب من العقل وقوة الادراك والبصيرة وحسن الاذواق وقبول الهدايات الربانية والفيوضات الوجدانية التي يجب أن تربى وتوقف على المبادئ والمعلومات وهي لها بعد ذلك شأنها من

قوة الحكم واستخراج صحيح النتائج من فاسدها ولكلٍ أصلٌ في مستمد ادبنا من الكتاب والسنة السمحاء

وإذ كان الخير والشر أو بعبارة أخرى الفضائل الانسانية والرذائل الاجتماعية قد بين حالها بياناً شافياً في مبادىء الادب الاسلامى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسنوا أخلاقكم » وقال « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » فقد ظهر لنا من هذا كما ظهر لنا مما سبق أيضاً في الآية أن ذلك مطلوب من كل أحد كالعلم الذي طلبه فرض عين على كل مسلم وكالقرآن المأمور العمل بهدايته لا ان نتلوه فقط لمجرد التبرك بتلاوته أو الترنم بالفاظه وكل هذا يرجع علما وعملا الى تلك الغاية السامية من تزكية النفوس وتطهير الاعراق فكيف يدعي مدع بعد هذا كله أن الطباع لا تقبل التغيير وهي مأمورة به ومكلفة وقد ركبت في الانسان كما سبق بكيفية قابلة له ولولا ذلك لما تحول جيل العرب في صدر الاسلام بهداية القرآن من الخشونة والشراسة في العادات والاخلاق اخلاق الجاهلية الاولى الى تلكم الاخلاق الاسلامية الجديدة السامية (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ناهيك ان الاخلاق

الاجتماعية الفاضلة المأمور بهـا وأتيت على الكثير منها آنفا
ليس فيها خلق الا وله فوائد ومزايا جليلة في انالة النفوس النجاح
والفلاح في هذا العالم عالم التكاليف كما تقدم وأن لا شر ولا ضر
ولا تقهقر ولا اتضاع الا باتباع اضـدادها وغشيان الذنوب
وقد تقدم عن ابن قيم الجوزية بيان ما يلحق المرء من آثارها
فيجب مجاهدة النفس وتدريبها وتعويدها دائما الخيرات الاجتماعية
والنفسية وتحليتهـا بالآداب والكمالات وأن صعب الامر
واستعصى الحال للاسباب الكثيرة المحدقة بالانسان مما يجعل
الهمم متفاوته والتفاضل في العزائم والارادات ظاهرا وكلما
كانت التربية متأصلة منذ الصغر والقدوة العملية في البيئة حسنة
وجميلة كان الامر في اكتساب الفضائل أقوى وأرسخ وأظهر
في الكبر على قدر ذلك من المجاهدة مجاهدة النفوس للمؤثرات
ومقاومة الغوايات النفسانية على ان النفس لما قد ركب فيها من
قوى الشهوة والغضب قد تكون كالدابة الجموح اللازم لهـا
الترويض والتأديب حتى تكف عن الهوى وتنقاد الى العقل
بزمام والا صار الانسان عبداً للهوى وبعبارة اخرى أسير شهواته
البهيمية ونزعاته الشيطانية فانسلخ عن انسانيتـه وحرم شرف

الاتصاف بجميل أخلاقها بين بني هيئته فتزل قدمه بعد ثبوتها في جميع أفعاله ولا يعود ينجح في سائر مساعيه مصداقاً للآية الشريفة « قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » والآثار في الباب باب تأديب النفس وتهذيبها لجلب السرور اليها ودفع الشرور عنها والمخاوف مما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد الاكبر لهذا الغرض الشريف فضلا عن الغرض الديني الكريم كثيرة فالزم أيها المسلم العصري الفضائل واجتنب في سائر أحوالك الرذائل تحظ بالسعادة الابدية والكمال الانساني الاسلامي ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم أخلاقا » ويقول الشاعر « هي النفس ما عودتها تتعود »



﴿ القسم الثاني ﴾

(ادب النفس مع الخالق)

الادب مع الله تعالى — املاء القلوب من عظمة الله — الاسلام والايمان حال النفس المستكملة المطمئنة — التقوى جماع الخير — الاخلاص وصدق النية — تعريف النية — الاخلاص الحق — المحبة لله تعالى — مقامات وأحوال النفس الاخرى — الرجاء والخوف — محاسبة النفس ومراقبتها — التوبة — الصبر — الشكر — التوكل — الزهد — التفكر .

« مثل الايمان كمثل بلدة لها خمسة من الحصون الاول »
« من ذهب والثاني من فضة والثالث من حديد والرابع من »
« آجر والخامس من لبن فما دام أهل الحصن متعاهدين الذي »
« هو من لبن لا يطمع العدو في الثاني فاذا أهملوا ذلك طمع »
« في الحصن الثاني ثم في الثالث حتى تخرب الحصون كلها »
« فكذلك الايمان في خمسة من الحصون أولها اليقين ثم »
« اداء الفرائض ثم اتمام السنن ثم حفظ الآداب فما دام العبد »
« يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطمع فيه فاذا ترك »
« الادب طمع الشيطان فى السنن ثم في الفرائض ثم في »
« الاخلاص ثم فى اليقين فينبغى الانسان أن يحفظ الآداب »

« في جميع اموره » (الشيخ عبد القادر الجيلاني)

في كل شيء اذا ضيعته عوض وليس في الله ان ضيعت من عوض

لقد تقدم في اول هذا الكتاب ما يجب على المسلم من ادب الاعتقاد مع الله تعالى وتنزيهه وتقديسه والقيام بعبادته لانه سبحانه وتعالى خالقنا ورازقنا ومعيننا ومثيبنا ومجازينا على اعمالنا وافعالنا جزاء كريماً السيئة بمثلها والحسنة بعشر امثالها كما هو صريح مدلول القرآن والسنة وانه تعالى تفرد في علاه موصوف بالكمال المطلق واتقان الصنع وابداع التدبير لخلقه بما لا يمكن أن يقف على كنهه عقل مخلوق على التمام ، وانه تعالى له في خلقه التصاريف بما شاء وكيف شاء ولا يحيط بحكمته أحد ولا يقدر ان يحصى نعمه المتواصلة وامداداته المتوالية انسان لهذا كله كما لزم القيام بحق عبادته وتقديسه وجب اشعار النفوس الادب بحقه بالاخلاص له والحب والتقوى والخوف منه لانه تعالى الفعّال بالحق لما يريد وهو أحكم الحاكمين وارحم الراحمين سبحانه جل شأنه

ولقد مضى القول كما سلف في الاعتقادات والعبادات في أول هذا الكتاب بالايجاز والاختصار فبقى أن أشرح ما هو

لازم من الادب والتأدب النفسى الخالص مع الخالق العظيم مسدينا أجل النعم ظاهرها وباطنها مما لا يمكن حصره ولا عده كما قال تعالى في القرآن المجيد (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ولا غرو فاستصحاب هذا الادب في النفس البشرية واملاء القلوب من عظمته تعالى خشية ورهبة وحباً وأملاً كريماً وتقديساً وتنزيهاً واخلاصاً هو عين العبادة بل هو عين الايمان وتمام السعادة فى الاسلام وكل الآيات والاحاديث ناطقة بذلك شاهدة عليه مبينة ان عمل الجوارح والاعتقاد باللسان لا يتم به اسلام المرء وايمانه الا اذا صحبه عمل الوجدان الانساني من استشعار الضمير واتصافه الذى عنه ينبعث باعث الرغبة للقيام بشوق وعزيمة صحيحة لتجويد عمل الجوارح ومراعاة روحها ولهذا فُرِّق بين الاسلام والايمان (وقالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وترى شرح هذا مطولا في كتب الاسلام المعتبرة كالتفاسير القرآنية وشروح كتب السنة كشرح مسند مسلم للامام النووى وشروح البخارى وغيره

فالايمان عمل القلب، عمل الضمير، والاسلام وان عم

هذا ضمنا لكنه يشمل عمل الظاهر والايمان خصيص بالباطن
كما فسروا به تلك الآية النازلة بحق الاعراب ، والاسلام
الشامل والايمان الكامل مصدر كل خير وسعادة حقيقية
للانسان تستطاب بها كل أعمال الجوارح في الاعتقادات
والعبادات وكل المعاملات وترتاح لها النفوس بما لا يمكن ان
يتصور في أى سعادة أو لذة أخرى نفسانية ، بل هي لذة فوق
كل لذة ، وشعور سام يعلو كل شعور بما لا يمكن لاى
امرئ أن يصور شأنه أو يكيف حاله واستطابة نفسه به ،
ولا عجب فللايمان كما فى الحديث الشريف حلاوة وللتقوى
كرامة وحباً عند الله جماً و إذا أحب الله عبداً كان كما جاء في
الحديث الشريف بصره الذى يبصر به وسمعه الذى يسمع به.
وتلك هى صفة أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون
بالمعنى الحقيقى لا بالمعنى الذى يرمى اليه جهلة المتصوفة وغلاتهم.

وهذا الحال للنفس المستكملة أدبها الباطنى بحق الله تعالى
وقبولها للفيوضات الآلهية واستشعارها الرحمات الصمدانية
أمر دقيق ومقام عظيم وقد أطال فيه القول علماء الاسلام

الروحيون وفلاسفة الاخلاق الصوفيون [1] كالامام الغزالى والقشيرى والسهروردى ومحي الدين بن العربي وغيرهم مما لا يدخل تحت مقصود هذا الكتاب للغرض الذى قصدت اليه فيه من الايجاز والاختصار والوقوف خصوصاً عندالحدود العامة والقيود الشرعية البحتة المقصودة بالذات في أدب الاسلام باطناً وظاهراً وأعنى بها الفضائل وأنواع الآداب النفسانية الواجب التحلى بها بحق الذات العلية القدسية ، تلك الفضائل والآداب المثمرة بالحقيقة أجل الثمار والفوائد فى كل أعمال الحياة الدنيوية والدينية كالاخلاص والمحبة والشكر والتوبة الى اشباه ذلك مما تجمعه كلمة « التقوى » المطلوبة من الانسان ليحظي بأجل الارب وسعادة الابد لقول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم « جماع كل خير » وحقيقة التقوى التي هي لباب الطاعة التحرز بطاعة الله عن عقوبته وأصل التقوى اتقاء الشرك ثم اتقاء المعاصى والسيئات ثم اتقاء الشبهات ثم ترك الفضلات مع القيام بمهام العبادات وحسن المعاملات ، وهذا ظاهرها

---

(١) الاحياء للغزالى والرسالة للقشيري وعوارف المعارف للسهروردى الخ

من اتقاء الحدود والقيام بالواجبات أما باطن التقوى وروحها فصدق النية والاخلاص ولهذا قال بعضهم « التقوى عمل بطاعة الله على تورع من الله مخافة عقاب الله » وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ليس التقى صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ولكن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير الى خير » وخلاصة القول ان التقوى تلك الصفة التي هي جماع الخيرات يجب ان يتصف بها المرء قبل كل شيء ليصل الى ما بعدها من المقامات قال بعض حكماء السلف الصالح « من كان رأس ماله التقوى كلت الالسن عن وصف ربحه » ويقول الحكيم ابن الوردى في لاميته المشهورة

واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرى الا وصل

هذه هي التقوى وثمرتها أما ما بعدها من المقامات التي تستلزمها وتصاحبها او لا تنال الا بواسطتها فكثيرة انما آتي هاهنا على ما هو الاشهر منها وهى مقامات جليلة ومراتب احوال عالية قد لا يظفر بها كل الناس وان كانت مطلوبة من كل الناس فهي كالاخلاق الفاضلة وكل الآداب النفسانية

السالفة الذكر من حيث عدم تساوى الهمم فيها كاعمال الجوارح التي قد يتساوى الناس في الاتيان بها والقيام بحقوقها لان هذه امور دقيقة وجدانية وتلك رواتب أعمال ظاهرة منتظمة مع ان تلك روح هذه بلا امتراء ، فاذا أتي المرء بعمل الجوارح بلا التفات منه الى عمل الباطن من مثل الورع والخشية وصدق النية والاخلاص والشوق والمحبة لم يَجْنِ من ثمار عمل الظاهر بمقدار ما تشتهى الانفس الكريمة اللوّامة من لذة وسعادة في نفسها ووجدانها بل في كل الاعمال الحيوية المنوطة بها في هذا العالم فضلاً عما تستروح له وتنتظره من أجر وثواب في الآخرة الجامعة لا كمل أنواع السعادات في الجنة دار الخلد والنعيم المقيم التي أعدت للمتقين .

واول تلك المقامات التي سبق أن التقوى تجمعها « الاخلاص » المطلوب في العبادة كما في المعاملة « فادعوا الله مخلصين له الدين » ومبدأ الاخلاص صدق النية إذ العمل يحتاج الى النية والنية تحتاج الى الاخلاص حتى تكون صحيحة، فاذا كان الاخلاص روح النية فالنية الصادقة روح الاعمال ولقد جاء في الحديث الشريف « إنما الاعمال بالنيات وإنما

لكل امرىء ما نوى » وجاء في حديث آخر كاشف لمعنى الاخلاص وحال القلوب في نياتها قال عليه الصلاة والسلام « ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن انما ينظر الى قلوبكم واعمالكم » ولهذا قال احد العلماء « اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوى الخير فأنت بخير » وقال بعض السلف الصالح « رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية » ومن نصائح العالم سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز (اعلم ان عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره) وجملة القول ان عماد الاعمال أية كانت الاخلاص والنية الصادقة من السريرة وهى مفتقرة الى ذلك لتصير به خيراً محضاً على ان النية الصالحة هى في نفسها خير وان تعذر العمل فان ثوابها عند الله باق لاحق بصاحبها كما دلت عليه الآثار ولانها عماد الابتعاد عن الرذائل وعتاد تجنب المساوى والشرور

ولقد عرفوا النية [1] التي جعلوا من مرادفها الارادة والقصد أنها حالة أو صفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل والعلم

(١) الاحياء للغزالى

يسبق العمل لانه شرطه والعمل يتبع العلم لانه ثمرته ، ومن لوازم العمل بعد العلم الارادة والقدرة ، فالعلم يوقف على النافع والضار من الامر وبالارادة يعزم المرء ويختار وبالقدرة يتم العمل على الوجه المطلوب ، فالاعتقاد أو العلم اللاحق بالنفس الراسخ فى الذهن أصل والارادة الباعثة أى القصد تابعة له والقدرة العملية خادمة للنفس في العمل بحكم الرغبة والغرض وهذا الغرض هو المقصد المنوى والانبعاث هو القصد أو النية وانهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء بالاختيار هو العمل .

وهذا الباعث من النية يرجع كما شرحناه الى تمكن الشخص من الاحاطة والعلم وقوة التمييز النفسى المحمول على هداية الله الملقاة في الروع من قوة الاحاطة والادراك والميل الوجدانى الفطرى ثم بالتوقيف على المبادئ الصالحة واضدادها دينياً ودنيويا المثبتة في الشرائع الآلهية والآداب البشرية وبذلك يصح للمرء الحزم والقطع في الاختيار والتفضيل بالنية الصادقة والاعمال الصالحة التي بالتكرار تصير ملكات للنفس وما لم يكن للانسان هذا الحال لا ينبغي ان ينتظر منه صدق النية والعزيمة إذ يكون الانسان كالصبي لا يفرق بين الضار والنافع والغث

والسمين الا بما أفادته بالطبع عادات مجتمعه وربما صرفت النيات فيها والمقاصد والارادات والاعمال التابعة الى ما يضاد روح الادب الديني إما للجهل بمبادئه الحقة أو لانصراف العزائم عنها لخفاء فوائدها وقيام شبه فوائد غيرها من المبادئ مقامها وان كانت ضارة أولا تساوى منافعها منافع تلك المبادئ الدينية النفسانية فلو صدقت النيات أى خلصت المبادئ من غواية الضلالات والسفاسف الشيطانية لما أديت العبادات وأجريت الاعتقادات وسائر الاعمال الدينية مثلا كرسوم وشعائر تقليدية بل لروعى فيها وفي كل الاعمال روحها وآدابها الخفية ولجنى هذا الانسان من وراء هذا في نفسه وفى عمله كله أجل الاحوال واللذات وأسنى السعادات الابدية ولقام له من نفسه بسبب هذا ملكة «الاخلاص» الحق ومقام المخلصين كبير وأمره عند الله خطير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من عبد يخلص العمل لله أربعين يوماً الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ «اخلص العمل يجزك منه القليل» وقال العالم السوسى «الامر كله يرجع الى أصلين فعل منه بك وفعل

منك له فترضى بما فعل بك وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين فزت فى الدارين »

والاخلاص هو الاتيان بالاعمال خالصة لا يشوبها أقل رياء قياماً بواجب حقها سواء في العبادات أو فى سائر الاعمال قاصداً بذلك مراد الله تعالى منها لعباده وتحصيل ثوابه الاخروى عليها ومن يتحلى بهذه الصفة صفة الاخلاص الديني لاجرم يكون بمأمن من تلك الخصال الذميمة من الرياء والخداع أو النفاق لانتفاء هذه الكدورات الشيطانية المفسدة المحبطة للاعمال عنه بحلول الاخلاص القلب وهو المثمر لجميع المحامد والفيوضات الرحمانية على القلب البشري الذى جاء في الحديث أنه مسكن الخالق تعالى اشارة الى ذلك من الاخلاص والتقوى والطهارة النفسية والمحبة والتوكل والثقة بالله تعالى العظيمة النفع .

أما المحبة محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم التي هي فرض عين فثمرتها من أجل ما يتصف به من المقامات في الطاعة والتقوى لان من أحب أخلص الطاعة وأصدق النية في العمل بما يرضى المحبوب . فأصل الاعمال الدينية حب الله

وحب رسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وهـذا منتهى الكرامة في الاسلام وأرفع المقامات ودرجات أهل الايمان .

ومحبة الله للمؤمنين وحبهم له منصوص عنها في الكتاب العزيز « يحبهم ويحبونه » وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من شروط الايمان حب الله وحب رسوله « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » وروح هذا الحب ووسيلته المتابعة متابعة الرسول بالايمان والاعمال والاخلاص فيها كما فى الآية الشريفة (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)

والمحبة أصل من أصول قيام العالم العلوى والسفلى في حركات الافلاك والكواكب ونواميسها من الجاذبية والحركة ونحو ذلك من تفاعلها وتماسها وقيامها بأمر الله وهي أى المحبة بالنظر الى ما نحن بصدده جنس تحته انواع متفاوتة فمنها ما ذكرتُ بحق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وفُسِّرت المتابعة بالطاعة والتقوى والاخلاص والاجلال والتعظيم فهي من أجل وأشرف أنواع المحبة التي هي أصل السعادة

ورأسها والتي لا ينجو احد إلاّ بها ثم لها مقام آخر أعلى واشرف من وصل اليه فقد ملئ قلبه هدى ونورا وشوقاً ورغبة كما قيل

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

وهذا ولا ريب ارفع مقامات الحب واعظمها ، ولهذه المحبة آثار وتوابع ولوازم من الذوق والحلاوة والشوق والانس والقرب فالمحبة كالارادة اصل من اصول الدين واصلها وتوابعها تظهر في الطاعات واجتناب المحرمات ثم يترقى منها الى مقامات أعلى في القرب والاتصال ، وكل فوائد المحبة لله وارباحها عائدة على المرء من رفع الدرجات ونوال أسنى المقامات بحضرة رب الارباب وهناك ولا ريب كمال اللذة والسرور والفرح والحبور لكمال المحبوب وكونه تعالى فوق كل مطلوب ومحبوب .

ولقد أطال الامام حجة الاسلام الغزالى [1] في تحقيق معنى الحب لله متدرجاً في البرهنة عليه على حسب طريقته الفلسفية الدينية بأن الحب بعد ان ينتج عن التصور والادراك يرجع الى خمسة أسباب (١) حب المرء لنفسه (٢) حب من يحسن اليه (٣) حب من يستحق المحبة لجماله (٤) حب من

---

(١) الاحياء للغزالى

يستحق المحبة لكماله (٥) الحب للمناسبة الخفية بين المحب والمحبوب. ثم برهن على انه لانحصار كل صفات الكمال والجمال والاحسان والارتباط بين الخالق والمخلوق في ذاته وصفاته تعالى الظاهرة والباطنة لهذا كان لا يستحق المحبة الحقيقية الا الله جل شأنه ولقد أفاض في الاحياء بهذا الصدد وأستنتج بحق ان محبة الله تعالى ومعرفته والشوق اليه هي أجل اللذات وأكمل السعادات المدركة بالعقل والبصيرة الباطنة كما هي مدركة بالبصر الظاهر لكل ناظر الى جمال عمل الصانع تعالى من هذا العالم وبديع صنعه وعظيم إحكامه مما يجذب القلوب ويدهش الالباب ويطرب النفوس ولله در ذلك الشاعر الحكيم الذي أدهشته عظمة الصانع تعالى فانصرف بكليته الى حبه فقال

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت احسده ... وصرت مولى الورى إذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذكرك يا ديني ودنيائى

ولا يتصور ان العبد يحب الرب فالرب تعالى لا يحبه ما دام هناك الحب والاخلاص وصدق النية وفي الحديث « من تقرّب اليّ شبراً تقربت اليه ذراعاً ومن تقرب اليّ

ذراعاً تقربت اليه باعاً » فالمرء إذا احب الله تعالى حباً خالصاً عاملاً بأمره منتهيا عن نهيه أحبه الله وجزاه على حبه له بالقيام بأمور الطاعات أضعافاً مضاعفة وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة بل كان كما تقدم في الحديث بصره الذى يبصر به وسمعه الذى يسمع به وجعله بالمعنى الحقيقى من أوليائه وأصفيائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهذا منتهى الرضا وتمام السعادة لانه بالحب والاخلاص تنتظم امور المرء العملية التعبدية والتعاملية وبذلك تستقيم لهذا الانسان الاحوال في الهيئة وتصفو له الموارد والمصادر في الحياة الدنيا وينال حسن الثواب في الحياة الآخرة ونعم أجر العاملين

* ٥ *

قلت إن التقوى جماع الخلال الشريفة والأحوال النفيسة المنيفة من صدق النية والاخلاص والمحبة الى آخر ما في الباب وهي ولا شك تنتج تلك الاحوال والمقامات العظيمة من الرجاء والخوف والمراقبة والمحاسبة والشكر والتوكل والزهد والتفكر في سائر أحوال السلوك النفسي بازاء الخالق تعالى وغب التضلع من رحيق القرآن والتأدب بادب السنة النبوية المطهرة ، فهذه

الاحوال مما سآتي عليه الآن هي وسابقتها كلها أحوال ومقامات سامية آخذ بعضها برقاب بعض ولا ينتجها ولا ريب غير رقّ الشعور الديني السامى والايمان الكامل الذي يتطلبها ويستلزمها بالتساوي واحدة واحدة

وشرح هذه الاحوال الذوقية النفسانية العظيمة المتسلسلة المرتبطة هي وسابقتها من النية والاخلاص والمحبة أيما ارتباط كأنها الحلقة المفرغة والتي هي من أهم شروط الاوصاف الدينية وآداب النفوس السامية حيال عظمة الله جل شأنه وعز سلطانه مما يضمن للمرء المتصف بها ولا ريب النجاح والفلاح في كل الشؤون الدنيوية والاخروية ويشرح صدور المؤمنين ويثلج افئدتهم هي ان « الرجاء والخوف » رأس العمل ، والرجاء وصف من أوصاف النفس عند ما تدرك ما وراء الايمان والتقوى والاخلاص والمحبة الى أشباه ذلك من مقامات عظيمة ودرجات عند الله تعالى علية كما هو مدلول الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة فتعمل رامية واثقة بنوال منازل القرب ودرجات الاعزاز والاكرام ونعمت الغاية ونعمت الواسطة الموصلة لها من العمل الصالح حتى قال ابن عطاء الله السكندري

رحمة الله عليه في حكمه المشهورة في تعريف الرجاء الحق « الرجاء ما قارنه عمل والا فهو أمنية »

أما تلك الحال الشائنه من التمني بلا عمل كالذي يقول في مثلها من أمر الدنيا الشاعر :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن إلق دلوك في الدلاء

فلا ثمرة لها البتة ولا هي بذات جدوى وشر منها تلك الحال الزرية من اقتحام الموبقات واقتراف الذنوب ركونا الى عفو الله ونوال مغفرته فهى جهل وحمق وضلال مبين وذنب من الذنوب عظيم لانه جرأة على الله والجزاء كما بينه تعالى من جنس العمل والثمر من نوع البذار ويقول الشاعر

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

ولقد قال الصوفي الكبير معروف الكرخي رضي الله عنه « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق »

فالتمسك بالعمل بالاسباب حسية ومعنوية ينتج السلامة ويقوى الرجاء بعكس حال التمادي في المعاصي غروراً مع الاصرار والتمني ورجاء العفو بلا ندامة على التفريط في جانب الله تعالى ولا

اقلاع وهذا لا ينافي ما جاء في فضل الرجاء رجاء غفران الذنوب الذي هو من حق الله تعالى وحده المطلع على السرائر والذي يخاطب عباده التوّابين الاوّابين بقوله تعالى « ياعبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » فمع وجوب عدم القنوط من رحمة الله وعفوه وغفرانه ووجوب الرجاء وحسن الظن بالله مع هذا كله لابد من التوبة والاقلاع عن المعاصي والذنوب ظاهرها وباطنها وصريح الآية « انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » أما التمني والتمادي في الغرور والشرور بنفوس متصلبة وقلوب متحجرة مصرة على الخطايا فله قسطه من الحساب والعقاب كما أن للنفوس اللوّامة والوجدانات الاوّابة نصيبها من رحمة الله وعظيم غفرانه للخطايا والذنوب « ومن يغفر الذنوب الا الله » بشرط عدم الاصرار والاقلاع عنها بتاتا بتوفيق الله وهدايته وعزيمة النفس وارادتها حتى تستكمل النفس شروط التوبة النصوح خوفا من الله تعالى ومخافة الله كما جاء في الأثر الشريف رأس الحكمة .

وحال هذا الفريق من عظيم أحوال « الخوف » من

الذنوب والخطايا الذي هو في مقابل الرجاء في استقامة احوال الآدميين وحسن سلوكهم الديني والدنيوي لانه لعلم المرء المتأدب بالادب الديني المتصف بالايمان اليقيني بما جعل الله عز وجل في مقابل ارتكاب المعاصي والذنوب والمظالم من العقوبات الشديدة الاخروية والدنيوية فبحسب معرفته بعيوب نفسه وشعور وجدانه بما هو واقع فيه يخاف الله رب العالمين ويتقيه في نفسه فيكون له من ثمّ رادع وزاجر منه اليه عن الاقدام على اقتراف ما يقبح الاتيان به من الافعال القبيحة والاعمال الشائنة فينجو بذلك من عذاب الله ويستقيم له من ثم عوده . على ان حال الخوف ومقامه عند العارفين كبير لان لاحوال التقوى والمحبة لذة من نفوسهم ووقعاً من قلوبهم يجعلهم أبداً في حال من الاحترام والتعظيم والورع والخشية عظيم جداً فهم أبداً يعملون على رجاء كما يعملون على خوف خوفاً من الحرمان من تلك المقامات العالية فيجدر بالمسلم بمقتضى أدب دينه النفسي أن يشعر قلبه مخافة الله تعالى ويتقي كل ما يوجب السخط وغضب الرب تعالى ومن خاف سلم ورأس الحكمة كما تقدم في الحديث مخافة الله تعالى والذي يخاف الله

يلجأ اليه لانه لا مفر منه الا اليه فيعمل بما به أمر و ينتهي عما عنه نهى وزجر ولهذا قال الحكيم أبو القاسم الصوفي « من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب اليه » وهذا اللجاء الى الله تعالى خوفاً من الله يقتضي ولا ريب تزكية النفس بتأديب الجوارح وتطهير البواطن من كل خلق ذميم سواء مع الخالق تعالى أو مع الخلق من ذوى الحقوق عليه فتصير المعاصي والرذائل الخفية والظاهرة حيال هذا الخوف مكروهة ممقوتة مستهجنة مطرودة شياطينها من النفس عند المرء الذي يشعر من نفسه بازاء هاته الشرور والمساوى « انه كالسقيم العارف بدائه فيحتمى مخافة طول السقام » كما قال الحكيم الصوفي المشهور ذو النون المصرى

وهاهنا يأتي دور « المحاسبة والمراقبة » محاسبة النفس ومراقبتها في الاعمال والاحوال التي يجريها المرء أو تتصف بها نفسه لان المرء لما يعلم ان الله تعالى يحيط بكل شيء علماً خافيه كباطنه وفي القرآن « واعلموا ان الله يعلم مافي أنفسكم فاحذروه » والآية الاخرى « ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور » فلهذا يجب على كل امرى عاقل أن يحاسب نفسه ويراقب

ربه حتى ينال السعادة وتكثر حسناته « يوم لا ينفع مال ولا
بنون الا من أتى الله بقلب سليم » « يوم تجد كل نفس
ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها
وبينه أمدا بعيداً » ناهيك أن في هذه المحاسبة وتلك المراقبة
استصلاح حال الدنيا وهو سر تجويد كل الاعمال الاجتماعية
فيها فتنتظم للمرء حال دنياه وتصفو له مواردحياته من الا كدار
والعكورات الذميمة كما تعظم له الحسنات في الآ خرة .

وهذه المحاسبة للنفس انما تكون عادة للعقل المتعلم
المثقف المسيطر عليها لانه لما كان هذا العقل الوهبي منه
والكسبي قد جُعِلَ بفضل الله كالسلطان الوازع الذى يحسن
سياسة ملكه ويتقن تدبير دولته فهو يوظف للنفس الوظائف
المبينة في الشرع والادب النفسى ولا يكتفى بذلك بل لمعرفته
بعظم المسؤولية يراقبها ويحاسبها حساباً دقيقاً اذا هي قصرت
أو أهملت أو خالفت أ وخانت وهذا العمل من العقل الرشيد
له أ سوة بما يجرى من الاعمال الدنيوية فيما بين الخلق و بعضهم
مما هم فيه مسوقون من الارتباطات العملية بل هو لعمرى
أعظم من ذلك فيما يجب أن يكون بين المرء ونفسه لان الفلاح

والنجاح مقرونان بهذا مرتبطان به في كل تلكم الشؤون فلذلك
كان سبب كل خير ومفتاح كل سعادة وهناء فيجب على كل
انسان عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر والحالة هذه أن يقوم
بمحاسبة نفسه التي بين جنبيه والتي هي كما في الحديث الشريف
تحطب عليه ولقد حفت الجنة بالمكاره كما حفت النار بالشهوات
فلا ينبغي للمرء أن يغفل أمر مراقبة نفسه في هذا العالم
ويدقق في مراقبتها ومحاسبتها ومجاهدتها في كل حركاتها
وسكناتها وشهواتها ونزعاتها الاجتماعية اذ كل نَفَسٍ من أنفاس
عمر الانسان جوهرة نفيسة لاعوض لها ويمكن أن يشترى
بها كنزاً من الكنوز لا يتناهي نعيمه فانقضاء هذه الانفاس
ضائعة أو صرفها فيما يوجب الخسران والهلاك لا تسمح به نفس
عاقل فوجب المراقبة والمحاسبة والمعاتبة والزجر والتوبيخ للنفس
على تقصيرها وانزجاجها في المفاسد حتى ترجع عن غيها وتؤوب
الى الصواب والرشاد من قريب لان العمر لا يعلم أجله الا
الله تعالى فاذا أصبح المرء فليشارط نفسه على عمل الخير واذا
أمسى فليحاسبها على ما أتت من عمل ويوبخها على التقصير
والتفريط وليعلم ان عليه من الله رقيباً عتيداً وأنه مجزى بعمله

وانه تعالى شاهد أمره قائم على كل نفس بما كسبت ولقد جاء في الحديث الشريف « أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » شعر

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا ان ما تخفيه عنه يغيب

وهذا الحال حال المحاسبة والمراقبة للنفس يقتضى بالطبع تلك الحال العظيمة من « التوبة » (والله يحب التوابين) مما قد يقترف من الخطايا والذنوب ، ومقام التوبة وتجديدها والاستغفار من الخطايا والدعاء والضراعة الى الله لكشف العيوب ولذنوب والعون على تسديد الاعمال وتجويد الافعال أمر منصوص عليه في القرآن المجيد والسنة النبوية الكريمة (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وانما للتوبة آداب وشروط أهمها اصداق العزيمة واخلاص النية ورد المظالم وغسل الذنوب بماء الندم ودموع الاسف والاشفاق والاستغفار والضراعة الى الله بقلب ملؤه الخشوع والانابة والاستحياء من الله تعالى فيما قد فرط من النفس وبدر من الجوارح والتوبة النصوح تخرج العبد من حال البعد الى حال القرب بل تجعله يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب ، وباعث التوبة بعد هداية الله ان الذنوب حجاب

تحجب القلب وتحرمه حلاوة الايمان الذى يزيد وينقص تبعا لاحوال النفس في تشبثاتها وتحرمه ثمرة الاعمال وحبوطها فاذا كان الوجدان ممن ذاق لذة الشعور والاحساس بواسطة ماهو حاصل لديه من قوة الايمان والمعارف الذوقيه المكتسبة تألم لوقوع الذنب واقتراف الخطيئة فحصل الندم وكثر التوبيخ الوجدانى للنفس بقدر معرفته وحكمه على الاشياء وسموم المعاصي واحباطها للاعمال فيسرع من ثم الى التوبة ويبادر بها من قريب وهذا كله داخل فيما عرفنا الله عنه بقوله تعالى «وليست التوبة للذين يعملون السيئآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» (انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فالتوبة التي أوجبها الله على عباده ويحبها منهم ويحبهم من أجلها هي التوبة التي تكون عن ارادة وعزيمة هي تلك التوبة النصوح التي لا يعود المرء بعدها الى ما اقترف من الآثام ثانية لان العود اليها من أقبح أنواع الذنب والجرأة على الله والتعرض لكبير سخطه قال يحي بن معاذ الرازى « زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها » فالتوبة النصوح كما قال الاستاذ أبو بكر

الواسطى رحمه الله « أن لا يبقى أثر من آثار المعصية سراً وجهراً » وقال ذوالنون المصري ذلك الصوفي الكبير «الاستغفار من غير اقلاع توبة الكذابين » على ان من يمتلك قلوبهم نور الايمان وتملأ أفئدتهم أضواء التقوى على أشرف أحوالها مدركين لذلك المبدأ الذى يرتكز على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ترك الخطيئة أهون من طلب التوبة فاغتنم غفلة المنيـة » قد يكون لهم من ذلك أعظم درع وحرز حريز يقيهم شر الوقوع في كبائر الذنوب وصغائرها وانما لما يعرض عادة للنفس البشرية في هذا العالم من العوارض لزم أخذ الحيطة ولزم اشعار النفس دائما بالتوبة والاستغفار مصداقا للآية الشريفة (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ولقد جاء في الحديث عن سيد المعصومين من رسل الله قال (انه ليغان على قلبي واني لأستغفرن الله في اليوم سبعين مرة) وليس في هذا الا زيادة قرب من الله وهداية في سبيله وتمسك بالخير ونفض الايدى من الشر والغفلة حتى تستيقظ النفس دائماً الى تجنب الشر خوفاً منه مهما صغر وحقر والمحاسبة والمراقبة على ما يفرط منها والقيام بادراع هذا الدرع النفساني المنيع من التوبة

والتحرز من الاحوال الكبيرة التي تطرأ على القلوب والنفوس من مجريات الاحوال الاجتماعية التي قد تصادف الانسان أو هي في الواقع من ملازمات العمران البشرى والندم عليها حتى لا تعود النفس الى مثلها أبداً وتعتاد من ثمّ الكمال النفسي ازاء حكم الوجدان الشريف والشرع المنيف وهذا البحث طويل قد وفاه الامام الغزالى حقه في الاحياء وصاحب غنية الطالب الشيخ عبد القادر الجيلاني فى كتابه المشار اليه آنفا وغيرهما من أجلة أئمة الاخلاق الدينية

أما الصبر ذلك الذى ذكره الله تعالى في محكم التنزيل ومدحه وبشر من يدرع به (واصبر وما صبرك الا بالله) و(بشر الصابرين) (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) الى آخر ما جاء في ذلك من الآيات والحكم فهو من أرفع المقامات في أدب الدين الاسلامي النفسي وهو خصيص بالانسان لتوسطه في خلقته بين الملك المستغنى عنه لكماله والبهيمة التي لا تقدر عليه بارادتها فاذاً قد خُصَّ فضله وفضيلته بالانسان كما خص أجره به وبُشِّر بذلك أيما بشارة فمن صبر وملك نفسه في جميع أحوالها ونزعاتها بعزيمة ثابتة وارادة قوية

وقلب منيب دخل في جملة الصدّيقين والملائكة المطهرين ومن انعكس أمره انخرط في سلك البهائم وباء بالخسران وبعد عن صفة الكمال

والصبر يكون بحفظ الحواس والجوارح عن الاندفاع في الشهوات المنهي عنها وتحمل مشاق الامور التي لا حيلة لدفعها بجنان ثابت وجأش رابط بلا تململ ولا تسخط على الاقدار الجارية من قبل الله تعالى وتصاريفه في خلقه خصوصاً من حيث الارزاق والامراض على ان التزام الصبر والرضا عن الله مع التحايل على دفع الامور بالتي هى أحسن من مثل السعي والتداوى بما أرشد اليه الشرع والعرف الحسن قد ينتج للمرء الخير كل الخير دنيا وأخرى فبالصبر عن الشهوات تنال الدرجات وبالصبر على المكاره توفي الاجور بغير حساب .

ولعظم فضل الصبر دينيا جعل شطر الايمان كما جعل شطره الآخر (الشكر) وهذا الحال أى حال الشكر لله تعالى قد يرى لعين المؤمن المخلص لله انه تعالى حقيق به على كل حال لان نعمه المتواصلة على الانسان قد تكل عن حصرها وشكرها الالسن البليغة وأن له تعالى شأنه حتى في الضراء

عند التمعن وتدقيق الفكر الطافاً خفية وحكما تحار فيها العقول وتقتضى عند ذوى النهى واولى الالباب غاية الحمد وغاية الشكر طلباً للعفو والعافية وتحصيل الاجر في نعمه المتواصلة بالحق علينا ولقد قال الله « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وقال تعالى في زيادة النعم بالشكر عليها « ولئن شكرتم لأزيدنكم» وقال تعالى في جزاء الشاكرين « وسنجزي الشاكرين »

ومقام الشكر ينتظم كل المقامات الدينية والاحوال النفسانية من علم وحال وعمل ، فالعلم بالعلم بأن كل النعم الكونية المتواصلة على الخلق من الانشاء والايجاد واخراج الارزاق والاقوات حتى الهواء والنسيم العليل الذى نستنشقه ثم تنمية الابدان وتقوية العقول وهدايتها الى أحسن الامور الاجتماعية والعلمية وارسال الرسل الى آخر ما في الباب من النعم المتواصلة بما لا يحيط به العد أو يحصره الوصف فكل هذا من جلائل النعم التي يجب شكر الله عليها وحمده والثناء عليه تعالى من أجلها بما هو أهله من المحامد والتنزيه لذاته والتمجيد لاسمه عز وجل فمن ثمَّ يكتسب الحال أى الاتصاف ورسوخ ملكة المبدأ الموجب عند المرء العمل أى القيام بأداء

الشكر الجميل والحمد لله تعالى بالجنان الذي هو مصدره واللسان الذى هو مورده غالباً ، وهذا الحال من الشكر ومقامه الجليل تتفاوت فيه الهمم بحسب اتساع نطاق عقول الخلق وفهمهم للصنع العظيم والتدبير المحكم الذى يتمتعون بنعمه ويرتعون في بحابحه من فضل الله الحكيم العليم الذي يجازى الشكور ويشكر لعباده المؤمنين وتشمل رحمته العالمين ويثيب الحسنة بعشر أمثالها ، فالشكر واجب على كل حال لله تعالى رب العالمين رب القوة والعظمة رب الرحمة والعطف والحنان لانه اذا كان الانسان مهما انحط أدبه وسفلت نفسه قد يشكر الى من يحسن اليه أدنى احسان للقاعدة المشهورة شرعياً وأدبياً من ان شكر المنعم واجب فالرب تعالى مع كل هذه النعم والرحمات والالطاف المتواصلة الصادرة منه تعالى الى خلقه أحرى وأجدر بأن يشكر ويحمد لدي أهل الايمان بانواع الشكر لانه المستحق بما نصب من دلائل عظمته وفيوضاته العميمة لجميع المحامد والثناء والشكر ولذلك جاء في الآية « اشكر لى ولوالديك » ولكن كثيراً من بني آدم للجهالات الغالبة والضلالات اللاحقة ينأى بجانبه ويعرض عن شكر

المولى أو لا يشعره نفسه بالمقدار اللازم كما قيل

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أصرها انى اذاً ليد الكريم لسارق

والشكر للناس فيما يستحقون عليه الشكر والثناء واجب لحق الله تعالى فيـه ولذلك جاء في الأثر الشريف « لم يشكر الله من لم يشكر الناس »

ومن أجـل المقامات واجمل الاحوال النفسانية مقام « التوكل » وقد قال الله تعالى « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » و « من يتوكل على الله فهو حسبه » وهـذا الادب النفساني ككل أحوال النفس الاخرى الواجب التأدب بهـا مع الله تعالى يبنى على علم راسخ بقدرة الله عز وجل العظيمة الغالبـة وجميل صنعه وتدبيره للاشياء كلها بما لا يمكن لعقل انسان ان يستكنه على التمام دقيق الطاف الله وعظيم رحمته وعونه وعنايته بخلقه فترى النفس ان هناك منه تعالى لا من سواه سنداً اقوى وعضداً نصيراً يجب ان يعتمد عليه ويستعان به في كل الاحوال والاعمال والجهادات الحيوية لا على ما يفهمـه بعض جهـلة المتصوفة من الاستغراق في رسوم العبادة وترك العمل والسعي

والانقطاع جملة عن ذلك وترك التداوي من الامراض مثلاً وكذلك تلك الاحوال والاعتقادات الفاسدة من العوام بالنظر الى الاستعانة بالاولياء والصالحين ورمى الحمول عليهم وهم يبرأون الى الله من تلك الضلالات الى أشباه ذلك من أحوالهم الفاسدة فان هذا وذاك كله ليس من التوكل في شيء بل هو من البله والتعنت بالنسبة الى أحوال جهلة هؤلاء المتصوفة ومن شر أنواع الجهل والضلال والجرأة على الله تعالى بالنظر الى أحوال العوام بل هو ضرب من الشرك الخفى وعدم التوكل الحقيق وصرف الوجوه عن غير المعبود الأعظم جل جلاله الذى له وحده التصريف الاعلى ولا شفيع الا من بعد اذنه لمن ارتضى فالمراد بالتوكل على الله إنما هو قيام الناس بتدبير مصالحهم واثقة نفوسهم مع ذلك بمعونة الله لهم في كل أمورهم وحلول بركته تعالى في جميع أعمالهم ومساعيهم وظفر نفوسهم بمبتغياتها الحقة المبنية على المبادئ الصحيحة الشرعية في القيام بكل الاعمال وهذا قد يرشد اليه بالنظر الى ما أنا بصدده الآن من حيث المساعى العملية معنى الحديث الشريف « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح

بطاناً » فان للطير ككل ذى حياة في سعيها على أقواتها وأرزاقها
حركات موزونة وطباع منتظمة تبكر لها بكور الغراب
وتجرى فيها تخيل الرهان ثم تأوى في نهايتها الى أوكارها
واعشاشها ولعمرى ان هذا لهو ألذ وأسعد حال ترتاح اليه
النفوس ويوافق ناموس الله في خلقه مما قد تجد فيه الانفس
الانسانية المتدينة راحتها ومعونة الله حقيقة لها فيها ولذا جاء
في الحديث الشريف للحث والترغيب (بارك الله لأمتي في
بكورها) فالتوكل لا ينافي البتة ملابسة الاسباب التي لا تنكر
وحديث أعقلها وتوكل مشهور مبين لفضل الاسباب غير
قادح في فضل التوكل ولا في معناه الدينى لانه خروج عن
الاسباب في الباطن ورجوع اليها في الظاهر وهذا منتهى
درجة الكمال في التوكل عند أرباب هـذا الكمال الديني
فشواهد الكتاب العزيز كلها ألسنة ناطقة دالة على الاسباب
ثم على مسبب الاسباب فالاتصاف بالتوكل عمل بالاسباب
وركون الى مسبب الاسباب وهذا هو المبدأ الصحيح في
استصحاب التوكل الذى يأمر به الله ويجب اشعار القلب به في
جميع الاعمال والاحوال وان كان ركونا الى الله ذى الطول

والحول وحده ، ولا ريب ان هذا الحال من الاتصاف بالتوكل مثمر لاجل النتائج في كل الامور الحيوية الحسية والمعنوية وهو من الامور الخفية كـكل الآداب النفسانية مع الخالق فيكون القلب معلقاً بالخالق وحده مسبب الاسباب ومعين العباد متوكلا عليه واثقاً تمام الوثوق بعظيم فضله وكبير عونه والجوارح متأدبة بأدب الشرع في التمسك بالاسباب عاملة بها ونعم رأس المال التوكل ونعم ما يجنى من ثماره وفوائده بالاسباب وأرباحه ولقد قال الله تعالى « وفي السماء رزقكم وما توعدون » وقال تعالى « فاسعوا في مناكبها وكلوا من رزقه » وقال تعالى في اثمار القلوب الاطمئنان ومبدأ التوكل « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » والآيات الاخر الصريحة في التوكل وأمثالها لتدلنا صريحاً علي حقيقته المطلوبة له تعالى منا من حيث وضع ثقتنا بفضله وعونه ونصره في كل أمورنا وهو تعالى نعم العون ونعم العضد ثم العمل بالاسباب ليتم أمره في خليقته بحسب ما جعل من سنن لها ونظام مما لا سبيل الي تبديله ولا تغييره

ومن أشرف المقامات الناتجة عن التقوى ومعرفة النفس

بحقارة هذا العالم وحياته الفانية وشعورها بعظم جلائل النعم في الدار الآخرة «الزهد» الذى هو انصراف الرغبة الخفية النفسية عن حظوظ هذا العالم الفانى وملذاته غير الباقية انصرافاً قلبياً بتقصير الامل بالمعنى الصحيح والزهد فيها بما ترى آثاره فى الأحوال العملية بمراعاة البساطة والزهادة في سائر مقامات الحياة وحظوظ النفوس فيها اذ للتفخل والتأنق مساويهما وكراهيتهما في الدين كما أن للزهد والتزهد حكمهما وفضلهما رغبة فيما عند الله من الثواب العظيم والنعيم المقيم وصرفاً للنفس عما يفسد عليها أحوالها الادبية وأعمالها المادية ويباعد بها عن سلوك طريق الآخرة وحسن السلوك فى الدنيا.

والزهد كالتوكل ليس معناه ترك الاسباب أو كل حظوظ النفس في هذا العالم بل قد يكون المرء غنياً وزاهداً قانعاً في وقت واحد كما قد يكون لا غنياً ولا متورعاً زاهداً ولكن حشو قلبه ونفسه الطمع والشره والجشع والغل والحسد وحب السرف والترف في زينة الدنيا وزخرفها اذا هى أقبلت عليه مع قلة همته في العمل وحب البطالة والكسل وهذا هو شر حال للناس ، عن بعض الصحابة رضى الله عنهم قال : قلنا يارسول الله

« أي الناس خير قال كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان فلنا يا رسول الله وما محموم القلب قال التقى النقى الذى لا غل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد — قلنا يا رسول الله فمن على اثره قال الذي يشنأ الدنيا و يحب الآخرة »

والاخبار والآثار في فضل الزهد كثيرة كقوله عليه الصلاة والسلام اذا رأيتم العبد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة وقال تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ولقد قيل ان المطلوب من الزهد في الدنيا ما يفهم من الآية الشريفة « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » اذ الزاهد حقيقة لا يفرح بموجود من متاع الدنيا ولا يتأسف على مفقود منها بحسب المراد منه هاهنا ، وفسر الامام الثوري الزهد بقصر الامل في الدنيا فقال «الزهد في الدنيا قصر الامل ليس باكل الغليظ ولبس العباءة»

وليس قصر الامل أو بغض الدنيا النفسي الذى فسروا به هـذا الزهد هو ابطال العمل أو الكف عن النعيم المباح والاستعمار المطلوب للدنيـا وفي الأثر الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » بل

هو حالة تقوم بالنفس المتدينة ترى صاحبها الدنيا على حقيقتها وحقارتها وقصر حظوظها ومتاعها القليل مهما كانت ومهما وجب وندب الشارع الى السعي فيها والعمران لها لبقاء الجنس وحفظ النوع معززاً مكرماً فيرغب المرء من ثمّ فيما عند الله ويقبل بخاطره وأمله وعواطفه الخفية الى تحرى ثواب الله ومشيئة الله، الى تلك السعادة الحقيقية رامياً في كل مطلوب اعماله الدنيوية ومساعيه العملية الى ما يجنى من الربح العظيم في الآخرة ولا ريب أن من يبلغ تلكم الدرجة العظيمة من الزهد اتصف بالاحسان وفاز بأجل المقامات والآداب النفسانية والراحة البدنية مصداقاً للحديث الشريف «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن» لان الدين مهما جاهد في الدنيا وحصل من متاعها ونعيمها الحلال المطلوب فهو وان عد ذلك كله من اكبر نعم الله عليه الواجب شكرها يراه ايضاً صغيراً حقيراً بالنظر الى ما يستقبله من نعيم الجنة الذى أعده الله لعباده المؤمنين وصريح الآية الشريفة تقول «فلا تعلم نفس ما أُخفِيَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون»

وآخر ما قصدت عده من تلك المقامات الأدبية النفسانية

ويجدر ان يختم به هذ القسم من أدب النفس مع الخالق تعالى وما لها من أحوال ومقات يجب اتصافها بها بحقه سبحانه وتعالى « الفكر » والتدبر والتأمل والاستبصار في « عظمة الملك والملكوت » لان الاسلام لما كان « الدين الطبيعي » الذي يستند على العلم والعلم يقتضى انطلاق العقل بالتفكر والتدبر في كل الاحوال والمقامات وسائر الاعمال والمصنوعات الطبيعية والانسانية لذلك جاء في القرآن الشريف مطلوباً منه مندوباً اليه في غير ما موضع من الكتاب العزيز كما في الآية « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » ولذا جاء في الحديث الشريف « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »

ويطلب الفكر ايضا دينياً عندنا في أحوال النفوس ومعارفها وافعالها قال الفضيل « الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك » وقال الحسن هذه الحكمة البليغة « ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر و بالفكر على الذكر حتى

استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة » وقال وهب « ما طالت فكرة امرئ قط الا علم وما علم قط الا عمل » وقال عمر بن عبد العزيز « الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة » وقال حاتم « من العبرة يزيد العلم ومن الذكر تزيد المحبة ومن التفكر يزيد الخوف » وقال ابن عباس « التفكر فى الخير يدعو الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه »

وقال الشافعى رضى الله عنه « استعينوا على الكلام بالصمت وعلي الاستنباط بالفكر » وقال أيضاً « صحة النظر في الامور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم ، والرّوية والفكر يكشفان عن الحزم ، والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ، تفكر قبل ان تعزم وتدبر قبل ان تهجم وشاور قبل ان تقدم » وقال الشاعر :

اذا المرء كانت له فكرة ففى كل شيء له عبرة

ولاغرو فانه باطالة الفكرة والتأمل يحصل للانسان العلم اليقيني والحكم القطعى أو الذي ترتاح اليه النفس فيبعد عن التقليد الاعمي في الاحوال والافعال والعلم وكلما اتسع نطاق علم الانسان ومعارفة المكتسبة ومعلوماته التى يحصلها ويستفيدها

من مجربات هـذا العالم وحوادثه سما فكره وعلا في الاذواق الاجتماعيـة والاحوال والمقامات الدينيـة كعبـه فجنى من ثم دينياً ودنيوياً أشهى الثمار الفكرية والتأملات العقلية والسعادات والاذواق فازداد بهذا كله قرباً من الله وبعداً بالنفس عن مساوى حالاتهـا وسفاسفها المستقاة من شرور العالم فينير الله بصيرته ويجلى قلبه ويرفع شأنه ويسدد خطاه في كل أعماله ويملأ ما بين جوانحه نورا وحكمة روحانية يستلذ بها ويطيب بما لا يمكن ان تعاد لها عنده لذة أخرى أو يساويها سرور ثان ولقد قال الامام الجنيد ذلك الصوفي الكبير هذه الحكمة الغالية والموعظة الحسنة العالية قال « أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ويالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبي لمن رزقه [١] »

---

(١) الاحياء للغزالى



الباب الثامن

خلاصة

مبادئ الاسلام في التوحيد والاعتقادات ـ الطهارة ـ الصلاة الزكاة ـ الصيام ـ الحج القرآن ـ العلم ـ العمل ـ شأن الحكومة ـ النفس وآدابها مع الخلق ومع الخالق

رأى القارئ الكريم مما سبق أن الاسلام قد توفرت له في اعتقاداته اسمى المبادى التوحيدية والتنزيهية بما يمكن أن يفتخر أهله به لانه مبنيٌّ على اعتقاد إله واحد عظيم هو صانع الكون الاعظم ذلك الاله تعالى الذى طالما بهرت عقول الفلاسفة والحكماء من المتقدمين والمتأخرين أمام ماله من آثار العظمة والجمال في الابداع والاتقان :

تسبح ذرات الوجود بحمده ويسجد بالتعظيم نجم وأشجار
ويبكي غمام الغيث طوعاً لامره فتضحك مما يفعل الغيث ازهار

فالقرآن المجيد دلنا باجمل عبارة وألطف اشارة الى أن لا نعبد الا هذا الاله العظيم والصانع الحكيم وحاج العرب وغير العرب بان ماهم عليه من الشرك الظاهر والخفى والابهام والايهام في المبادى والأصول الاعتقادية ليس مما يرضاه الله

لعباده وليس من كمال الدين الحق دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها في شيء ، فتنزيه الله تعالى في الاسلام من اسمى ما ترمى اليه العقول الكبيرة وتقبله الفطر السليمة متى ما علم على حقيقته كما أن قوله في القضاء والقدر من أوسط ما يعتقد بالنسبة الى أفعال العباد وخلق رب العباد :

وقامت بها الاشياء ثم لحكمة ‌ ‌ ‌ بها احتجبت عن كل من لا له فهم

ولا ريب ان الله تعالى لما تفضل على العقل البشري بالادلال على نفسه بواسطة رسله الذين اصطفاهم واختارهم مبشرين ومنذرين لخلقه وجب بالضرورة الايمان بهم واتباع ما جاؤا به من عنده وأُمِرُوا بتبليغه من الشرائع للناس والذى جاؤا به معززاً بالحجج مؤيداً بالمعجزات سهل بسيط يمكن لكل انسان أن يعتقده ويعمل به ليسعد سعادة كاملة بيدان للذين يخالفون عن أمره ويعملون السوء عذاباً أخروياً والجزاء من جنس العمل ولا تزر وازرة وزر أخرى .

* * *

والعبادة الاسلامية هي كاعتقاد هذا الدين بسيطة وسهلة ومفيدة ، فالطهارة ليس أحسن ولا ألطف منها فى النظافة

وصحة البدن والله تعالى يحب المتطهرين ، والصلاة تضرع ودعاء وخشوع وخضوع أمام رب العالمين وفي حضرته وما يجب أن يعمر المرء به باطنها وهي عماد الدين من استحضار القلب عظمة الرب والاخلاص له تعالى مثمر للفوائد الروحية مفيض على الجوارح النعم واللذة والتقوى في كل الاعمال والشؤون ، وكونها خمس صلوات في اليوم والليلة ليس أفيد ولا أجلب للراحة القلبية من عناء الاعمال منه اذ يفتتح المرء نهاره بصلاة ويعمر وسطه عند الزوال بصلاة ويأتي فى عصره كذلك بصلاة ويختمه عند الغروب بصلاة ثم فى النهاية يستقبل ليله وأخذ راحته من الهجوع عند غروب الشفق ودخول العتمة بصلاة العشاء ، وما زاد عن ذلك من الصلوات المكتوبة والتطوعات فكله حسن وكله مفيد ، فالجمعة لها فضلها ، والعيدان لهما مزيتهما وكذلك باقي ما أشرنا اليه من السنن فى الجنازة والكسوف والخسوف وغيرها

وفرض زكاة الاموال أراني لست فى حاجة الى تبيان كبير فوائده وجودة مبدأ تقريره دينيا على المسلمين فهو هو عين ما يقوم عليه عمار الممالك من تحصيل الاموال من الافراد

الموسرين لتدبير الشؤون وتنظيم المصالح العامة ومساعدة الفقير والمحتاج في الهيئة فزكاة الاموال والصدقات في الاسلام من أفيد الاصول التي رُوعِيَ فيها مصلحة الهيئة الاجتماعية

وكذلك فرض الصيام في شهر رمضان الذى أُنزِلَ فيه القرآن له مزيته على النفس البشرية فان امساك الانسان ومخالفته عادته في الاكل والشرب ونحو ذلك نهاراً كاملاً مع صون الجوارح وحفظها عن اللغو والهذيان فيه كسر لغائلة شهوات النفس وتهذيبها وتذليل جماحها وبعبارة أخرى القرب بها الى أفقها الأعلى والبعد بها عن طبيعتها الارضية الحقيرة ولذلك جاء في الحديث الشريف «صوموا تصحوا» وقال تعالى «وان تصوموا خير لكم»

وفرض الحج الى بيت الله الحرام وكعبة ابراهيم الخليل عليه السلام فضله أيضاً لا ينكر لان فيه اجتماع خلق كثير من المسلمين سنوياً في صعيد واحد لذكر الله تعالى واقامة شعائره ومناسكه في أيام معلومات وهذا كله له الفوائد الجلى من حسن التأليف بين جماعات المسلمين والخروج بالنفس عن أوزار الدنيا وغرورها بما يرمز اليه من خلع ثيابها المخيطة

ولبس لباس الاحرام وذكر الله بالتلبية وعدم قتل الصيد او الاشتغال بشواغل الدنيا وجدالاتها حتى تصح للمرء حجته ويبر نسكه ولذلك جاء فى الحديث « من حج فلم يرفث خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »

ولما كان القرآن هو المحور الذى تدور عليه شؤون المسلمين الدينية والتعبدية والتعاملية والآداب النفسية لذلك كان من الواجب على كل مسلم تلاوته وتدبره لانه مَدَدُ العقول وسبيل الهداية وعماد الاخذ بالشريعة المطهرة عند المسلمين حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « افضل عبادة أمتي تلاوة القرآن »[1]

وآداب هذه التلاوة مفصلة فيما سبق من هذا الكتاب كما ذكر فيه كذلك أدب الذكر ذكر الله تعالى والصلاة على

---

(١) جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث الجامع : اسباغ الوضوء شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان والتسبيح والتكبير يملآن السموات والارض والصلاة نور والزكاة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك او عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو بائع فموبقها

النبي صلى الله عليه وسلم لقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »

***

ولما كان العلم نوراً والجهل ظلمة وأى ظلمة لذلك جاء الاسلام حاثاً على طلب العلم مبيناً فضل العالم على الجاهل آمراً بالعمل به كما قال الشاعر

العلم نور فلا تهمل مجالسه واعمل جميلا يرى فالفضل في العمل

ولا غرو فان العلم بدون العمل كالشجر بلا ثمر وأى عاقل يحب أن يتصف بذلك « كثير علمه قليل عمله » فالعلم يطلب فى الاسلام لكى يترقى به أهله وتعلو بواسطته بين الناس منزلتهم واقدارهم بالنفع ويفخر بهم الدين الذى ارتضى الله تعالى لهم وجعلهم أمة « وسطاً » ينبغى ان تكون بين الامم ذات علم قائم وشرف دائم وفخار واعمال صالحات يردون بها من العالم الجهالات وكثيف الشبهات « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

وفي الباب باب أدب العلم عندنا معشر أهل الاسلام آداب جميلة جمة ومبادي في العلم الذى هو فرض عين والعلم الذى هو فرض كفاية غاية في السداد وكذا في آداب التعليم والتعلم ولقد قال الامام ابن تيمية « ان الخير والسعادة منحصر في نوعين في العلم النافع والعمل الصالح ولقد بعث الله محمداً بافضل ذلك وهو الهدى ودين الحق كما قال تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً »[1]

***

والعمل في الدنيا على المعاش ـ والدنيا دار عمل وكدح ـ لم يقرر الاسلام بالنسبة اليه الا أجود المبادى والقواعد بالنظر الى السعى على المعاش وتقرير المساواة في الحقوق وعدم التحكير في الاعمال المباحة شرعاً من الصنائع والتجارة بل انه راعى في كل حق الافراد وأحاط أعمالهم وحرياتهم فيها باحسن القيود وأجود النظامات

ولم يحرم البتة التمتع بالدنيا من الحلال وأنحى على الكسل

---

(١) رسائل ابن تيمية

والتبطل والاحتكار باللوم وحث على العمل والاتقان وتجويد الصنائع والاعمال والحذق فيها وتدبير الارزاق وذم الاسراف وهجا المبذرين وسماهم « اخوان الشياطين » كما ذم البخل والشح في أداء الحقوق في المال وأمر بحسن معاملة الخلق والنصفة حتى من النفس وعدم الغش في الكيل والميزان الى آخر ما عنه ابان

***

وإذ كان الانسان في العالم ـ وهو سلطانه وأشرف خلق الله فيه ـ له نظام طبيعي في الاجتماع لا يمكن أن يعيش بدونه لذلك جاء الاسلام باحسن الآداب بالنسبة الى العشرة والخلطة في مثل الزواج والارتباطات العائلية والتعاملية والصداقة وتربية البنين والبنات بالقدوة الحسنة ومعاملة سائر الخلق بعقل وادب ولطف وتسامح مع غير أبناء الملة ممن لهم مالنا وعليهم ما علينا في الحقوق المتبادلة والشؤن التعاملية والروابط الوطنية التي يقتضيها نظام الهيئة السياسية الوطنية والهيئة السياسية الدولية [1] والآداب في العشرة والقرابة والصداقة والجوار الى أشباه ذلك مفصلة فيما سلف فلا أعيدها هنا واقد

(١) يراجع على هذا كتابى « حياتنا الادبية »

جاء في الحديث الشريف (من عامل الناس فلم يظلمهم ووعدهم فلم يخلفهم وحدثهم فلم يكذبهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وحرمت غيبته) وقال تعالى في تحسين هـذه المعاملة في العشرة وما ماثلها (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربي وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) وقال في خلق رسول الله في معاشرته لقومه (لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر)

وقال تعالي (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) وقال رسول الله في المودة (رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس) وجاء عنه عليه الصلاة والسلام (لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقى وان تكلم أخاك ووجهك اليه منطلق)

الق بالبشر من لقيت من الناس جميعاً ولاقهـم بالطـلاقة
تجن منهم به جـنى ثمـار طيب طعـمه لذيذ المذاقة

ولقد جاء في الحديث الشريف أيضاً (صلة الرحم وحسن

الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الاعمار)

***

ولما كان الناس لا يمكن أن يصلحوا فوضى بلا وازع يزعهم ولا شرع قائم وسياسة يرجعون اليها لذلك جاء الاسلام بأحسن الاصول والقواعد في الحكومة ، فنبه في غير ما موضع من القرآن الكريم على اقامة قسطاس العدل ، وجعل الاجماع السلطان في مقام الخليفة عن النبي صلى الله عليه وسلم في مستمد السلطة التشريعية والتنفيذية بواسطة الرجوع الى مشورة أساطين أهل العلم من الامة واكابر عظماء الملة وجعل كذلك من أدب العمال من الوزراء والقضاة والولاة ومتولى الشؤون الادارية والمالية ونحوها أن يكون القائمون بذلك منهم من أعدل الناس وأكفأهم وانزههم واورعهم على حد قول الشاعر

كلهم سيد فمن تلق منهم   قلت هذا أولى بحل وعقد

ولقد دلت الاحوال انه يجب ان يكون الجند الذاب عن الدولة من خيرة ابنائها وان يكون هو وقواده على جانب عظيم من الطاعة والتدريب والحمية الملية والشجاعة النفسية لدرجة يمكن معها حفظ سياج المملكة الاسلامية داخلاً وخارجاً وان

يعتني به عناية تناسب شأنه العظيم ، وان للسلطان فوق ذلك
حسن بصارته فى تصرفه في رعيته واكتساب محبتها ولقد قال
بعض (الحكماء طاعة المحبة افضل من طاعة الهيبة) وهذا
لا يكون على احسنه الا باقامة العدل على اوسع معاني الكلمة
واحكمها واسد الوجوه واحزمها فيشدد في موضع يقتضي الشدة
ويرخى فيما لا يضر فيه الارخاء وما دام العدل قائم السلطان
والنظام جارياً مجراه بإحكام فلن يضر بعد هذا شذوذ المتسخطين
من ذوى الاغراض والمطامع إذ العبرة بخطة السير ومصلحة
الجمهور ولقد قال بعض الملوك (انا املك الاجساد لا النيات
واحكم بالعدل لا بالرضا وافحص عن الاعمال لا عن السرائر .

وكما ان السلطان ضرورى في الارض فالطاعة لنظامه
واجبة لانه مهما كان الحال فان في عدم اطاعة السلطان والخروج
على النظام بالعصيان اشأم المغاب السيئة التي تضطرب لها
احوال الاجتماع البشرى والناس لا يصلحون فوضي ولذلك
قيل (سعادة الرعية في طاعتهم لملكهم)

***

هذه جملة الآداب الاسلامية في الامور الظاهرية والشؤن

العملية وقد اتيت على تفصيل اهمها فيما سبق بالايجاز ولكن هناك أس ذلك ومحوره الذى تدور عليه رحاه من نفس الانسان المعبر عنها (بانا) تلك المضغة في القلب والوجدان التي متى ما صلحت صلح معها كل حال للانسان كما في الحديث الشريف وقد تقدم

فنفس الانسان لهذا وجب ان لا تترك وهواها بل يجب ان تهذب لتصلح من وراء ذلك احواله واعماله كلها في سائر ما هو مطلوب من الانسان في الشؤون العملية والامور المعنوية على نحو ما سلف إذ اى فائدة يجنى الانسان اذا كان ظاهره انيق في اموره الحسية والمعنوية وباطنه حشوه الخبث والمكر والخديعة والكذب الى غير ذلك مما يفسد عليه ارادته واذواقه فيشقى

وادب هذه النفس كما تقدم ينقسم الى قسمين ادب للنفس مع الخلق وادب لها مع الخالق ولولاهما لما نجح للانسان عمل ظاهرى ولا قوى له شأنه الروحاني ، فالاخلاص والصدق والامانة والعفة والرحمة والتواضع والحلم والترفع والشجاعة ونحوها كلها لازمة للانسان مثمرة لعمله منجحة لشأنه كله بعكس التخلق

باضدادها وارتكاب الشرور والمعاصي فانها مثمرة حنظلا مخسرة للانسان ثالبة منه مسرات نفسه ولذات وجدانه وان شعر بادئ بدء بانه حاصل على نوع سعادة والله تعالى يقول « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » أي النفسية والعملية التي بعث بها نبينا صلى الله عليه وسلم و بينها القرآن والسنة وما بني عليهما وقيس بقياسهما ووزن بميزانهما بحسب المقتضيات وتجنب الرذائل والشرور والفساد في الارض المنهي عنه شرعاً وعرفاً هو ما يجب ان نحققه لانفسنا لنحظى بين الخلق بصحيح السعادة وننجح في معاملاتنا وأحوالنا بين الامم ونحن خير أمة اخرجت للناس لا بأجسامنا ولكن بمبادئ قرآننا وديننا وآدابنا العالية

لقد بان للناس الهدى غير انهم غدوا بجلابيب الهوى قد تجلببوا

أما أدب النفس مع الخالق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » وهو لا يكون الا من قوة الايمان وتقوى الرحمن فمن بلغ هذا الاوج فقد

فاز بأجل الأرب ونعمة الله التي لا تقدر ونضح له من ذلك على جوارحه فيوضات الآداب السامية المبنية على الورع والخشية والحب والاخلاص وصدق التوكل والتقوى الصحيحة الصادرة من أعماق القلوب

وتقوى الله أفضل كل زاد   لنفس بالهدى عرفت هداها

ولقد تبين لك مما سلف فضل تلك الاحوال والمقامات الرفيعة التي لايشارك فيها الحيوان الانسان بل لايشابه فيها الانسان الانسان فمن الناس من لا يكون له من تلك الاذواق والمعارف المعنوية الا بمقدار ما يعلم من أسمائها ويشرح من مسمياتها ويثني عليها بما هي اهله ولكنها لن تتعدى لسانه ومنهم من تملأ ما بين جنبيه وهو بعد لا يعرف ما هى أسماؤها ولله في خلقه شؤون

رب ان الهدى هداك وآيا   تك نور تهدي بها من تشاء

وإذ جعل تعالى الاكوان كما قال ابن عطاء الله السكندري « ظاهرها غرة وباطنها عبرة » لذلك أمرنا الله تعالى بالنظر والتفكير فيها وفي أحوال نفوسنا العجيبة في أعمالها وتصرفاتها وميولها لنزداد إيماناً وتبصرة وعلماً ونوراً

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وليس المقصود بهذا التفكير المعرفة السطحية والنظر الظاهري وحملقة الابصار مع الذهول وفقدان نور البصيرة فهذا ليس فيه العبرة المقصودة ولا تحصل منه الفائدة العلمية المرجوة من حسن التأمل والتدبر بلذة وشوق وتأثر وخشية مما يفيض على القلب المعارف ويكسب الوجدان أشرف الاحوال والمقامات والواردات

ان شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب

تم الكتاب والحمد لله تعالى

وصلى الله على سيدنا محمد

وآله وسلم



رسالة

الحكم النبوية

ذيل ادب الاسلام

رسالة الحكم النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي الكبير والصلاة والسلام على البشير النذير، وبعد فهذه رسالة جمعت فيها مائة حكمة وحكمة من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم اصل كل هداية وينبوع كل حكمة وهي مختارات من صحاح احاديثه الشريفة واقواله المنيفة في شؤون الحياة الادبية والاجتماعية والدينية وقد شرحتها شرحاً عصرياً وجيزاً ليسهل تناولها ولما سنحت الفرصة لاعادة طبع هذا الكتاب رأيت ان اذيلها به لتكون « لادب الاسلام وقارئه الكريم مسك الختام »

« انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق »

(حديث شريف)

﴿ الحكمة الاولى ﴾

إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا ، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ

اَللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اَللّهُ أَمْرَكُمْ وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ اَلْمَالِ

لعمري ان ما يرضاه الله سبحانه وتعالى لنا لهو الخير كل الخير وهذا الحديث الصحيح والحكمة البالغة يرشدنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اكمل الآداب في السلوك الاجتماعي: يقول عليه السلام ان الله يأمركم بثلاث خصال من الخير ذات فوائد لكم وينهاكم عن ثلاث خصال من الشر فيها الضرر اللاحق بكم لان الرضا والسخط كما قال العلماء عبارة عن الامر والنهي ، فأول ما يأمرنا به تعالى من خلال الخير الثلاث هو ان نعبده سبحانه مخلصين له الدين لا نشرك به في العبادة سواه ، الثانية ان نعتصم بحبله أي نستمسك بالقرآن المجيد نعمل بحلاله ونجتنب ما حرم علينا فيه ونهانا عنه ولا نختلف فيه فرقاً وشيعاً لان في التفرق والانشقاق الضرر والضياع ، الثالثة ان ننصح ولاة امورنا بان نعاونهم على الحق ونطيعهم فيه ونترك مخالفتهم وننبههم ونذكرهم بلطف ورفق لما غفلوا عنه من الحقوق او قصروا فيه من الواجبات وان ندفع لهم اموال الصدقات المعينة

على نظام الهيئة وسيرها وان لا نطريهم بالثناء الكاذب والتملق البارد . اما الخصال التي يكرهها لنا من هذا القبيل الاجتماعي وينهانا عنها فهي ثلاث ايضاً الاولى ترك المقاولة والخوض في اخبار الناس بالباطل والغيبة والنميمة وهو القيل والقال ، الثانية كثرة السؤال بالتجسس والتحسس مما وقع او لم يقع ولا تدعو الحاجة اليه من اخبار الناس واحوالهم الى اشباه ذلك مما عمت فيه البلوى ، الثالثة اضاعة المال وهو قوة لنا اي صرفه في غير وجوهه الشرعية وتعريضه للتلف بالسرف والتبذير في النفقات لانه فساد والله سبحانه وتعالى لا يحب الفساد بل سمي المبذرين اخواناً للشياطين في محكم تنزيله

﴿ الحكمة الثانية ﴾

أَفْضَلُ ٱلْمُؤْمِنينَ إِسْلاَماً مَنْ سَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَأَفْضَلُ ٱلْمُؤْمِنينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ، وَأَفْضَلُ ٱلْمُهَاجِرِينَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ ، وَأَفْضَلُ ٱلْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ ٱللهِ

الاسلام انما يدعو الى افضل الخلال واكرم الخصال

ويأمرنا بان نتحلى بحلي الادب والكمال في معاملة الناس ومعاشرتهم ومخالطتهم وقد جاء هـذا الحديث الصحيح ينبئنا نبأً صادقا ويخبرنا خبراً يقيناً عن أفضل المسلمين درجة عند الله وأعلاهم منزلة في الهيئة الاجتماعية وارفعهم كعباً في الفضائل الاسلامية ومعنى الحديث ان افضـل المؤمنين أي أكملهم في الاسلام من نجا وخلص المسلمون رجالا ونساء ومن في حكمهم ممن لهم ذمة وعهد من تعديه وتطاوله عليهـم بالطعن والقذف والشتم والسب باللسان وما في حكمه او التعدي عليهم باليـد أذية بالضرب او القتل فمن اتصف بذلك مع ما تستلزمه صفة المسلم لا جرم كان افضـل المسلمين اسلاما بل اكمل الناس انسانية والمراد به ما ترمي اليه الآداب الاسلامية من التمسك باكمل الآداب في معاملة النـاس والسلوك في المجتمع ولذلك عطف عليه بان افضل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً لان حسن الخلق دال على كمال الايمان وسوء الخلق دال على نقصه عن الـكمال.

ولـما كانت الهجرة فراراً بالدين من الاضطهاد الديني واجبة في الاسلام ولها ثوابها لذلك جعل افضل المهاجرين ذلك الذي يهجر اي يفر ويترك قبل كل شيء ما نهى الله عز وجل عنه من

المحرمات والمنهيات مما هو مبين بالشريعة المطهرة كما جعل افضل الجهاد الذي فرضه الله اي أحسنه وأعظمه درجة جهاد المرء نفسه في ذات الله بفعل المأمورات وكفها عن المحرمات امتثالا لامر الله تعالى لان الشيء انما يفضل ويشرف بشرف ثمرته وثمرة مجاهدة النفس الهداية قال الله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا »

﴿ الحكمة الثالثة ﴾

إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً فَإِنْ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ وَإِنْ أُشِيرَ الَيْهِ بِالاصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوه

• الشرة الحدة والنشاط والرغبة والحرص على الشيء والفترة بعكس ذلك الوهن والسكون بعد عظم الرغبة ومعنى هذا الحديث الجليل ان للمرء في الحياة في امور الدين والدنيا نشاطاً ورغبة يتبع ذلك عادة فتور وسكون بقدر ذلك فان لزم صاحب الشرة أى النشاط والرغبة التوءدة والسداد فى امره فقد سلك سبيل الرشاد واختار طريق الامجاد وأمن لعمرى العثار فصار ممن يرجى فلاحه وثباته أما ان أفرط حباً بالشهرة وميلا مع الانانية حتى يشار اليه بالبنان فهذا يجب ان لا يعتد به ولا

ينبغي ان يحسب في العاملين الكاملين لكونه إما مرائياً او انانيا سريع الخطأ قريب الكبو فلا تدوم له حال بعكس الاول فانه يمكنه الثبات لملازمته الاعتدال والتوسط في الامور وأحب الاعمال الى الله أدومها وان قل ، واذا اعتبرنا هذا الحديث وطبقناه على اعمال بعض ممن يتوسعون في الاعمال الدنيوية بالتهور والاندفاع حتى يشار اليهم في الغنى والثراء بالبنان ثم ما قد يسقطون به الى الحضيض بسبب تلك الشرة المالية لرأينا مصداقه مجسماظاهراً للعيان ظهور الشمس في رائعة النهار

﴿ الحكمة الرابعة ﴾

اِسْتَحْيُوا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلْحَيَاءِ . مَنِ اِسْتَحَى مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ ٱلرأسَ وَمَا وَعَى وَلِيَحْفَظِ ٱلْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلِيَذْكُرَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْبَلَا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ ٱلْحياةِ الدُّنيا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اِسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلْحياءِ

الحياء حالة تعترى النفس خوف العيب وخشية العار مما يقبح من الافعال أو ينبو عنه الذوق السليم من الخصال مما قد يستبان في الحديث واتباع الشهوات وكأن بعض الصحابة حين

قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحكمة « استحيوا من الله حق الحياء » انبهم عليهم فهم معناها فقالوا يانبي الله « إنا نستحي من الله ولله الحمد » فقال لهم ليس كذلك وانما من استحى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى اى جمعه من الحواس الظاهرة والباطنة فلا ينظر المرء ولا يستمع الى ما يحرم ولا يتكلم فيما لا يعنيه او يكون فيه الاثم عليه . ويقصد بالبطن وما حوى من الاعضاء القلب والبطن والفرج واليدين والرجلين فلتحفظ كلها وتصان عما يحرم ويحذر مما يملأ الجوف من الحرام ثم ان من شروط الاستحياء الحق من الله ان يذكر الموت وما بعده وان من رغب في الآخرة حق عليه ان يترك زينة الحياة الدنيا الكاذبة فلا يكثر من التنعم والرفاهة حتى ينال حسن ثواب الحياة الاخروية فمن فعل ذلك واخلص النية في العمل كان جديراً بان يكون ممن يستحيون من الله حق الحياء ويخشونه حق خشيته تعالى فيرفع الله درجاته ويفيض عليه نعمه ظاهرة وباطنة « وان تعدوا نعمة لا تحصوها »

﴿ الحكمة الخامسة ﴾

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْجَلِيسِ ٱلصَّالِحِ وَجَلِيسِ ٱلسُّوءِ كَحَامِلِ ٱلْمِسكِ

وَنَافِخِ ٱلْكِيرِ فَحَامِلُ ٱلْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ ٱلْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً

هذا مثل جميل وتشبيه بليغ ومعنى الحديث ان جليس الانسان ان كان صالحاً بما حوت نفسه وأخلاقه من مكارم وفضائل وآداب كان لعمرى كالذى يحمل المسك الازفر وهو ما نعلم ريحاً طيبة وأريجاً ذكياً ومثل الجليس السوء اي الفاسد الاخلاق السيئ الطباع كالحداد الذى ينفخ الكير في خبث ريحه ونتن دخانه فالجليس الطيب قد يعطينا من اخلاقه ومعارفه ما هو أفضل من المسك وينشر علينا ما هو اذكى رائحة منه بعكس الجليس السوء فانه يفسد اخلاقنا ويشوش افكارنا ويضل ألبابنا فهو مثل نافخ الكير والدنو منه إما ان يحرقنا بناره او ينشر علينا من دخانه وخبث ريح كيره ما فيه أعظم الضرر والقصد من هذه الحكمة النبوية الشريفة انما هو النهي بأبلغ عبارة وأقرب تمثيل عن مخالطة الاشرار والارازل ممن تؤذى الانسان مجالستهم وتسرق من اخلاقهم أخلاقه والترغيب

في مجالسة من تنفعنا مجالستهم وتكسبنا الفضائل مخالطتهم سواء فيما يتعلق بأمر الدين او الدنيا ولقد جاء في حديث آخر صحيح في الحث على مخالطة الفضلاء والصلحاء «جالسوا الكبراء وسائلوا العلماء وخالطوا الحكماء» وفي حديث آخر «خير جلسائكم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله» ولعمرى انه نعم الجليس

﴿ الحكمة السادسة ﴾

مَا كَانَ ٱلرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ

الرفق والعنف ضدان لا يستويان وامران يختلفان ونتائج الاول حميدة ومغاب الثاني قد يكون فيها غالباً الضرر البليغ على صاحبه ، فالرفق أى التوءدة يزين الاعمال ويسهلها لان العقل يكون فيها الحاكم والسلطان وعلى الضد من ذلك العنف والعجلة فانه مقرون بالنفرة والقاء الجفوة وسرعة الكبوة فهو لذلك يشين صاحبه ويفسد عليه غالباً عمله وليس المراد بالرفق التواني في الامور او التراخي في الاعمال وانما المراد به التوءدة ولقد جاء فى حديث آخر صحيح «التوءدة كلها خير الا في عمل الآخرة»

﴿ الحكمة السابعة ﴾

خَيْرُ ما أُعْطِيَ ٱلرَّجُلُ ٱلْمُؤْمِنُ خُلُقٌ حَسَنٌ وَشَرٌّ مَا أُعْطِيَ ٱلرَّجُلُ قَلْبٌ سَوْءٍ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ

ما الخلق الحسن الا الاتصاف بمحاسن الشيم والتحلي بالفضائل النفسانيـة والكمالات الانسانيـة فى المعاملات والمعاشرات والنبي صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس بذلك كما قال في الحديث المشهور «بعثت لاتمم مكارم الاخلاق» . ومعنى الحكمة النبوية التي نحن بصددها هنا ان صاحب الاخلاق الطيبة الرضية هو افضل الناس وخيرهم عند الله وان شر الناس انما هو ذلك الذي تسوء اخلاقه وتفسد اعراقه وتخبث في معاشرة الناس نفسه وان حسنت صورته الظاهرة وبزته فكانت على عكس صورته الباطنة والله سبحانه وتعالى كما جاء في بعض الحكم النبوية لا ينظر الى صورنا وانما ينظر الى اعمالنا ونياتنا اي ما يحويه وجداننا لانه ينبوع اعمالنا وهناك احاديث كثيرة تحث على تحرى حسن الخلق فيجب لعمري على صاحب الاخلاق الفاسدة والطباع السوء التي ينضح منها على اعماله فتفسد عليه في الهيئة الاجتماعية احواله ان يجاهد نفسه

الامارة بالسوء حتى تصلح ارادته ويحسن خلقه فتذهب شرور رذائله وتستقيم له اعماله فيحبه الناس ورب الناس

الحكمة الثامنة

عَلَيْكُمْ بِاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ مَصَارِعَ السُّوءِ، وَعَلَيْكُمْ بِصَدَقَةِ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُطْفِئُ غَضَبَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

اصطناع المعروف عبارة عن البر بالانسانية ومديد الرفد والمساعدة للفقراء ثم حسن معاملة الناس الى اشباه ذلك مما يعد من المروءآت الانسانية والكمالات البشرية فالنبي صلى الله عليه وسلم يحثنا على اصطناع المعروف مع الناس كافة لانه من اعمال البر الانسانى التي ترضي الخالق وتقي صاحبها الهلكة لانها تحبب فيه الناس وان صدقة السر التي مدحها النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما حديث يحبها الله لانها بعيدة عن مظنة الرياء وطلب الشهرة فلا يقصد بها صاحبها فى الواقع غير مرضاته تعالى فهى لهذا تطفئ غضبه على الانسان فيما كان منه من ذنوب واوزار لم يأبه لها فضلاً عما فيها من البر والاحسان بدون رياء ولا امتنان

﴿ الحكمة التاسعة ﴾

لَيْسَ الشَدِيدُ بِالصُرَعَةِ إِنَّمَا الشَدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ

الشديد القوي والصرعة الذي يصارع الناس فيبطش بالاقران في حلبة الرهان وحومة الميدان وهو من المفاخر الانسانية واعمال الفروسية الشهيرة بينهم فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لنا على رسلكم ليس هذا المتصف بالقوة وشدة البأس في الصراع هو القوى الشجاع ولكن هناك من هو أقوي منه أو أحرى منه بالاتصاف بذلك وهو الذي يتمكن من قهر نفسه ويصرعها عند ما يتملكها الغضب وتثور ثائرته في الرأس وهو أمر ممدوح محمود المغبة مثاب عليه كما جاء في حديث آخر « من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته » وفى القرآن المجيد «إدفع بالتي هي احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌ حميم » وهو أعلى مراتب الحلم »

﴿ الحكمة العاشرة ﴾

إِنَّ ٱللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ

التواضع وهو لين الجانب وخفض الجناح من غير مذلة من أكرم الفضائل وأكمل الآداب البشرية وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة تحث عليه وتنصحنا به وهنا نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان الله عز وجل أوحى اليه وحي ارسال أن يأمر الامة الاسلامية بالتواضع ولين الجانب وان لا يفخر انسان على انسان منهم - لان الكرامة عنده تعالى بالتقوى - وان لا يظلم أحد أحداً لان الظلم والبغي مرتعهما وخيم وعقابهما شديد وعاقبتهما على كل حال ندامة وخسران

﴿ الحكمة الحادية عشرة ﴾

إِرْحَمُوا تُرْحَمُوا وَٱغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ القَوْلِ ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ

الرحمة رقة تلحق النفس وشفقة تأخذ القلب فتعطفه على

البائسين وذوى المصائب فان العطف على هؤلاء والاتصاف بالرحمة في السلوك مع الناس كلهم يوجب رحمة الله تعالى كما جاء في حديث آخر « ارحم من في الارض يرحمك من في السماء » وكذلك الصفح عن الزلات وإقالة العثرات مما يحبه الله لعظم كرمه وغفرانه ويحب من يتصف به ويقابل صنيعه مع الناس بمثله عنده ، ثم قال ويل لاقماع القول أي شدة وهلكة وخسر لأولئك الذين لا يعون الحكمة وسمعهم كالقمع والقمع تنفذ منه السوائل ولا يحفظها وويل كذلك لأولئك الذين يصرون على الذنوب والرذائل ضلالاً وغواية وعناداً وهم يعلمون مع ذلك انهم على مساوى ومعاصي ورذائل مردية بهم وبسواهم

﴿ الحكمة الثانية عشرة ﴾

لَيسَ ٱلغِنَى مِنْ كَثْرَةِ ٱلعَرَضِ ولَكِنَّ الغِنَى غِنى النَّفْسِ

العرض ما ينتفع به من متاع الدنيا ومعنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال لان كثيراً ممن وسع الله عليهم في الثروة مجردون من القناعة النفسية شراهة وحرصاً فكأن من هذه الصفة صفته من الاغنياء فقير من شدة حرصه وعظم

شراهته وطمعه أما الغنى الحقيقي فهو غنى النفس وان أحرزت اليدان الاموال وقال القرطبي كما نقله المقريزى «معنى الحديث ان الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غني النفس وبيانه انه اذا استغنت نفسك كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح اكثر من الغني الذى يناله من يكون فقير النفس لحرصه فانه يورطه في رذائل الامور فيكثر من يذمه من الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أصغر من كل صغير وأذل من كل ذليل» ولله در الشاعر حيث قال

والناس أكيس من ان يمدحوا رجلا   حتى يروا عنده آثار احسان

﴿ الحكمة الثالثة عشرة ﴾

كُلُوا واشْرَبُوا وتَصَدَّقُوا والْبِسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ .

المخيلة والخيلاء العجب والتكبر قال العالم عبد اللطيف البغدادى هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الانسان نفسه اذ فيه تدبير مصالح النفس والجسد والدنيا والآخرة فقيه الامر بالاكل والشرب من الحلال الطيب والتصدق على الفقير

والمسكين والامر بتزيين اللباس ولكن بلا اسراف ولا تبذير ولا عجب ولا خيلاء اذ في الاسراف ضياع المال وهو أساس الحياة وعتادها وفي العجب والكبر ومباهاة الناس به مثال لما كان عليه قارون الذى ضرب الله به المثل فى القرآن المجيد لكل غني معجب بغناه متكبر على الناس به فسبب له ذلك ذهاب ماله وضياع نشبه حتى كره الغنى لما شاهدوا ما أصابه من تمنوا من قومه ان يكون لهم مثل حظه وثروته وزينته

﴿ الحكمة الرابعة عشرة ﴾

أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ والصَّلاَةِ والصَّدَقَةِ إِصْلاَحُ ذَاتِ البيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هيَ الحَالِقَةُ

قال بعض العلماء انما يراد باصلاح ذات البين ما بين الناس من الاحوال حتى تكون احوال محبة والفة واتفاق وقيل المراد به اصلاح الفساد والفتنة التي تكون بين الناس وبعضهم فهذا الاصلاح واجب عندنا وجوب كفاية مهما وجد الانسان اليه سبيلا ويحتمل الاصلاح بمواساة الاخوان والمحتاجين

ومساعدتهم فالنبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا في هذه الحكمة الى ان اصلاح ذات البين أعظم ثواباً ودرجة من الصلاة والصيام والصدقة لما فيه من المصلحة العامة اما فسادها أو إفسادها بالقاء بذور الشقاق فهي الخصلة الذميمة الحالقة أي المردية المستأصلة للدين والدنيا كما تستأصل الموسى الشعر لانها الفتنة والفتنة بين الناس خطبها عميم وشرها مستطير وكم أردت بافراد الناس وأضرت بجماعاتهم

﴿ الحكمة الخامسة عشرة ﴾

ايَّاكَ والخَمْرَ فَإِنَّ خَطِيئَتَهَا تَفَرَّعُ الخَطَايَا كَمَا أَنَّ شَجَرَتَهَا تَفَرَّعُ الشَّجَرَ

اضرار الخمر كثيرة واثمها اكبر من نفعها ومعنى الحديث الشريف احذر الخمر وشربها فان خطيئتها أي وزرها يطول جميع الخطايا والاوزار ويزيد فيها ويجر اليها ويعلوها كما تعلو شجرتها أى الكرمة جميع الشجر وتفرع عليها وتتسلق جذوعها وفروعها ، قال العزيزى وفي الحديث معنيان لطيفان : أحدهما تشبيه المعقول بالمحسوس وجعل الاحكام الشرعية في حكم الاعيان المرئية ، والآخر ان الخمر طريق الى الفواحش ومحسنة

لها ومدرجة الى كل خبيثة ولذلك سميت « أم الخبائث » ولقد جاء في حديث آخر صحيح «اجتنبوا الخمر فانها مفتاح كل شر» وفيها يقول ابن الوردي في اللامية :

ودع الخمرة ان كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل

﴿ الحكمة السادسة عشرة ﴾

كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَوَّابُونَ

لا يخلو امرؤ من خطأ أو زلل مهما كان كماله في نفسه وعلمه وعمله وأدبه وفضله لما يعرو النفس عادة من النسيان ونحوه من الاغيار ولكن العقلاء والكمل يرجعون الى الصواب ويعودون بالملامة على النفس ويثوبون الى الهدى والتوبة واصلاح الخطأ والرجوع عنه فالحديث الشريف يدل لعمري على تلك القاعدة أى الناموس الطبيعي المعرض له البشر وان ليس ثم نفس تخلو من الخطأ ولكنه يقول ايضاً ان خير البشر أولئك الذين يدركون خطأهم ويعرفون غلطهم فيرجعون عنه ويتوبون الى الله تعالى منه ، فالانسان لا يضره خطاؤه بمقدار ما يضره اصراره عليه مع معرفته إياه وعدم التوبة منه والاقلاع

عنه حتى يقل بذلك خطاؤه ويأمن العثار والهلكة بالتمادي في الخطيئه وعدم الاكتراث لها والالتفات اليها والاقلاع عنها

﴿ الحكمة السابعة عشرة ﴾

خَيْرُ النَّاسِ. مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاء عَمَلُهُ

المرء في هذا العالم ليس الا سيرة فمن حسن سلوكه اي عمله ومعاملته فيما بينه وبين الله وفيما بينه وبين الناس وطال به الامد على ذلك لا جرم صار افضل الناس وخيرهم سيرة وسريرة بعكس ما اذا ساءت فعاله وقبحت خصاله وضلت سيرته وسريرته وتمادى به العمر في ذلك فصار من شرار الناس ونقمة عليهم فمعنى الحديث لعمري هو ذاك ولذلك جاء في حديث آخر « خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يؤمن شره ولا يرجى خيره » وفي حديث آخر « خير الناس انفعهم للناس » والاحاديث في المعنى كثيرة والآداب جمة ولقد قال الشاعر قديماً

سابق الى الخيرات اهل العلى فانما الناس احاديث
كل امرىء في شأنه كادح فوارث منه وموروث

﴿ الحكمة الثامنة عشرة ﴾

لاَ أَشْتَرِي شَيْئًا لَيْسَ عِنْدِي ثَمَنُهُ

كثيرون قد يتملك افئدتهم حب الظهور ومنافسة الاقران والنظراء في المقتنيات من الاثاث والرياش والحلي والثياب وغير ذلك فيقدمون على مشترى ما تشتهي عليهم انفسهم وتتوق اليه اهواؤهم واطماعهم ولو لم يكن عندهم ثمن ما يشتهون في الحال ارتكانا على السداد في الاستقبال وهذا من شر البلايا على الناس اذ تكثر عليهم الديون وتتراكم من جراء ذلك على النفس الوحول والهموم وهذه القاعدة الاقتصادية الرشيدة سبق بها النبي صلى الله عليه وسلم كل الاقتصاديين والاخلاقيين حيث ارشدنا في هذا الحديث الشريف والحكمة البالغة الى انه لا ينبغي للمرء وان جاز له ذلك شرعا ان يبتاع شيئاً لا حاجة له به وليس عنده ثمنه وما عنى الا الاحتراس من الوقوع في الديون والحذر من السقوط في تلكم الاحوال بل الاوحال التي يرزح تحت اثقالها كثير من الناس سفهاً وحماقة غير مقدرين للعواقب ولا متدبرين في الامور والانسان قل ان يغتبط في الحياة بغير تقدير ولا تدبير (شعر)

كن بما أوتيته مغتبطاً تستدم عيش القنوع المكتفي
ان في نيل المنى وشك الردى واجتناب القصد عين السرف
كسراج دهنه قوت له فاذا غرقته فيه طفى

وفي الحديث ايضاً « ما عال من اقتصد » والدين على كل حال شين بل رق ولذلك قال حكيم « الدين رقك فلا تبذل رقك لمن لا يعرف حقك » وجاء في الحديث الشريف ايضاً « أقلل من الدين تعش حراً »

﴿ الحكمة التاسعة عشرة ﴾

الجَمَالُ فِي الرَّجُلِ اللِّسانُ

الانسان في معاشرته لاخوانه ومعاملته لابناء هيئته مفتقر الى محادثتهم ومكالمتهم فان كان مهذب المقال حلو اللسان رقيق الجانب لا جرم احبه الناس وعظمه الخلطاء والجلاس فارشدنا النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث الى ان هذه الحال في المرء جمال له وكمال وليس المقصود به تحري الفصاحة والبلاغة تشدقا وتفيهقاً وانما اراد بهذا الجمال ما هو اسمى من ذلك وأعلى كعباً وهو ما عناه الشاعر بقوله :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالمرء اذا كمل له ادب نفسه ورجاحة عقله لا جرم نطق بالصواب لسانه وتسربلت بالمحاسن اقواله فاقبلت عليه الاسماع ومالت اليه الارواح بعكس البذيء الفحاش وان كان قس الفصاحة وذاك باقل العي

﴿ الحكمة المتممة للعشرين ﴾

لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغْدُو إِلَى الجَبَلِ فَيَحْتَطِبَ فَيَبِيعَ فيأكلَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ

السعي في طلب الرزق عتاد الحياة والعمل على المعاش أس العمران لانه قوام الحياة الفردية والاجتماعية وبه نظامها في جميع العالم فلذلك جاء الحث على العمل وترك التواني والاماني في جميع غرر آداب البشر وان العمل مهما حقر وصغر فهو أفضل من البطالة وسؤال الناس حتى قال عمر بن الخطاب «مكسبة في دناءة خير من سؤال الناس» وقال بعض الحكماء «لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان فالكريم محتال والدنيء عيال» فالحديث يرمي الى أشرف الاغراض واكرم الاحوال من حيث السعي على المعاش والحث على العمل وطلب الرزق وانه لا ينبغي للمرء القادر ان يرضى بان

يكون عالة على المجتمع يتكفف ويسأل الناس وهو أمر مزدري محتقر خير منه احقر أحوال السعي مثل الاحتطاب ونحوه فيجمع الحطب من الجبل فيبيع منه ويأكل ومن شر الاحوال من هذا القبيل الكسل والتعلل بالاماني والترفع عن كثير من الاعمال النافعة أملاً في نيل ما هو أشرف منها في اعتبار بعض الاوهام فتضيع على المرء أوقاته ويزداد قعوده وخلوده الى الاماني وتخور عزيمته وينتهي به الحال الى البطالة والكسل والحمق والرذيلة وابو تمام يقول

من كان مرعى همه وهمومه روض الاماني لم يزل مهزولاً

﴿ الحكمة الحادية والعشرون ﴾

قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ

هى كلمة حكمة قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لثعلبة ابن حاطب أحد الصحابة عند ما قال له « ادع الله يرزقني » ولا غرو فان المال الوفير والنشب الكثير كثيراً ما يطغي صاحبه ويكثر مشاغله ويضيع عليه هناء نفسه وراحة باله اذا لم يحسن التصرف فيه والتدبير له ووضعه مواضعه وصرفه في مصارفه وهو لعمري معنى لا تطيقه بعكس القليل فان صاحبه يبقى دائماً

محتاطاً لنفسه عاملاً على تدبير أمره واصلاح شأنه قليل الهموم مع ذلك خفيف الحمل ناهيك اذا كان ممن يتصفون بالتقوى والورع فانه بلجائه الى الله وشكره له تعالى على ما رزقه وميله الى القناعة والزهادة يكون بمأمن من الزلل والعثار على قدر الامكان متصفاً بأحسن الاحوال الاخلاقية والمعاشية في كل أين وآن وكم من غني فقير بحرصه ومشاغله وفقير غني بقناعته وراحة باله قال الشاعر أبو العتاهية :

اذا القوت تأتى لك والصحة والامن
واصبحت اخا حزن فلا فارقك الحزن

﴿ الحكمة الثانية والعشرون ﴾

إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى كَرِيمٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ ٱلْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا

من أفضل الاخلاق وأكرم الصفات الكرم اي الجود والله سبحانه وتعالى هو أكرم الاكرمين فلذلك يحب من عباده الاتصاف بالكرم الشامل للجود والسخاء وما جرى مجراه من الخلال كما انه يحب معالي الاخلاق من الشجاعة والعفة والعدل والحكمة ويكره لعباده الاتصاف باضداد ذلك من الخصال

والاحوال الحقيرة المسترذلة ومدار الآداب الاسلامية في القرآن والحديث انما تدور حول هذا المحور على انه يجب على المرء على كل حال أن يجاهد نفسه حتى يكسبها المعالى ويلبسها رداء المحامد ويخلع عن جيده اغلال الرذائل وهو مركب قد يكون ذلولاً اذا وسط الانسان عقله ولم يعط نفسه في كل ما تشتهى مناها ومن حكم اكثم بن صيفي لولده « يا بني ذللوا أخلاقكم للمطالب وقودوها على المحامد وعلموها المكارم ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم وصلوا من رغب اليكم وتخلقوا بالجود يلبسكم المحبة ولا تعتقدوا البخل فتعجلوا الفقر »

﴿ الحكمه الثالثة والعشرون ﴾

لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ وَلاَ الفَاحِشِ وَلاَ البذيء

من اوصاف الكاملين في الايمان الكاملين في الآداب الترفع عن هذه الارجاس والتعالي بالنفس عن تلك الادناس من الشتم والسب واللعن وفحش القول وبذاءة اللسان لانها كلها عيوب محقرة لصاحبها مشينة للمتصف بها فالحديث الشريف يرشدنا الى ان المؤمن الذي أشرب قلبه حلاوة الايمان والاسلام ليس من أخلاقه ولا من شيمته الطعن اي

الوقوع في اعراض الناس بنحو ذم او غيبة او نميمة ولا هو ذو فحش في منطقه ولا نقيصة في اقواله وافعاله فلا تنطق شفتاه ببذاءة ولا يأتي لسانه بدنيئة ولقد جاء في حديث آخر صحيح « ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء وان احسن الناس اسلاماً احسنهم خلقاً » وقال الحسين بن مطير يفتخر بآدابه من هذا القبيل :

احب مكارم الاخلاق جهدي ... واكره ان اعيب وان اعابا
واصفح عن سباب الناس حلماً ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

﴿ الحكمة الرابعة والعشرون ﴾

لاَ إيمَانَ لِمَنْ لاَ امَانَةَ لَهُ وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لهُ

المؤمن المخلص الايمان الكامل فيه من تورع فلازمته الامانة في المعاملات كلها فامنه من ثم الخلق على اموالهم وانفسهم وكذا من صفة الدين التقي ان يفي بعهوده ويبر بوعوده فلا يماطل ولا يخلف وعداً فاذا تجرد المرء من الامانة وسلب الوفاء بالعهود والبر بالوعود فمها كان اتصافه بالايمان والدين لا يكون لعمري كاملا في ذلك لا عند الله ولا عند الناس بل كان احرى

بان يوصف بما جاء في هذا الحديث « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أئتمن خان » وانها لسبة عظيمة بين الناس وجريرة ظاهرة الاثر في الهيئة الاجتماعية واثم عند الله لو يعلم الناس عظيم

اخلق بمن رضى الخيانة شيمة ان لا يري الا صريع حوادث

ما زالت الاراء تلحق بؤسها أبداً بغادر ذمة او ناكث

﴿ الحكمة الخامسة والعشرون ﴾

إِيَّاكُمْ والْحَسَدَ فإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ .

الحسد حب زوال النعمة عن المنعم عليه بها وهو امر مكروه ممقوت مفسد لحال الحاسد مضيع عليه صوابه في دنياه ودينه لانصرافه عن اصلاح حاله الى الحط من شأن الغير والعمل على الاضرار به وازالة نعمته بغياً وحسداً مما قد يضر به دون المحسود فالحديث الشريف يبين لنا ان هذه الحال النفسية السيئة التي تمنى بها بعض النفوس لعجزها قد تفسد عليها اعمالها وتذهب بحسناتها حتى انها لتأكلها كما تأكل النار

الملتهبة الحطب اليابس ، والحسد غير الغبطة اذ الغبطة حب نيل النعم بلا كراهة لوجودها ودوامها على المغبوط وانما يشتهي المرء لنفسه مثلها وهي مفيدة لانها قد ترشد المرء الى خير السبل غالباً وفي الحسد يقول شيخ المعرة

ان كان قلبك فيه خوف بارئه فلا تجاور حذار الله بالحسد

﴿ الحكمة السادسة والعشرون ﴾

دَعْ مَا يَرِيبُكَ الَى مَالاَ يَرِيبُكَ فإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ والكَذِبَ رِيبَةٌ

اى اترك ما تشك في كونه حسناً او قبيحاً او لا تدرى ان كان حلالاً او حراماً ضاراً او نافعاً صدقاً او كذباً حتى تكون دقيقاً فى امرك يقظاً في شأنك واستمسك بما لا تشك في كونه حسناً صحيحاً متيقناً حله معتقداً صدقه فان الصدق في القول والتدقيق في العمل طمأنينة تطمئن بها النفوس وتسكن اليها القلوب بعكس الكذب والبهتان فانه ريبة اى شك يقلق منه القلب ويضطرب له الوجدان وتشوش الاعمال فالحديث يدعو الى اكرم الاحوال المنجية للانسان المعينة للعقل على

الخلاص من كثير مما يعرقل طريقه ويضله السبيل من الريب والشكوك والكذب والسماع له ولله در الشاعر حيث قال

والناس شبه ظروف حشوها صبر وفوق افواهها شيء من العسل
تحلو لذائقها حتى اذا انكشفت له تبين ما تحويه من زغل

﴿ الحكمة السابعة والعشرون ﴾

مِنْ حُسْنِ اسْلَامِ المَرءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ .

كثير من الناس لا تنصرف احاديثهم بل وهمهم الا فيما لا فائدة لهم منه البتة من القيل والقال وهذا فيه مضيعة لاوقاتهم وصرف لهممهم فيما لا يجديهم نفعاً ولا يهمهم منه شيء في معاش او معاد فهذه الحكمة النبوية الشريفة تدلنا على ان من حسن اسلامنا وكمال ايماننا ان نترك مالا يهمنا ولا يعنينا من القيل والقال واشتغال البال بامر الغير واحوال الناس وكثرة اللاجاج والحجاج في التافهات ولقد حد الغزالي ما لا يعني بانه مالو ترك لم يفت به ثواب ولم ينجر به ضرر ولعمري فان من اقتصر على هذا في حاله وكلامه قل كلامه وصلح حاله وحاسب نفسه ولم يضع أوقاته ونال سعادته

اذا شئت أن تحيي عزيزاً مسلماً فدبر وميز ما تقول وتفعل

﴿ الحكمة الثامنة والعشرون ﴾

خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي .

من تمام الادب الانساني أن يحسن المرء معاشرة أهله وأفراد أسرته وذوي عشرته بحسن القيام عليهم والتدبير لامرهم والتلطف بهم لتصفو لهم وله معيشته ويحصل له ولهم الهناء ولقد جاء في حديث آخر « ان من أكمل المؤمنين إيماناً احسنهم خلقاً والطفهم بأهله » فهذا الحديث وأمثاله بحثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الادب الواجب يقول ان أفضلكم من أحسن معاشرة أهله من الزوجة والولد وذوي القرابة ونحوهم ولما كان لنا في رسول الله القدوة الصالحة والاسوة الحسنة لا جرم ابن لنا انه كان خير الامة الاسلامية كلها فى أدب معاشرة الاهل وذوي العشرة ليزيد في حثنا على الاقتداء به ولنا فيه لعمري الاسوة الحسنة كما قال الله تعالى « ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »

﴿ الحكمة التاسعة والعشرون ﴾

اِيَّاكُمْ والجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ فَانْ أَبَيْتُمْ الاَّ المَجَالِسَ

فاعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا غَضُّ البَصرِ وكَفُّ الأَذى وَرَدُّ السَّلَامِ والأَمْرُ بالمَعْرُوف وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ .

اعتاد كثير من الناس الجلوس في الاسواق وعلى قارعة الطرق في أوقات الفراغ تسلية للنفس وترويحاً للصدر من عناء الاعمال ولكن كثيرين منهم قد يجرهم ذلك الى ما يفسد الاخلاق ويحط بالشرف ويخدش الناموس فالحديث يحذرنا من هذه المجالس ويحظرها علينا ويقول ان كان لا بد لكم من ذلك تسلية للنفس فاعطوا الطريق حقها أي أدبها المفيد لكم ولهيئتكم الاجتماعية بأن تغضوا البصر عن النظر الى النساء المارات ولا تؤذوا السابلة بلسانكم او عملكم او تسدوا الطريق على الناس وان تردوا السلام على من سلم عليكم وان رأيتم شيئاً منكراً فانهوا عنه وامروا بالمعروف ولعمري ان الناس لو عملوا بهذا الحديث وتمسكوا بأدبه لكان في ذلك اعظم فائدة للهيئة الاجتماعية في آدابها العامة والخاصة بعكس ما هو حاصل الآن من شغف الناس وميلهم الى الجلوس في القهوات على قارعة الطرق مما فيه الخسار والاضرار والتأثير في الاخلاق ولقد جاء في حديث آخر « شر المجالس الاسواق والطرق وخير المجالس

المساجد فان لم تجلس في المسجد فالزم بيتك »

﴿ الحكمة المتممة للثلاثين ﴾

اِنَّ أَكْبَرَ الإِثمِ عِنْدَ اللهِ أَنْ يُضَيِّعَ الرَّجُلُ مَن يقوتُ .

لقد يبلغ فساد الاخلاق ببعض الناس ان يهمل بيته ومن تلزمهم نفقته من زوجة او ولد او والد ووالدة وينفق ماله في اللهو واللعب واتباع الشهوات والزينة الى اشباه ذلك وهو الامر الواقع الآن كثيراً من بعض من لا خلاق لهم فيكثر الفساد في الهيئة الاجتماعية وتضيع كثير من الانفس البريئة من النساء والاطفال والشيوخ فالحديث الشريف يحظر هذا الامر ويقول صراحة ان هذا الفعل القبيح من أعظم الذنوب بل هو اكبرها عند الله وكفى بالمرء اثماً ان يضيع من يقوت كما جاء في حديث آخر

﴿ الحكمة الحادية والثلاثون ﴾

اذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ الى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ والخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ الَى مَنْ هوَ أَسْفَلُ مِنْهُ .

اعتادت الناس ان تغبط ذوي اليسار وارباب الجاه والثراء

والقوة وان يكثروا من ذكرهم وترديد اسمائهم واحوالهم ويشغلهم
ذلك عما قد يكونون عليه هم من أحوال هنية ربما لم تكن
لاولئك الاغنياء وأرباب الجاه فتتنغص عليهم عيشتهم فدواء
ذلك ان ينظر المرء اي يقارن ايضاً بين حاله وحالة من هو اقل
منه درجة في المال والجاه والعافية فبذلك ترتاح نفسه ويعلم
مقدار نعمة الله تعالى عليه وان من هم دونه اي اكثر منه عناء
وشقاء في العالم اكثر ممن فضلوا عليه فتهدأ من ثم نفسه وتطيب
وتشكر على ما هو لاحق بها من النعم والسعادة فتسر بذلك
وتنشط في العمل . وقال العالم ابن بطال كما في شرح العزيزي
على الجامع الصغير مانصه: هذا الحديث جامع لمعاني الخير لان
المرء لا يكون بحال يتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها الا
وجد من هو فوقه فمتى طلبت نفسه اللحاق به استصغر حاله
فيكون ابدا في زيادة . ولا يكون على حالة خسيسة من الدنيا
الا وجد من اهلها من هو أحسن منه حالا فاذا تفكر فى ذلك
علم ان نعمة الله وصلت اليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك
من غير أمر أوجبه فيلزم نفسه الشكر فيعظم اغتباطه بذلك
في معاده » وقال غيره « في هذا الحديث دواء الداء لان

الشخص اذا نظر الى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدا ودواؤه ان ينظر الى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعية الى الشكر » وجاء في الحديث ايضاً «انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو اجدر ان لاتزدروا نعمة الله عليكم »

﴿ الحكمة الثانية والثلاثون ﴾

إِذَا ظَهَرَ ٱلزِّنَى وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ فَقَدْ أَحلُّوا بأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ ٱللهِ

الزنى والربا من كبائر الذنوب المنهي عنها في القرآن المجيد لانها من شر الآثام واشأمها على الناس ومعلوم ان العذاب في الذنوب الكبائر غير قاصر على القصاص والعقاب الاخروي بل هو مما يعجل فتشاهد آثاره السيئة في فساد أحوال الناس واضطراب امورهم وتشويش فهومهم وارتباك شؤونهم وضياع أموالهم وسقم ابدانهم وفساد احوال ذراريهم فمعنى الحديث ان هذين الاثمين الكبيرين والوزرين العظيمين اذا فشيا في هيئة اجتماعية فقد احلت بنفسها عذاب الله أي تسببت في وقوعه بها وتعجيله عليها لمخالفتها بارتكاب هذين الاثمين الخطرين الحكمة

الآلهيـة في حفظ الانساب والاموال بالربا الفاحش وخرق حرمة الناموس ناموس العفة في الاعراض والاموال فتحدث ردود فعل ضارة ونحن لو نظرنا بعين الناقد البصير في الاحوال الاجتماعية الراهنة لرأينا ان ما الناس واقعون فيه من فساد الاحوال الاجتماعية والاقتصادية انما سببه فشو امثال هـذه الرذائل الحالقة وهم غـير ابهين لها ولا مكترثكين تعلة بالاماني واتكالا على سعة الرحمـة وما انتظار الرحمـة بالاصرار والتماس المغفرة بالعصيان الا خطة سخف وذريعـة لبس سولتها اهواء النفوس والجهـل بالحقائق الدينية والاجتماعيـة وما يترتب على مخالفتها من الخسران في العاجل قبل الاجل

تعزز بابعاد المعاصي ورفضها ... فما العز الا في الفرار من الذنب
وثابر على تقوى الاله فانها ... نجاة لباغيها من المركب الصعب
وكن طائعاً لله في كل حالة ... تجد لذة الدارين ان كنت ذا لب

﴿ الحكمة الثالثة والثلاثون ﴾

انّي احَرِّجُ عَلَيْـكُمْ حقَّ الضَّعيفَيْنِ الْيَتيمِ وَالْمَرْأَةِ

التحريج التضييق والتحريم واليتيم من مات أبواه أو أحدهما وهو صغير فصار في كفالة غيرهما وتحت وصاية سواهما

في نفسه وماله حتى يكبر والمرأة مثل الزوجة والاخت والمطلقة والارملة الى ما يشبه ذلك وحقوقها من نحو صداق أو نفقه او ميراث او مال مشترك فلئن كانت الحقوق كلها متساوية في الحرمة والتحريج فان تخصيص التحريج بحقوق اليتيم والمرأة لضعفهما إعاجاء لمزيد العناية بهما حتى لا تغتال حقوقهما ولا تبدد أموالهما اذا لزمتنا أو وضعت في رقابنا ووكلت الى عهدتنا فنعمل فيها بالسهر والتشدد في الحفظ والصيانة ولكن كم الناس عاملون الآن بذلك موفون بالحقوق فيه لعمري ان احوالنا في ذلك ومشاكلنا من جرائره اكثر من ان تحصى مما جعلنا في واد وما ترمي اليه آدابنا الاسلامية وشريعتنا الغراء في واد آخر ، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم تنزيله « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »

﴿ الحكمة الرابعة والثلاثون ﴾

الكَيِسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لمَا بَعْدَ المَوْتِ والعَاجِزُ مَنْ أَتْبعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى على اللهِ الاَمَانِي .

المرء الرشيد العاقل التقي يجعل نصب عينيه تذليل نفسه

وتنشيطها في العمل المقرب الى الله سالكا في ذلك سبيل الاخيار العاملين والابرار المجدين بعكس الكسل الوكل الذي يتبع شهوات نفسه ثم يكثر من الامانى الكواذب فمعنى الحديث ان الكيس اي العاقل المستبصر الراغب حقيقة في الخير من دان نفسه اي حاسبها وذللها على الخيرات فى المعاملات والطاعات حتى صارت لها ملكة راسخة وجعل نصب عينيه مخافة الله تعالى ورجاء ثوابه الاخروي أما العاجز اي المقصر الغافل فهو من اتبع شهوات نفسه الامارة بالسوء فلم يكفها ولم يبصرها في العواقب ثم جعل همه مع تقصيره وتفريطه فى الطاعات والخيرات التمني على الله ان يعطيه ويصلح حاله ويعفو عنه قال الغزالي رحمه الله وهذا غاية الجهل والحمق أورده الشيطان في ضمن الدين وقال الدميري « فائدة هذا الحديث تنبيه العبد على التيقظ للموت والاستعداد له بحسن الطاعة والخروج من المظالم وقضاء الدين والوصية بما له وما عليه »

وقال الشاعر :

واعلم بانك لن تسود ولن ترى طرق الرشاد اذا اتبعت هواكا

﴿ الحكمة الخامسة والثلاثون ﴾

كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فالإِمَامُ
رَاعٍ وَهوَ مَسئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ والرَجُلُ رَاعٍ في أهْلِهِ وَهوَ
مَسئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ والْمَرْأَةُ رَاعيةٌ في بَيْتِ زَوْجِهاوَهِيَ مَسْئُولَةٌ
عَنْ رَعِيَّتِها والخادِمُ رَاعٍ في مال سَيِّدِهِ وهوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ
والرَجُلُ رَاعٍ في مَالِ أبيهِ وهوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَكُلُّكُمْ
رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ

هذا الحديث جامع لاعظم قاعدة عمرانية عليها مدار
حفظ الحقوق والقيام بالواجبات من حيث الامانة والحفظ
والعدل وفيه تشبيه الاحوال الاجتماعية بالحكومة في سياستها
وتدبيرها دلالة على اهميتها وعظم عبئها حتى في اصغر امورها .
فالامام اي الحاكم راع مسؤل اي مطالب بحقوق رعيته بالسهر
على مصالحها واقامة العدل بينها والرجل في بيته راع ملزم بوفاء
حقوق اهله واولاده من نفقة وكسوة وتربية والمرأة في بيت
زوجها راعية مطالبة بحسن تدبيره وتربية اولادها وتحسين
عيش زوجها والامانة له والخادم المؤتمن على مال سيده مسؤل

عنه بحفظه والقيام بما عهد اليه فيه خير قيام وكذا الولد المؤتمن على مال والديه راع فيه ومطالب بحسن تدبيره ثم عمم مرة اخرى فقال فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ليدخل في العموم حتى المنفرد الذي لا زوج له ولا ولد فانه لعمري راعي نفسه ومسئول عن رعيته بحسن التصرف في نفسه وماله بعمل المأمورات واجتناب المنهيات

﴿ الحكمة السادسة والثلاثون ﴾

لَوْ أَنَّكُمْ توَكَّلُونَ على اللهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ لَرَزَقَكُمْ كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وتَرُوحُ بِطَاناً

الطير من انشط الحيوان في السعي على ارزاقها والتبكير في طلب اقواتها بنظام عجيب وترتيب غريب حتى ان منها ما يصيف في بقاع بعيدة وتحل شتاء اصقاعا مترامية مع نشاط وخفة ونغاء وطرب في غدوها في الصباح خماصا اي خاوية ورواحها في المساء بطانا ممتلئة الحواصل مما كدحت له وسعت في التقاطه من الحبوب والاقوات فهى لا جرم على افضل حال في التوكل بالسعي لا كما يفهم البعض في معنى الحديث الشريف حتى قال البيهقي « ليس في هذا الحديث دلالة على

القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق لان الطير اذا غدت فانما تغدو لطلب الرزق دائما اراد والله اعلم لو توكلوا على الله في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا ان الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا الا سالمين غانمين كالطير تغدو خماصا وتروح بطانا لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ويغشون ويكذبون ولا ينصحون وهذا خلاف التوكل ،

وفي التوكل والسعى يقول الشاعر :

توكل على الرحمن في الامر كله
ولا ترغبن في العجز يوما عن الطلب
ألم تر ان الله قال لمريم
وهزي اليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء ان تجنيه من غير هزه
جنته ولكن كل رزق له سبب

﴿ الحكمة السابعة والثلاثون ﴾

مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ

المنكر كل ما خالف الشرع والعرف الصحيح من الامور

الاجتماعية والاحوال الانسانية فكل هذا ازالته واجبة والنهى عنه أمر لازم فلذلك وجدت له التعازير والقصاصات الشرعية والوضعية في الامم كما وجدت للشرور في الآداب العامة القومية القصاصات الادبية حتى تلاشي من الهيئة وقررت الحسبة في الاسلام لتلك الغاية من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما امر به في القرآن المجيد فالحديث يبين لنا ادب ذلك بان ما نقدر على تغييره باليد بدون اذى لاحد فعلناه وان كان مما لا قبل لنا به نبهنا عليه باللسان فان لم نستطع لا هذا وذاك انكرناه بقلوبنا واستهجناه في نفوسنا حتى نخرج من اثمه ولا نقع في خطيئته ثم قال وذلك اضعف الايمان دلالة على ان الشجاعة الادبية في السعي بالنفس والمجاهرة باللسان لازالة المنكر من افضل الايمان واعظمه لانه ذب عن الحق وازاله للشرور عن المجتمع ولذلك جاء في حديث آخر « مرّوا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل ان تدعوا فلا يستجاب لكم » على انه قد ابتكرت الآن طرائق لازالة المنكر والشرور من الطف ما ذهبت اليه العقول اعني به مثل جماعات ابطال المسكرات ومقاومة المنكرات الى اشباه ذلك مما هو بالغ حد الكمال في الغرب

﴿ الحكمة الثامنة والثلاثون ﴾

إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ فجاء ذَا بعُودٍ وَجَاء ذَا بعودٍ حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ

قد يستصغر المرء امورا معيبة تتسرب الى نفسه فيستهين بها ولا يأبه لها ويعدها من الصغائر المغتفرة ولكن هذه الصغائر قد تولد الكبائر أو تعظم وتتأصل في النفس حتى تصير من كبائر الذنوب فتضر بصاحبها - ومعظم النار من مستصغر الشرر - فمعنى الحديث احذروا صغار الذنوب التي تحتقرونها ولا تأبهون لها فانها قد تؤدي بكم الى كبارها ثم ضرب لذلك مثلا بليغاً بقوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود من الحطب وذا بعود حتى جمعوا من الحطب كفايتهم لايقاد نار عظيمة انضجوا عليها خبزهم وطعامهم فأكلوا وشبعوا أي ان تلك المساعي الصغيرة انتجت لهم شيئا عظيما استوفوا منه حظوظهم وشبع بطونهم فكذلك مرتكب الصغائر أو غير الآبه لها فيما يقوم به من

الافعال والاقوال قد تعظم وتستحكم فيه تلك الصغيرات حتى تصير له ملكة راسخة وسبيلا الى الهلكة والخسار وانت خبير انه إنما يقصد به الحث على عدم التهاون في اتقاء الرذائل صغيرها ككبيرها ومحاسبة النفس على جليلها وحقيرها حتى يستقيم عودها وترجع بالتوبة والاقلاع عن الشرور جهدها والا ضلت طريق الهدى واظلم نورها بعد الضياء ولقد جاء في حديث آخر « ان العبد اذا أخطأ خطيئة نكتت نكتة سوداء فى قلبه فان هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وان عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو الران الذي ذكر الله « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »

﴿ الحكمة التاسعة والثلاثون ﴾

مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا أشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَهَرِ وَالحُمَّى

التضامن في الهيئة الاجتماعيـة في كل الاحوال لازم اسلامتها بحيث لو اختل فرع من فروع مقومات حياتها الحسية

والمعنوية ظهر أثر ذلك محسوساً في سائر الفروع الاخرى . وهذا الحديث ونحوه يدلنا على ان الاسلام سباق في معرفة اسرار الحياة الاجتماعية أي العمران البشري والديمراطية الصحيحة والآداب العامة الراقية من حيث الحض على التعاضد والتواد والتراحم والتحاب لان الهيئة الاجتماعية كرجل واحد اذا مرض عضو من جسمه اضطربت له سائر الاعضاء واختلت بنيتها لما هناك من الارتباطات والاتصال في تحمل الضرر ولقد جاء في حديث آخر ما نصه « ان حقاً على المؤمنين ان يتوجع بعضهم لبعض كما يألم الجسد الرأس » وفي حديث آخر « المؤمنون كرجل واحد ان اشتكى رأسه اشتكى كله وان اشتكى عينه اشتكى كله » فالضرر اللاحق باي فريق يتأثر منه الفريق الآخر من ابناء الهيئة فوجب ان تسير الهيئة على منهج عدل وأمر سوى وتلاطف وتعاطف حتى لا يختل نظامها ولا تنوء باحمال نفسها المرهقة المهلكة اذا لم تدرك بالعلاج الصحيح ونحن لو سألنا العمرانيين والمنادين بالانسانية وحقوقها العامة لما رأيناهم تخطوا هذه القاعدة فيما بنوا عليه كثيراً من نظرياتهم الاجتماعية والاقتصادية ومدارها في الغالب على ان

الانسانية كجسم واحد ولا بد لهـذا الجسم ان تؤدي اعضاؤه وظائفها على التمام وتنال حقوقها موزعة كذلك وبذلك يعتدل مزاج العالم وترتاح هيئآته الاجتماعية وطوائفه وافراده ولا تنوء جماعاتهم تحت اثقال تضر بالكل بسبب ما قد يلحق من الضرر بالجزء

﴿ الحكمة الاربعون ﴾

إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ

اصول الكسب ثلاثة الزراعة والصناعة والتجارة وهي موارد حياة البشر وكلها ممدوحة مشكورة في الاحاديث والآثار وزاولها الصحابة والتابعون والناس أجمعون لانها مورد عيشهم ومصدر رزقهم فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل اطيب ما يأكل الانسان مما كسب بيده وسعى فيه بنفسه وحيث ان الولد ثمرة من ثمرات غرس الانسان فلا جرم كان من كسبه وتعبه في تربيته فلذلك كان من حقوق الوالدين في حالة الحاجة ان يأكلا من مال ولدهما حتى جعل الامام الشافعي نفقتهما واجبة عليه

وفي هذا الحديث ضمناً الحث على احسان تربية الاولاد حتى يكونوا غرساً صالحاً وكسباً نافعاً

﴿ الحكمة الحادية والاربعون ﴾

إِيَّاكَ وَمُشَارَّةَ النَّاسِ فَإِنَّهَا تَدْفِنُ الغُرَّةَ وَتُظْهِرُ العُرَّةَ

من الناس من قد يتصف بالشراسة والشكاسة فيؤذي بمساويه الناس فتخفى فضائله وتمحي محاسنه ويسقط اعتباره بينهم فهذه الحكمة النبوية الشريفة تحذرنا هذه الخصلة الذميمة خصلة مشارة الناس وان لا نفعل بهم شراً حتى لا يفعلوا بنا مثله فضلاً عن ان اشتهار المرء بذلك يدفن غرته ان يخفى حسناته واعماله الصالحة عندهم شبه بغرة الفرس ويظهر العرة أي القذر الدنس استعير للعيب والنقائص التي يأتيها من هذه خصلته ولقد جاء في حديث « ان شر الناس من اتقاه الناس خشية فحشه أو شره » كما جاء في احاديث أخرى وجوب مداراة الاشرار والسفهاء ليكمل للمرء الرشيد ادبه وتظهر فضائله وينال سعادته

﴿ الحكمة الثانية والاربعون ﴾

إِنَّ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ بِكُلِّ وَادٍ شُعْبَةٌ فَمَنْ أَتْبَعَ قَلْبَهُ الشُّعَبَ كُلَّهَا لَمْ يُبَالِ اللهُ تعالى بأيِّ وادٍ أَهْلَكَهُ ومَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ الشُّعَبَ

ان مشاغل الانسان في العالم كثيرة ومنازع نفسه ومناهجه مختلفة فهو ما دامت له الحياة معلق القلب مشغول الفكر بتلك المشاغل والشهوات مهموم النفس بها فان لم يجعل له خطة ويرسم له طريقاً ينتهي الى الركون على جانب الله بالتوكل والخشية والتزام الحدود قادته اهواؤه الى التلف والبوار لتشعب تلك الاهواء وخطل النفوس فيها فهذا الحديث يرشدنا الى ابلج نهج في الحياة نقف عنده ونستمد من امداده يقول عليه الصلاة والسلام ان قلب ابن آدم بكل واد شعبة أي له في شؤون الحياة ضروب من الفكر كثيرة مختلفه باختلاف الاغراض والشهوات فمن اتبع قلبه الشعب كلها أي صرف قوي نفسه وفكره في حظوظه المتنوعة واهوائه المختلفة غير مبال بحقوق الله ولا ملتزم حدوده ولا خاش بأسه لم يبال الله باي واد اهلكه أي انه يضل

في تلك الاودية النفسية السحيقة حتى يناله منها العطب والهلكة قصاصاً منه تعالى على ما فرط في جنبه بتماديه فى غروره واتباع شهواته بعكس من اعتدل فيها وجعل معتمده خالقه وملجاه شريعته وهاديه أدبه فانه لعمري يكيفه مؤونة حاجاته المتشعبة ويوفقه الى خير السبل وآمن الطرق واقسطها واعدلها واحسنها

﴿ الحكمة الثالثة والاربعون ﴾

اتَّقُوا اللهَ فِي هَـذِهِ البَهَائِمِ المُعْجَمَةِ فاركَبُوها صالِحَةً وكُلُوها صالِحَةً

الشفقة على الحيوان الاعجم من أعظم ماحث عليه الشارع الحكيم ولقد جاء فى ذلك أحاديث كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم ما معناه (ان امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هي اطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الارض) وكقوله فى حديث آخر ما نصه (غفر لله لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي [بئر] يلهث كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك) ومعنى الحديث الذي نحن بصدده خافوا عقاب الله واشفقوا على هاه البهائم المعجمة الخرساء التي تسخرونها ولا تقدر على النطق والشكوى

من الجوع والعطش والتعب والنصب فاحسنوا ركوبها وتحميلها وعلفها وكلوا ما يؤكل منها صالحة أي سليمة سمينة ولقد جاء فى حديث آخر الحث على العناية باناث الحيوانات الاهلية للنتاج

﴿ الحكمة الرابعة والاربعون ﴾

إِيَّاكُمْ والْكِبْرَ فَإِنَّ الْكِبْرَ لَيَكُونُ في الرَّجُلِ وَانَّ عَلَيْهِ العَبَاءة

الكبر من الرذائل النفسية والآفات التي تضر بصاحبها وليس هو خصيص بالاغنياء وأرباب الجاه بل الكبر قد يكون في اصاغر الناس كما ترى في هذا الحديث الذي ينهانا عنه لانه يضر بالمتصف به في معاشه ومعاده ويذهب بمحاسنه وفضائله ويسقطه فى اعين الناس و يمقته الله تعالى من اجله لتجبره وتكبره ولقد جاء في موعظة أخرى نبوية « اجتنبوا التكبر فان العبد لا يزال يتكبر حتى يقول الله اكتبوا عبدي في الجبارين » والجبار هو المتكبر العاتي، وليس الكبر في شيء من شمم النفس وترفعها بل هو حال قد يدركها كل من عاني احوال الناس وسبر اغوار اخلاقهم وطباعهم بالخلطة وليس أحسن من التواضع في غير مذلة

﴿ الحكمة الخامسة والاربعون ﴾

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَخَامَةِ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَتْهَا فَإِذَا سَكَنَتْ إِعْتَدَلَتْ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكْفَأُ بِالْبَلَاءِ ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللّٰهُ تَعَالَى إِذَا شَاءَ

الانسان في هذا العالم عرضة للمحن والفتن ومغالبة الامور وتذليل الصعاب في الحياة فاذا كان عاقلاً رشيداً تحايل في التماس المخارج متمسكا باهداب الحق بالرفق واللين لا بالعنف والشدة حتى تصفو له الامور وتطيب له الاحوال ويأمن جانب الزلل والعثار بعكس الاحمق المتصلب فانه كثير الزلل سريع العطب ، ومعنى هذا الحديث الجليل الذى يعلمنا أجمل الاحوال في مناهج السلوك في الحياة وأكمل الآداب في ذلك ان المؤمن الصادق الايمان مثله في أخذه الامور بالرفق واللين كمثل خامة الزرع أي الطاقة الغضة اللينة التي لم تشتد من النبات فيلتجيء إلى الله ويتلطف في أحوال الشدة والبلاء التي تصيبه كما تكفئ الريح خامات الزرع ولكنها للينها لا يكسرها اشتداد

هبوبها فاذا سكنت تلك الرياح الشديدة والعواصف العاتية قامت الخامات على أصولها سليمة نقية . اما الفاجر اي العنيد المتصلب فلا يلين ولا يلجأ الى الله فيوقعه تصلبه في الخطأ والزلل فتدهوره المصائب كالارزة وهي شجرة الصنوبر فانها لصلابتها وعدم ميلها مع الريح حيث تميل كثيراً ماتقتلعها الريح وتذهب من الارض ريحها وعلى مثل هذا الحديث بني لافنوتين احدى خرافاته الشعرية الحكمية وقد نقلت الى العربية (١)

﴿ الحكمة السادسة والاربعون ﴾

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحْلَةِ إِنْ أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّباً وَإِنْ وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيِّباً وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى عُودٍ نَخِرٍ لَمْ تَكْسِرْهُ ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ سَبِيكَةِ الذَّهَبِ إِنْ نَفَخْتَ عَلَيْهَا احْمَرَّتْ وَإِنْ وُزِنَتْ لَمْ تَنْقُصْ

هذان مثلان جميلان أيضاً للمؤمن فشبه في الاول منهما بالنحلة تلك الحشرة المفيدة اللطيفة التي لا تأكل إلا من أطيب

---

(١) العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ للمرحوم عثمان جلال بك أحد أدباء العصر الماضي

الأزهار ولا تنتج إلا خير مأكول أى العسل وهي مع ذلك خفيفة الروح خفيفة الحمل لا تثقل بجسمها على ما تقع عليه وتحط من الغصون حتى انها اذا وقعت على عود نخر لم تكسره اشارة الى ان الممثل له حاله كذلك في العالم ومع الناس اية كانت أحوالهم ، ثم مثل للمؤمن أيضاً بسبيكة الذهب لعظم قيمته في نفسه وما تحوى من فضائل وان تلك السبكة مهما أوقدت عليها بالنار أحمرت ولكن كل ذلك لا ينقص من قيمتها ووزنها كذلك المؤمن الصادق مهما اعتوره من المحن والفتن والتجارب فلن يزعزعه ذلك ولن ينقص من قيمته في نفسه وما أبلغ هذا التمثيل وأحراه بالاتباع والاستماع لقوم يعقلون

﴿ الحكمة السابعة والاربعون ﴾

إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ ٱللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ

إنغماس الانسان في النعيم ورفاهية العيش ليس بالمشكور في جميع آداب البشر قديمهم وحديثهم لانها حالة تؤدى الى البطر والاشر والكسل وضعف البدن وهى في آدابنا الاسلامية ليست بالمشكورة وان جازت من الحلال الصرف لما فيها من المضار الآنفة وليست بالخصلة التي تشغل هم أولئك الذين يتحرون

الآداب الراقية الراغبين فى الكمال النفسي والدينى فلذلك
حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وقال انها ليست بالحالة
التي يجب أن تكون عادة لعباد الله الراغبين فى حسن ثوابه
واستكمال نفوسهم . ولعمرى فان مطاوعة النفس فى التنعم فى
المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك ليس بالامر المحمود لانه
فضلاً عما فيه من المضار التي يجرها على الذات يجر كذلك الى
السرف والسرف يجر الى الخراب الحسي والمعنوى

﴿ الحكمة الثامنة والاربعون ﴾

أَلسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ على الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ

الطاعة من أفضل الخلال لتمشية النظام واقامة الشرائع
واداء الحقوق والواجبات وادارة الشؤون العامة منها والخاصة
والا أصبح الناس فوضى وكل أمور العالم ما لم يكن فيها نظام
متبع وطاعة شاملة وكلمة مسموعة فسدت وعرتها الفوضى
فالحديث يدلنا على ان ديننا جمع أى حث على اكرم خلة اجتماعية

وان السمع والطاعة للنظام والشرع واجب على كل مسلم ولو كان فيهما ما يكره لانه ربما كان فيه مصلحة عامة لا تذكر فى جنبها مصلحته الخاصة لكن اذا تحقق للمرء ان فيما يؤمر به أو ينهى عنه أمراً يخالف الشرع وانه مما يعده من المعاصي فحينئذ ينبغي ان لا نسمع ولا نطيع تبعاً للقاعدة التي جاءت فى الحديث الآخر (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) والاحاديث في الطاعة كثيرة

﴿ الحكمة التاسعة والاربعون ﴾

اُجعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْحَرَامِ سِتْرًا مِنَ الْحَلَالِ مَن فَعَلَ ذَلِكَ اُستَبْرَأَ لِدِينِهِ وَمَنْ أَرْتَعَ فِيهِ كَانَ كَالْمُرْتِعِ إِلَى جَنْبِ الْحِمَى يُوشِكُ انْ يَقَعَ فِيهِ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى وَإِنَّ حِمَى اُللهِ فِي الأَرْضِ مَحَارِمُهُ

الحرام ماحرمه الشرع والحلال ما احله لنا وفيه مندوحة عن الحرام بحيث لم يكن فيما حرم شيء الا وفيما احله ما هو افضل واشرف منه ولا ينقص عنه مع ذلك في فوائده وملذاته ومسراته على ان معنى الحديث ان من جعل بينه وبين الحرام

حداً من الحلال كان ذلك اصون لدينه وورعه وسلامة عرضه من الذم الشرعي والعرفي ومن توسع في ملذات الدنيا وارتع فيها تطرف فيوشك ان يقع في الحرام كالذي يرتع الى جنب الحمى أي الشيء المحمي فيوشك ان يقع فيه وان لكل ملك حمى فقد كان ملوك العرب قديماً يتخذون أرضاً ذات مرعى او نحو ذلك يحمونها فلا يقربها احد. فحمى الله في أرضه ما حرمه على عباده فعلى العاقل ان يتقي المحارم ويتورع فيما احله الله الى حد محدود حتى لاتطوح به نفسه فيقع في الحرام

﴿ الحكمة الخمسون ﴾

إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قِيلَ وَمَا اسْتَعْمَلَهُ ؟ قَالَ يَفْتَحُ لَهُ عَمَلاً صَالِحاً بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مَنْ حَوْلَهُ

الاعمال الصالحة فى الدنيا كثيرة وهي ذاهبة كل مذهب في الشؤون الحيوية بين تجارة وصناعة وامارة فالله تعالى يهدي من عباده للخير فيها من يشاء من خلقه حتى يرضى عنهم من حولهم من الناس ويثنون عليهم من اجلها لتمام فضلهم ونفعهم

بها وتأديتهم حقوقها فالمرء الذي يوفق في عمله وينجح فيه ويشتهر بفضله بين الناس حتى يرضوا عنه ويكثر عمله بواسطة نفعه لهم فذاك لعمرى ممن ينطبق عليهم هذا الحديث الشريف فيعيش صاحبه نافعاً ويموت صالحاً مرضياً عنه من الناس ورب الناس (وخير الناس أنفعهم للناس) فيبرئون ذمتـه ويثنون عليه خيراً ويجيز الله سبحانه وتعالى شهادتهم

﴿ الحكمة الحادية والخمسون ﴾

سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ وَحُرْمَةُ مالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ

الشتم والقـذف والغيبة والنميمة ثم التطاول على النـاس بالضرب والأذية والقتال واغتصاب الاموال بالوسائل المحرمة السافلة كل هذا ممـا حرمه الشارع تحريماً صريحاً ووضعت له القصاصات الحقـة في الشرائع السماوية والوضـعية فالحديث الشريف يرشدنا الى أشرف القواعد الادبية اذ يقول ان من الفسوق أى الفجور والعصيان سباب المسلم والسباب أبلغ من السب لان السب شتم الانسان والتكلم فيه بما يعيبه والسباب أن يقول فيه بمـا ليس فيه واذا كان سباب المسلم من الفسوق فقتاله أى مقاتلته كفر عبر به مبالغة فى التحذير أو انه لو استحل

قتله كان كذلك وحرمة ماله أى عدم التعدى عليه في ماله بالاغتصاب والسرقة وما أشبه ذلك واجب كوجوب الحرج والمنع في اهراق دمه ونحن لو نظرنا في اخبار طبقاتنا الدنيا في الارياف من التعدى على اخوانهم بالشتم والتطاول عليهم بالاذية والقتل وانتهاب الاموال واغتصابها بالطرق غير الشريفة علمنا اننا لسنا لعمرى على شيء كبير من آداب ديننا القويم . ولقد جاء في حديث آخر كالتأييد لهذا الحديث (كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه. حسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم)

﴿ الحكمة الثانية والخمسون ﴾

إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ فِي الْبَيْعِ فَإِنَّهُ يُنْفِقُ ثُمَّ يَمْحَقُ

من اعظم الفضائل في البيع والتجارات الامانة والصدق وعدم الغش والخداع والحلف الكاذب ونحوه وان الصدق والامانة ليلزمان التاجر لزومهما لاكثر الناس تعرضاً لمعاملة الناس ولذلك جاء في حديث آخر (التاجر الامين الصدوق مع الشهداء يوم القيامة) لانه من اكبر المجاهدين للنفس عن الحرام وهو الجهاد الاكبر ومعنى الحديث الذى نحن فيه احذر

كثرة الحلف في البيع فانه يروج سلعتك قليلاً في الظاهر لكنه يؤول الى زوالها وخسرها في الحقيقة لان الله لا يرضى الغش والناس لا يقبلون على من يشتهر به . وفي حديث آخر « من غش فليس منا » وهو يشمل عمل التاجر وغير التاجر

﴿ الحكمة الثالثة والخمسون ﴾

خَيْرُ مَا يُخَلِّفُ ٱلرَّجُلُ بَعْدَهُ ثَلاثٌ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ وَصَدَقَةٌ تَجْرِي يَبْلُغُهُ أَجْرُهَا وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ

ما وجد الانسان في هذا العالم الا لينفع بالعلم والعمل واخلاف النسل ، فبالعلم يستفيد الناس وينتفعون أدبياً ومادياً، وبالعمل تحرز الاموال والمكاسب التى هي قوام الهيئة وبها صلاحها وما يجري من أعمال البرّ الجارية ، وبالذرية واصلاح تربيتها وتعليمها يقوم الخلف مكان السلف ويبني كما كان يبني تلك سنة الله في خلقه وقاعدة في العمران قلّ أن تخلّ في هيئة او تضعف الا لحق بها الفساد وساد فيها الخلل ، ومعنى الحديث ان أفضل ما يترك الرجل من اثر صالح بعد موته وما قدم في حياته ثلاث : اما ذرية طيبة صالحة تعرف حقه في تربيتها وتعليمها فتدعو له بالرحمة في مماته واما صدقة أي عمل

بردائم الاثر يناله ثوابه ويذكر به عند الناس واما علم يؤثر عنه يستفيد به الناس من بعده وكلها نعمت الآثار ونعم ما يعمل المرء ويكدح لنيلها والوصول اليها

﴿ الحكمة الرابعة والخمسون ﴾

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ

لقد شرع الله تعالى شرعه المنيف وبين لنا فيه الحلال والحرام فهو تعالى لذلك يحب لعباده المؤمنين ان يمتنعوا عما حرم ويجتنبوا كل مايشين من الآثام والرذائل حباً بهم وشفقة عليهم مما رتبه من الجزاء على الافعال، فمعنى الحديث الشريف: ان الله يغار على عباده المؤمنين غيرتهم هم على أنفسهم وحريمهم وغيرته عز وجل انما هي من جهة ان يأتي العبد ما حرم تعالى على عباده حباً بهم وصوناً لهم وشفقة عليهم من الوقوع في هذه الارجاس والخطايا المردية لهم

﴿ الحكمة الخامسة والخمسون ﴾

اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا

الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ

الظلم من أشد ما تسوء به حال الامم والافراد اذا ساد فيها وفشا بين بنيهـا لانه خروج عن الحد في العـدل والعدل أساس الملك فمتى اختل ميزانه باءت الاحوال بالخسران وآلت الامور الى البوار والدمار ، والشح عبارة عن شـدة الحرص والطمع والبخل بالحقوق والرغبة في اهتضامها ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : احذروا الظلم أي لا تجاوزوا الحد ولا تعتدوا بعضكم على بعض فان خطره عند الله تعالى كبير وعقابه شديد ، واحذروا الشح اي الحرص والطمع والبخل بالحقوق فان هذا قد أهلك من كان قبلكم من الامم كالفرس واليهود واليونان والرومان واضـطرهم الى العـداء والنزاع والقتال واستحلال ما حرم عليهم من اغتصاب الاموال وهو ردع عن الوقوع في تينك الرذيلتين وفروعهما من الخصال الذميمة المردية وتحذير من مغابها السيئة واضرارها اللاحقـة . والآحاديث في أدب الباب كثيرة بل الاسلام مداره كله على اقامة قسطاس العدل وترك الظلم والعدوان وانه ممـا لا يترك ذنبه بلا عقوبة وان

دعوة المظلوم مستجابة وان الله لا يقدس أعمالنا ما لم يأخذ ضعيفنا حقه من قوينا وان من تولى الامور منا والقضاء فينا ينبغي له أن يكون على العدل الصرف والنزاهة والاستقامة . وجاء في الشح أي الحرص والطمع أحاديث كثيرة كلها تدل على قبح تلك الخصال وسوء حال المتلوث برذائلها في الحال والمآل

﴿ الحكمة السادسة والخمسون ﴾

لاَ يَبْلُغُ الْمَرْءُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَخْزُنَ مِنْ لِسانِهِ

اطلاق اللسان في الثرثرة والهذيان والتطوح في المقال ليس أقبح منه لانه كثيراً ما يكون ذلك فى الفشار او الكذب والغيبة والنميمة وما أشبه ذلك فكل هذا اذا اتصف به انسان كان ناقصاً عن الكمال . والحديث يقول : لا يصل المرء الى الايمان الكامل ويتصف به على الحقيقة الا اذا بعد عن تلك الخصال وجعل فمه كما قال العالم المناوي : « خزانة للسانه فلا يفتحه إلا بمفتاح اذن الله » اي انه يصونه ولا يتكلم الا بما فيه مرضاته وخير نفسه وهيئته وذوي عشيرته . ولقد جاء في حديث آخر ما نصه : « اذا اصبح ابن آدم فان الاعضاء كلها تكفر

اللسان فتقول اتق الله فينا انما نحن بك فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا

﴿ الحكمة السابعة والخمسون ﴾

الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ ما اكْتَسَبَ

اذا تحرى الانسان معاشرة الكمل وتخلق باخلاق افاضل الرجال وتمسك بمبادئهم عن محبة ورغبة كان لعمري معهم ان لم يكن بالجسد فبالروح والمنهاج والاخلاق وكان معهم في الآخرة وانما لا يوصله الى ذلك كله ولا يكسبه اياه الا عمله الذي هو عتاده فان كان خيراً فهو مع الخيرين في الدنيا والآخرة وان كان شراً فلكل ما اكتسب . واما الحب بغير ذلك فلا ثمرة فيه . وهل يجنى السكر من الحنظل .

﴿ الحكمة الثامنة والخمسون ﴾

إِيَّاكُمْ وَالْهَوَى فإِنَّ الْهَوَى يُصِمُّ وَيُعْمِي

الهوى انصراف النفوس الى الرغبات وتحول الوجوه والعزائم في الامور لدرجة تأخذ على اللب خناقه وتسد على العقل المنافس فلا يلتفت اليه فيما تنزع اليه الاهواء ولا يوسط ويستخدم في تلك الشؤون وهذه حالة قبيحة وعادة فى البشر

كثيراً ما تجلب الندم فلا يعرف المرء سوء مغبتها الا في نهاية امره وعند شعوره بما يحيط به من الاخطار ولقد ذم الشارع الحكيم ذلك في غير ما حديث وفي هـذا الحديث يقول : احذروا الهوى اي الميول النفسية الفاسدة لانها تجعل المرء اصم عن سماع صوت العقل اعمى عن طريق الصواب والهـدى في مناهج الحياة

﴿ الحكمة التاسعة والخمسون ﴾

خَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ وَلاَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ كَلاًّ عَلَى ٱلنَّاسِ

الدنيا مزرعة للآخرة فمن يعمل فيها بالحق ويأخذ من الحياة نصيبه بالصدق ويعيش متبعاً لما امر الله به عباده من العمل للدارين وتجنب نواهيه لحظوة بالسعادتين كان لعمرى من خير الناس في هذا العالم . اما من قد تنصرف همته الى عمل الآخرة وهجر ما امر الله به في الحياة الدنيا فذاك ليس بالافضل وكذلك من شغلته دنياه عن امور دينه فهو ايضاً بشر منزلة ، فالحديث صريح في ان افضل الناس منزلة من لم تشغله

دنياه عن آخرته ولا آخرته عن دنياه بل يعمل لهذه ولتلك حتى لايكون في معاشه عالة على الناس وهو حث على التزام حد الوسط في المطلبين ولذلك جاء في حكمة اخرى: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»

﴿ الحكمة المتممة للستين ﴾

إِنَّ ٱلدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ ٱلدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ ٱلدَّلْجَةِ

امر الدين كله يسر وليس بعسر والتشديد فيه والتشدد فى امور العبادة ليس بالمحمود وقد جاء فى ذلك احاديث كثيرة لانه صارف للانسان عن امور دنياه وهي مطلوبة للحياة والاستعانة بها على نيل السعادة الابدية وهل يحصد المرء بلا زرع فالتيسير في أمر الدين انما هو لمصلحة الدين نفسه وأما التشدد فما يحمل النفس على الملل والضجر فضلا عن مخالفة ناموس هذا العالم وما كان الدين إلا لتسديد خطى الانسان فيه حتى تطمئن النفس وترجع الى ربها راضية مرضية، ومعنى

الحديث ان الاسلام ذو يسر ولا يغالبه أحد أي لا يتعمق في أعماله أحد ويترك الرفق الاعجز وانقطع فيغلب وهو شأن كثير من المتنطعين في الدين وليس المراد منه منع طلب الاكمل في العبادة فانه محمود على كل حال وانما المراد به منع الافراط المؤدي الى الملال أو عدم احسان العمل والاشتغال عن المعاش فلذلك قال فسددوا أي الزموا السداد أي الصواب من غير افراط ولا تفريط وقاربوا أي ان لم تستطيعوا بلوغ الاكمل فاعملوا بما يقرب منه وابشروا بالثواب على العمل واستعينوا على عبادة ربكم وصلاتكم له بالغدوة صلاة الغداة والروحة بعد الزوال وقليل من الدلجة بالفتح والضم أي الليل . فكأن الانسان مسافر في هذا العالم فنبه الى أطيب أوقات نشاطه ليستعين بعبادة ربه ومناجاته فيها حتى يبلغ نهايته بلا عناء ولا تحمل تعب مع المداومة على ما يسهل عليه طريقه في الدنيا التي أعمالها المعاشية تقتضي العناء واستفراغ شطر القوى

﴿ الحكمة الحادية والستون ﴾

طَلبُ ٱلْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ

أصبح من قبيل تحصيل الحاصل القول بفوائد العلم

ومنافعه ومزاياه في الامم والافراد رجالا ونساء والقرآن المجيد يقول : « لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ويقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وهذا الحديث الصحيح يقول ان طلب العلم واجب على كل مسلم والعلم لعمري ينقسم الى علم معاد وعلم معاش وكلاهما مرتبط بالآخر وكلاهما يعلم من مقاصد القرآن المجيد لزوم طلبه والارتشاف من رحيقه للنفع الدنيوي والاخروي ، فالعلوم الشرعية مثل الفقه والتوحيد والتفسير والحديث كلها ترجع الى صلاح المرء في معاده ومعاشه وآدابه في سلوكه الاجتماعي ، والعلوم الدنيوية مثل اللغة والادب والحساب والهندسة وتقويم البلدان والتاريخ والفلك والكيمياء والطبيعة والاقتصاد السياسي والمنزلي والزراعة ونحوها كلها ترجع كذلك الى صلاح الانسان في دنياه وتعينه على أمور دينه ، واذا كان طلب العلم فريضة كما هو نص هذا الحديث الصحيح فلا جرم كان ترك هذه الفريضة المحبوبة لذاتها ولغيرها من اكبر الآثام وشر الجرائم وانه ليحق للامة الاسلامية بناء على هذا أن تجعل أمر التعليم إجباريا وعاما لتخرج من إثم مخالفة هذه الفريضة

﴿ الحكمة الثانية والستون ﴾

مَنْ اُسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ

مما يجلب بين الناس المحبة ويصلح ما بينهم من الروابط والالفة جلب النفع ودفع الضر . والنفع للاصدقاء والاخوان غير قاصر على الماديات من حيث إيصال المعايش أو مد يد المساعدة والرفد والمؤاساة في الشدة بل هو يشمل أيضاً الامور المعنوية التي تستلزمها الحياة كالارشاد الى الخير والتنبيه الى تجنب الشر ثم دفع الغيبة الى اشباه ذلك مما يستطيع المرء أن ينفع به اخوانه واصدقاءه والمرء قليل بنفسه كثير باخوانه ولا يصفي المودات ويزيد في التحاب غير ذلك . ولقد جاء في حكمة نبوية أخرى : « من يكن في حاجة أخيه يكن الله في حاجته » وفي الحديث أيضاً : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قيل كيف أنصره ظالماً قال تحجزه عن الظلم فان ذلك نصره » وفى حكمة ثالثة : « من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله فى الدنيا والآخرة » فهذا كله من تمام النفع ، ففي الحديث الاول الحث على المساعدة وفي الثاني الحض على نصرة الاخ في الشدة ومنعه عن الظلم وفي الحديث الثالث وجوب رد الغيبة عنه اذا اغتيب في مجلس

﴿ الحكمة الثالثة والستون ﴾

إِنَّ ٱلرُّقَى وَٱلتَّمَائِمَ وَٱلتُّوَلَةَ شِرْكٌ

مما يؤسف عليه أشد الاسف اعتقاد كثير من عوام المسلمين وخاصتهم في الرقي والتمائم والسحر والنجوم والرمل الى اشباه ذلك من الخرافات التي نهى الشرع عنها وحرمها لان الاسلام لعمرى هو الدين الذي لا يرى مؤثراً في الكون غير الله عز وجل وأن السحر واشباهه مما يخيل للناس ليس منه شيء بضار الا باذنه تعالى وانه فتنة بل كفر ثم هو لم يأب على أهله الركون على الاسباب المعقولة والوسائط غير المنكورة فهو كما يأمرنا بالتداوي من الامراض واتقاء الوقوع في الاخطار والمهالك وتجنب مثل المجذوم والفرار منه ونحو ذلك يأمرنا أيضاً بان لا نثق بالرقي ولا نعول على التمائم والسحر والنجوم والرمل وسماع أقوال الدجاجلة لانه لا يعلم الغيب الا الله ولا مؤثر في الحقيقة غيره ، فمعنى الحديث الشريف ان الرقي أي التمتمة باللسان تستعمل للاستعانة بها على الحصول على أمر بقوى تفوق القوى الطبيعيه وهي ضرب من السحر ويستثنى من ذلك الرقية ببعض آى القرآن الشريف تبركا فانه مما

لا بأس به ، والتمائم جمع تميمة وأصلها خرزات كانت نساء العرب تعلقها على رأس الطفل وفي عنقه كما تفعل الى الآن بعض النساء عندنا من تعليق الحرز والاحجبة لاطفالهن دفعاً للعين والامراض في اعتقادهن . والتولة وهي ما يعمل من السحر لتحبيب المرأة الى زوجها الى اشباه ذلك . فكل هذا عده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرك لان العرب من أهل الجاهلية الاولى وغيرهم من الامم الوثنية كانت تعتقد تأثير ذلك وتقصد به دفع الاقدار ونيل الاوطار وهو ليس في العير ولا في النفير منها ولعمري ان وقوع هذه الامة حتى الآن في مثل هذه الخرافات والسفاسف واعتقاد تأثيرها لما يدل على مقدار جهلها بحقائق دينها وزيغها عن محجته البيضاء

﴿ الحكمة الرابعة والستون ﴾

لَعَنَ ٱللهُ ٱلنَّائِحَةَ وَٱلْمُسْتَمِعَةَ

من العادات القبيحة المتبعة في هذا القطر انه اذا مات الميت أتوا بالنائحات والنادبات والتفت النساء حولهن يسمعن وينحن ويصرخن صراخاً مروعاً يمكثن على ذلك أياماً وينصبن المآتم على هذه الصورة أسابيع الى تمام الاربعين يوماً ويزرن

بعضهن بعضاً فيها غير عالمات بما في هذا من المضار ولا آبهات
لما فيه من حرمة وخطيئة وافساد للصحة واضاعة للمال لذلك
كله لعن الله كما في الحديث النائحة والمستمعة لنواحها وندبها .
ولقد جاء في حديث آخر : « كل ندابة في النار » وقال عليه
الصلاة والسلام في حديث ثالث « ليس منا من لطم الخدود
وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية »

﴿ الحكمة الخامسة والستون ﴾

إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ
إِلَيْهَا إِذَا كَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا لِخِطْبَتِهَا

اعتاد الجمهور من الناس في البلاد الاسلامية أن لا ينظر
احدهم الى من يخطبها زوجة له اكتفاء بما تصفه له الخاطبات
او ذوات قرابته من النساء من صفات من يخطبها وفي هذا
اضرار كثيرة قد لا تعرف الا بعد الزواج مع ان الشرع
الاسلامي يجيز لخاطب المرأة ان ينظر الى وجهها وهذا الحديث
يدل دلالة صريحة على انه لا بأس ان ينظر الانسان الى
مخطوبته انما بشرط ان يكون نظره اليها بقصد التزوج بها
ويشترط لمن ينظر الى الفتاة ولا يتزوجها ان لا يبوح بما رأى

وخوف هـذا وحده هو الذي اضطر النـاس الى الاكتفاء في الخطبة بما ترى الخاطبات وتصف ذوات قرابة الخاطب . وانىّ لنا بهيئة اسلامية تراعى آداب ذلك على أفضله

﴿ الحكمة السادسة والستون ﴾

إِنَّ أَحَقَّ ٱلشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهَا مَا ٱسْتَحلَلْتُمْ بِهِ ٱلْفُرُوجَ

اعتاد كثير من الناس ان يهضموا النساء حقوقهن في المهور ومؤخر الصداق وما في حكم ذلك من النفقات الشرعية حتى ضج المجتمع من شرور ذلك وتعبت الهيئة في مداواة دائه ولقد مر في حكمة مضت النهي عن حق الضعيفين المرأة واليتيم وفي هذا الحديث يقول النبي عليه الصلاة والتسليم : ان احق الشروط واولاهـا بالوفاء وكلها الوفاء به ضربة لازب الحقوق التى استحللتم بها النساء من المهر والنفقة ونحو ذلك

﴿ الحكمة السابعة والستون ﴾

أَبْغَضُ ٱلْحَلَالِ إِلَى ٱللهِ ٱلطَّلَاقُ

الطلاق جائز في الاسلام وله حد ينتهى اليه كما هو نص القرآن المجيـد : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح

باحسان » وهو مع جوازه يبغضه الله لانه فصل بين نفسين
كان حقاً عليهما ان يعيشا متحابين متصافيين لما بينهما من الروابط
ويحصل لهما عادة من الذرية فلذلك كره مع جوازه للمصلحة
الصحيحة ولكننا نشاهد من أحوالنا بمزيد الاسف ما يندى له
جبين الاسلام حياء من كثرة فشوه بين طبقاتنا الدنيا وكثرة
ما يحتال له للرجعة وينشأ عنه من المفاسد في المجتمع فحرى بالمسلمين
لعمري وقد علموا من هذا الحديث وامثاله أن لا يكثروا من
التلفظ به ولا يطاوعوا النفس والشيطان في النطق بالطلاق لمجرد
ماقد يحدث عادة بين الزوجين من الشجار والا اثموا لهذا الصنيع
الذي يبغضه الله وان احله للمصلحة العامة. ولقد جاء في حديث
حسن : « ان الله يوصيكم بالنساء خيراً فانهن امهاتكم وبناتكم
وخالاتكم ان الرجل من اهل الكتاب يتزوج المرأة وما تعلق
يدها الخيط فما يرغب واحد منهما من صاحبه » وجاء في
حديث آخر صحيح توصية بالنساء وانهن كالضلع في العوج
والمقصود به الحث على حسن معاشرتهن وسياستهن لضعفهن
عن الرجل حتى لا ينشزن ولا يحتاج الى طلاقهن : استوصوا
بالنساء خيراً فان المرأة خلقت من ضلع اعوج وان اعوج ما في

الضلع اعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل اعوج فاستوصوا بالنساء خيراً »

﴿ الحكمة الثامنة والستون ﴾

خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ مَنْ تَسُرُّكَ إِذَا أَبْصَرْتَ وَتُطِيعُكَ إِذَا أَمَرْتَ وَتَحْفَظُ غَيْبَتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ

الزوجة الصالحة والمرأة البارة بزوجها وبيتها وأولادها هي التي تمدح ويحث على اختيارها في الاسلام ولا يتم للمرأة ذلك الا اذا ربيت وهي فتاة في بيت أبيها تربية صالحة والا فمن أين يأتيها التخلق بالمحامد والاتصاف بالفضائل في معاملة زوجها حتى يسر بها وتطيع أمره وتحفظه في ماله ونفسها. فمعنى الحديث الشريف : أفضل النساء أي الزوجات من تسرك اذا نظرت اليها لسماحة وجهها وطلاقة محياها وحسن أدبها وعذوبة منطقها وحديثها معك واطاعتك فيما تأمرها به من أمورك ثم تصون نفسها عن كل نقيصة وتحافظ على مالك بحسن التدبير لنفقة دارها ومهام بيتها مما تعد النفقة فيه صدقة لرب البيت وربته كما جاء في حديث آخر : « اذا انفقت المرأة

من بيت زوجها غير مفسدة كان لها أجرها بما انفقت ولزوجها اجره بما كسب وللخازن مثل ذلك » فمن رزق امرأة مثل هذه فحرى به أن يغتبط . ولقد جاء في حديث آخر كالحث على اختيار المرأة الصالحة « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي »

﴿ الحكمة التاسعة والستون ﴾

أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ

من اكمل الآداب والفضائل الدينية بل الانسانية أن لا تبرز النساء في الطرق والاسواق متبرجات متزينات متعطرات يقصدن بذلك إظهار زينتهن ومحاسنهن . فكل هذا حرمه الدين الحنيف كما استهجنته الآداب الصحيحة في سائر الامم وان جرت به العادة في كثير من الهيئات الاجتماعية الآخذة بقشور التمدين دون لبابه ونحن اذا نظرنا في كتابنا العزيز وأحاديث رسولنا الكريم الفيناهما ناهيين عن ذلك آمرين النساء المسلمات بالحشمة والوقار . ومعنى الحديث الذي نحن فيه : أية امرأة أزينت ووضعت العطر وخرجت على الناس

ليروا محاسنها ويشموا رائحة عطرها فانها في حكم الزانية. ثم قال: وكل عين زانية أي التي تنظر الى محاسن النساء أو الرجال لان النظرة كما جاء في حديث آخر من سهام ابليس حثاً على غض البصر والتزام العفة والوقار. وجاء في حديث آخر: « خير نسائكم الولود الودود المواسية المواتية اذا اتقين الله وشر نسائكم المتبرجات المتخيلات وهن المنافقات لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الاعصم » فهذه الآداب صريحة وهي من اكمل الآداب ولو تمسك بها المسلمون والمسلمات لنالوا سعادتهم في انفسهم وذراريهم وأزواجهم وأموالهم

﴿ الحكمة المتممة للسبعين ﴾

أُخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ أُلقليلُ مِنْهُ

الغلو في الدين مكروه كما جاء في حديث آخر صحيح: « اياكم والغلو في الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » والمقصود التغلغل في العبادات والتعمق فيما لا يجدي ودين الله يسر وليس بعسر فالمرء لعمري اذا أخلص دينه لله أي اعتقد بوحدانيته تعالى ورسالة رسله على نحو ما بسطه في كتابه المجيد وأدى ما افترض الله عليه ثم تأدب بالآداب الشرعية الاجتماعية

وعامل الناس معاملة حسنة كفاه ذلك لنيل سعادته الدنيوية والاخروية . وهناك آثار كثيرة للحث على التزام الوسط . فمنها حديث : (عليكم من الاعمال بما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا) وحديث : (عليكم هدياً قاصداً عليكم هدياً قاصداً عليكم هدياً قاصداً فانه من يشاد هذا الدين يغلبه) وحديث آخر : (خير دينكم أيسره) على أنا كثيراً ما نشاهد من المتعمقين في الدين والمتشددين فيه أموراً قل أن يشاهد مثلها في عوام الناس اولئك السذج الذين لا يعرفون غير القليل من أمور الدين ولكن لاخلاصهم فيه كانوا أجمل سيرة وسريرة من سواهم مصداقا للحديث الشريف : (كم من عاقل عقل عن الله أمره وهو حقير الشأن عند الناس ذميم المنظر ينجو غداً وكم من ظريف اللسان جميل المنظر عظيم الشأن هالك غداً في القيامة) اذ المدار كله على الاخلاص اخلاص الدين لله دون كثرة العلم أو العمل . وفى الحديث الصحيح أيضاً : (أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل)

﴿ الحكمة الحادية والسبعون ﴾

إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ

لعمري ان جمال الله تعالى ظاهر للعيان فى حسن مبتدعاته وجلال مصنوعاته وبديع آياته فى ارضه وسمواته بين اشجار باسقة وجبال شاهقة وازاهير منسقة وطيور ذات رياش بديعة مغردة وحيوان بلغ منتهى العجب في جمال خلقته وانهار تجري ومياه تنزل من السماء من سحاب مسخر على صور واشكال بديعة وبحار عظيمة تجري فيها الجواري المنشآت وتستخرج منها الاسماك والحيتان واللؤلؤ والمرجان وزرع تأكل منه الانعام ويتغذى بحبه وثمره الانسان وسماء ذات ابراج ونجوم وكواكب تتلألأ في القبة الزرقاء وقد بلغت منتهى الابداع والاحكام فى سيرها في مداراتها على مدار السنة فكل هذا يدلنا اعظم دلالة ببديع صنعه واتقانه على جمال الله تعالى صانعه وجلاله وان احتجب عز وجل بالنور عن الابصار وعرف بالبصائر لذوى الابصار كما قال ابو العتاهية

وانا لفي صنع ظاهر　　يدل على صانع لا يرى

واذا كان تعالى جميلا جليلا بهذا المقدار الذي لا يتناهى احب من الانسان خليفته في ارضه ان يكون على شيء من هذا الجمال ويعني بالجمال ها هنا ليس جمال الصورة اذ هذا

ليس للانسان بد فيه ولا قدرة عليه وانما يعني به جمال النفس وجمال الفعل وبالجملة كل ما يقدر الانسان على تجميله وتحسينه من المصنوعات والفنون الانسانية ثم وسائل الحياة وتنظيف البدن واللباس والمسكن وتنظيم اثاثه ولقد جاء في حديث آخر « ان الله تعالى طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا افنيتكم ولا تشبهوا باليهود » وما فرض الغسل والوضوء والتزام الطهارة في البدن والثوب الا لذلك وما جعل من السنة الشريفة او الفطرة المنيفة تنظيف اجزاء البدن وحلق بعض الشعر والختان وتنظيف افنية الدور واماطة الاذى عن الطريق ورفع القمامة من المسجد ونحو ذلك الا لمثل تلك الغاية من حب الله الجمال والنظافة لانه تعالى جميل يحب الجمال ويحب النظافة واتقان الصناعة

﴿ الحكمة الثانية والسبعون ﴾

عِفُّوا تَعِفُّ نساؤُكُمْ وَبِرُّوا آباءَكُمْ تَبِرَّكُمْ ابْنَاؤُكُمْ وَمَنْ أَتَاهُ أَخُوه مُتَنَصِّلاً فَلْيَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ مُحِقًّا كَانَ أَوْ مُبْطِلاً فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الحَوْضَ

العفاف من امهات الفضائل التي حث عليها الاسلام سواء في الرجال او في النساء فاذا ترك الرجال القوامون على النساء هذه الفضيلة واتبعوا شهوات النفس الخبيثة وحرموا صيانتها عن ارتكاب الفاحشة واستحكم هذا الداء في الهيئة جر ذلك ولا ريب الى فساد النساء ودخولهن هذا المدخل القبيح طارحات للعفاف ظهريا ولبرقع الحياء جانبا ولذلك قال صاحب منظومة الآداب المرداوى

ومن عف تقوى عن محارم غيره
يعف اهله حقا وان يزن يفسد

وقال محمود الوراق

رأيت صلاح المرء يصلح اهله
ويعديهم داء الفساد اذا فسد
ويشرف في الدنيا بفضل صلاحه
ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

والآحاديث والآثار في هذا المعنى من قبح الزنا والخيانة وفضل العفاف والصيانة كثيرة .

أما بر الوالدين ففيه من الفوائد الفردية والاجتماعية مافيه

فهو لعمري من اكرم الآداب واسماها وهو امر واجب ولو كانا على غير دين المرء وفي هذا البر ما فيه من التأثير الحسن والقدوة الصالحة اذ يقتدى الابناء بالآباء في بر الوالدين وكذا في العفو عن الاخوان والصفح عن زلاتهم ما يديم المحبات وتستصفى به المودات ويجعل لصاحبه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى ففي الحديث الامر بالتزام العفة لانها تفيدنا وتؤثر في نسائنا فلا يتطلعن لغير ازواجهن والحث على بر الوالدين لانه ينتج مثله في ابنائنا اقتداء بنا فيما صنعنا مع آبائنا ثم فيه الحض على الصفح عن زلات الاخوان وقبول اعذارهم لان لصاحبه الدرجات الرفيعة والورود على حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الواردين ونعمت الدرجة ونعمت المنزلة وفي هذا المعنى يقول عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه

اذا امرؤ من ذنبه جاء تائباً　　اليك ولم تغفر له فلك الذنب

﴿ الحكمة الثالثة والسبعون ﴾

عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ وَسَلُوا اللّٰهَ الْيَقِين

وَالْمعَافَاة وَلاَ تحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً

التحلي بالصدق من أعظم ما حث عليه شرعنا الكريم والاتصاف بالكذب من شر مانهى عنه ولذلك جاء في الحديث « اياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور الي النار وما يزال العبد يكذب و يتحري الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » وقال الشاعر

ما أقبح الكذب المذموم صاحبه وأحسن الصدق عند الله والناس

فالتمسك بالصدق وترك الكذب وطلب اليقين والمعافاة وتجنب الحسد والبغض والتقاطع والتدابر ليس اكرم عند الله منه فمعنى الحديث الزموا الصدق فانه من البر وصاحب البر محبوب وهو يدخل صاحبه الجنة وتجنبوا الكذب لانه من الفجور والشرير الفاجر يدخل النار واسألوا الله اليقين والعافية لانه ليس شيء مما يعمل للآخرة يتلقى الا باليقين وليس شيء في الدنيا يهنأ صاحبه الا مع العافية والامن والصحة وفراغ القلب من الهموم والاكدار فجمع صلى الله عليه وسلم أمر الآخرة وما يصلح لها في كلمة وامر الدنيا وما يصلح لها في كلمة

أخرى ثم قال ولا يحسد بعضكم بعضاً بل كونوا أيها المسلمون انتم وسائر افراد الهيئة اخواناً متصافين متحابين فان ذلك انفع لكم واصلح لدنياكم ودينكم

﴿ الحكمة الرابعة والسبعون ﴾

أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ

محبة الخير لبني الجنس من أفضل ما حثنا عليه الشارع الحكيم ومن احب خير بني جنسه عاملهم احسن معاملة في مرافق الحياة لتصفو له الحياة من حيث تبادل الحقوق والواجبات وآداب السلوك بحيث يكون المرء كما يحب ان ينال حقوقه قبلهم تنال الهيئة حقوقها قبله عن رضا وارتياح منه ولقد جاء في حديث آخر زجراً وحثاً على ترك الحسد والتباغض بين الناس قوله عليه الصلاة والسلام « دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء وهي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الرأس والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا انبئكم بشيء اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم» والأحاديث الشريفة والآثار المنيفة في هذا الصدد كثيرة

﴿ الحكمة الخامسة والسبعون ﴾

مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سُخْطِ ٱللّٰهِ حَتَّى يَنْزِعَ

من شر مامنيت به الهيئات الاجتماعية كثرة الخصومات والمنازعات والمقاضاة في كثير من الاحوال وقد يكون طريق الحق فيها واضحاً ولكن يخترع الخصوم ومحاموهم لها الاشكالات والتفريعات ظلماً وعدواناً يقصدون بذلك اغتيال حقوق اصحابها واهتضامهم واذاهم ففي هذا الحديث يبين لنا رسولنا الامين المأمون ان من استعان في خصوماته بالطرق الظالمة والحيل الفاسدة استوجب والعياذ بالله سخط الله حتى يتوب من ذلك ويرد المظالم وفي هذا الباب احاديث كثيرة وحكم جليلة كلها تحث على ترك الظلم واعانة الظالم وتجنب شهادة الزور ونحو ذلك مما يستعين الناس به لهضم حقوق بعضهم بعضاً واغتيالها وهي لعمري من خير ما قيل في تحري العدل والانصاف لخير افراد الهيئة وسلامتها مما مرتعه وخيم وعاقبته شر وخسر

﴿ الحكمة السادسة والسبعون ﴾

إِذَا أَرَادَ اللّٰهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ وَتُقَاهُ فِي قَلْبِهِ وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ

مما يسعد به المرء فى الحياة ان يكون راضياً بحاله قانعاً بماله مغتبطاً بعيشه متقيا ربه خاشعاً له مؤدياً حقه ففي ذلك العز ورضا الله تعالى وفى القناعة والتقوى يقول الشاعر

افادتنا القناعه أي عز ... ولا عز اعز من القناعه
فخذ منها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعه

اما من يقصر همه على التكالب على الدنيا والحرص عليها فهذا وان حاز مثل مال قارون عد فى الفقراء لحرصه ونهمه فى الدنيا فكان فى الحقيقة فقيراً لتعبه وقلقه ولله در ابي العتاهية حيث قال فى بعض اشعاره الحكمية

الرفق يبلغ ما لا يبلغ الخرق ... وقل فى الناس من يصفو له خلق
لم يقلق المرء عن رشد فيتركه ... الا دعاه الى ما يكره القلق
متى يفيق حريص دائب ابداً ... والحرص داء له تحت الحشا قلق

فمعنى هذا الحديث الشريف ان الله اذا أراد بامرئ خيراً

ارضى نفسه واقنع فؤاده واسكن التقوى قلبه والخشية جنانه بعكس من سلبه هذه النعمة نعمة القناعة والتقوى فشقى وان كثر غناه وافتقر وان عظم ثراه لقلق نفسه واستحكام داء الحرص والطمع فى حشاه ولقد قال صاحب منظومة الآداب

فمن لم يقنعه الكفاف فما الى رضاه سبيل فاقتنع وتقصد

واراد بالتقصد هنا الاقتصاد والتزهد قال الشاعر

فاقتصد فى كل شيء تحظ بالعقبى وتحفظ
لا تكن حلواً فتؤ كل لا ولا مرا فتلفظ
واغتنم ذا العمر واعلم انه كالدر ملحظ
فاذا فرط فيه المرء لم يحمد ويعكظ (١)

﴿ الحكمة السابعة والسبعون ﴾

خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ

انما وجد الانسان في هذا العالم لينفع أي يعمل الخير ويدرأ الشر فمن كان بهذه المنزلة لاجرم كان خير الناس بين

---

(١) في القاموس عكظه يعكظه حبسه وعركه وقهره ورد عليه فخره

الناس بعكس ذلك الذى تكثر في الناس شروره ويطفح الكأس بطغيانه فلا يأمن الناس بوائقه ولا يرجون نفعه فهو لعمري بشر منزلة عند الناس ورب الناس ولقد جاء فى حديث آخر صحيح « ان شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من يخاف الناس شره » والشر ليس قاصراً على الشراسة وسوء الخلق وانما هو يشمل كل الرذائل المنهي عنها من الغيبة والنميمة واخواتها كما ان الخير يشمل كل مايتحلى به المرء فى الهيئة من صفات الكمال والرجولية

﴿ الحكمة الثامنة والسبعون ﴾

حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ وَالنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ

هذا الحديث من أبلغ الآحاديث وادقها حكمة خفية فاعمال الدين والآداب الانسانية الفاضلة المؤدية الى السعادة الحقيقية صعبة المرتقى ثقيلة على النفس لما ينازع النفس من مغررات العالم وزخارفه الظاهرة لاحتوائها على الاهواء والشهوات فلذلك قال بعض السلف

اهوى هوى الدين واللذات تعجبني
فكيف لي بهوى اللذات والدين

فلا بد من الوقوف بالنفس بارادة قوية عن تلك المغررات والشهوات فثم الجنة وثم ما يحدق بها من المصاعب والمكاره بعكس ما يؤدى الى النار والعذاب من اتباع الشهوات فانها للذتها وميل النفوس اليها ورغبتها فيها صارت لعمرك طريقاً الى النار بل فخاخا تصاد بها النفوس ان وجد المرء لذتها اليوم لقى منها العذاب الاليم فى الغد

مآرب كانت فى الشباب لأهلها نعيما فصارت فى المشيب عذابا

ولقد جاء فى حديث آخر « حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة »

﴿ الحكمة التاسعة والسبعون ﴾

مَا نَقَصَتِ ٱلصَّدَقَةُ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ ٱللّٰهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ لِلّٰهِ إِلاَّ رَفَعَهُ الله

خير ابواب البر الصدقة وهي تشمل كثيراً من أعمال البر والتعاون الانساني وقد وعد الله صاحبها مضاعفة الحسنات ونيل الاجر والثواب والبركة ونماء المال . والعفو والصفح عن زلات الناس لا يزيد صاحبه في الحقيقة الا عزاً ومهابة ومحبة

في الناس وكذا التواضع في غير مذلة ، فمعنى الحديث : ان الصدقة لا تنقص مال المرء بل تزيده ويبارك الله لصاحبها في ماله ، والعفو كذلك لا يزيد المتحلى به الا عزاً ومحبة له في النفوس وعلو المنزلة فى الهيئة وان التواضع ولين الجانب ليس فيه منقصة بل هو من دماثة الاخلاق التي يرفع الله بها اصحابها ويزيدهم رفعة عنده تعالى وبين بني الجنس « ومن تواضع لله رفعه » وسيأتي مزيد بيان في الصدقة وانها خير ابواب البر

﴿ الحكمة المتممة للثمانين ﴾

« الْوِحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ وَالْجَلِيسُ الصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ الْوَحْدَةِ وَإِمْلَاءُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنَ السُّكُوتِ وَالسُّكُوتُ خَيْرٌ مِنْ إِمْلَاءِ الشَّرِّ

يفضل الكثير من العقلاء الوحدة ويحبون العزلة لما فيها من الراحة والهناء والتفرغ الى النفس واستكمالها وتجنب جليس السوء وقد مر مثل الجليس السوء والجليس الصالح وفي هذه الحكمة يدلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان مجالسة اهل الخير والصلاح وذوى الاخلاق الفاضلة يفضل الوحدة لان

ما يتحدث به في مجالسهم من المعارف والحكم والطرائف خير من السكوت الذى يلتزمه عادة صاحب الوحدة اما اذا لم تحو المجالس غير السفاسف والنقائص كانت العزلة خيراً منها والصمت فيها لعمرى خيرا من الكلام . ولله در المرداوى حيث قال

وفي خلوة الانسان بالعلم انسه ... ويسلم دين المرء عند التوحد
ويسلم من قال وقيل ومن اذى ... جليس ومن واش بغيض وحسد
فكن حلس بيت فهو ستر لعورة ... وحرز الفتى عن كل عار ومفسد
وخير جليس المرء كتب تفيده ... علوما وآدابا كعقل مؤيد
وخالط اذا خالطت كل موفق ... من العلما اهل التقى والتعبد

﴿ الحكمة الحادية والثمانون ﴾

صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَاحسِنْ إِلَىَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَقُلِ الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ

التحبب الى الناس والتودد الى الاخوان وذوى الارحام مما حث عليه الشارع الحكيم لانه من افضل الامور لصلاح الاحوال ومواصلة من يقطع الانسان او يعاديه ومقابلة الاساءات بالاحسان تلك لعمرك الفضيلة التي يحق لصاحبها ان يسمي الانسان الكامل والرجل الفاضل ويضارع هذا المجاهرة بالحق والاعتراف بالخطأ والرجوع الى الصواب فليس

في باب الصدق والحق افضل منه ولا اكمل ، فالحديث انما يرشدنا الى هذه الآداب السامية اى ان نصل من قطعنا لنظهر كما لنا دونه وان نحسن الى من اساء الينا انرى الناس فضلنا عليه وان نجاهر بالحق ولو على انفسنا لتعظم منزلتنا واقدارنا لان متبع الحق والراجع اليه عظيما الخطر جليلا القدر بين الناس

﴿ الحكمة الثانية والثمانون ﴾

مَنْ بَاتَ كَلاًّ مِنْ طَلَبِ الْحَلَالِ بَاتَ مَغْفُوراً لَهُ

الاسلام يحث على العمل ويلزم المسلمين السعي في طلب الرزق والمعاش ويبين الحلال والحرام في ذلك كله بما لا يحتاج الى مزيد بيان ومعنى هذا الحديث الشريف من سعي وجد في طلبه الحلال ورزقه الطيب حتى رجع الى داره في آخر نهاره تعباً جزاه الله غفران ذنوبه والمعونة في عمله وفيه مزيد حث على الجد والنشاط في الاعمال ، ولقد جاء في حديث آخر « ان من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة وانما يكفرها الهم في طلب المعيشة »

﴿ الحكمة الثالثة والثمانون ﴾

لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلاَّ بِالدِّينِ أَو عَمَلٍ صالِحٍ

حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشاً بَذِياً بَخِيلاً جَبَاناً

المسلمون متساوون ليس لواحد منهم على الآخر فضل الا بالتقوى والاعمال الصالحة كما قال تعالى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ومعنى هذا الحديث الشريف اى الادب الجليل البادى لنا منه ان لا فخر لانسان على انسان الا بالتقوى والاعمال الصالحة وكفى الذين يفخرون على الناس ويشمخون بانوفهم متكلين على الغنى او الجاه او الحسب والنسب دون تحلى بتلك الخلال الكريمة ان يكون من خصال احدهم الصلف والغطرسة والبذاءة او البخل والجبن اى كفى بالمرء اثماً وحرمانا من الخير مهما عظم جاهه اونسبه ان يتصف بذلك واما الاتصاف بالمحامد من التقوى والاعمال الصالحة فثم ما يجب التنافس فيه وثم يكون التفاضل بين الناس :

حسب الفتى يتقي الرحمن من شرف وماعبيدك يادنيا باشراف

الحكمة الرابعة والثمانون

خَيْرُ أَبْوَابِ الْبِرِّ الصَّدَقَةُ

الصدقة وما في معناها من اعمال البر والاحسان كاطعام الجائع وكسوة العريان ومداواة المريض واعالة الارملة واليتيم

والمسكين كلها كما لا يخفى مما حث عليه الدين وجعل الله تعالى عليها من الثواب ما لا مزيد عليه في الآجل والعاجل لانها من أحسن ما تسعد به هيئة وتسلم به من الآفات الاجتماعية ولان فيها من التضامن والعطف والبر الانساني وصلة الارحام وحسن الوئام ما تشاهد آثاره الحسنة في الامم العاملة به واضدادها في غير العاملة به او التي لا ترتب اعمالها الخيرية على نظام يناسب احوال الزمان والمكان ونحن لو تأملنا في مثل هذه الاحوال لرأينا ان أفضل الصدقات في هذا الزمان ما انفق على الجمعيات الخيرية والملاجيء والمستشفيات بشرط أن يكون العاملون عليها مراعين وجه الله وروح التضامن الانسانى وحب الخير والشفقة على بني الانسان لا الفخر او الطمع

﴿ الحكمة الخامسة والثمانون ﴾

مَا كَرِهْتَ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مِنْكَ فَلَا تَفْعَلْهُ بِنَفْسِكَ إِذَا خَلَوْتَ

كل انسان يحب ان لا يطلع الناس على عيوبه ونقائصه وكل منا يود ان يظهر امامهم بمظهر الفضل والكمال وان تخفى

عليهم معائبه حتى لا يراها انسان ولا يعلم بها مخلوق مخافة العار وخشية السبة بها ، فاذا كان في المرء مثل هذا الاحساس وذيالكم الشعور لجدير به ليكون الكامل على الحقيقة ان يقلع عن عيوبه الخفية حتى يكون ما ظهر منه للناس كما بطن من حاله لان في هذا الكمال كل الكمال ، ولقد جاء في حديث آخر شريف ارشادا لنا الى الدواء الناجع في تهذيب اخلاقنا وتطهير اعراقنا قوله صلى الله عليه وسلم « البر حسن الخلق والاثم ما حاك في صدرك وكرهت ان يطلع عليه الناس » ناهيك ان مالا يطلع عليه الناس يطلع عليه الله وهو تعالى اولى بان يخشى ويتقى وفي هذا الحديث ابلغ حكمة لتهذيب النفس وتطهيرها من العيوب والرذائل .

﴿ الحكمة السادسة والثمانون ﴾

مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ أُمْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لَقِيَ ٱللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ

من الاحوال الاجتماعية الفاسدة اغتيال الحقوق او جحدها وان يحلف عليها الايمان الكاذبة لا يبالي المرء بذلك ولا

يكترث لسوء عقباه فهذه الحال من شر الاحوال التي منيت بها بعض النفوس الخبيثة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لنا في هـذا الحديث ان من اقدم على حلف اليمين الكاذبة ليهتضم بها حقوق الناس غضب الله تعالى عليه يوم يلقاه ومن يحلل عليه غضب الله عز وجل فقد خسر وما ربح لا في الدنيا ولا في الآخرة نعوذ بالله من شر ذلك .

﴿ الحكمة السابعة والثمانون ﴾

مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيُعِينَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الإِسْلَامِ

قد يكون لذوى الجاه والثروة في العالم اشياع واتباع يتبعون اقوالهـم ويتحرون رضاءهم في الحق والباطـل حتى اذا قامت المنازعات والخصومات القضائية ونحوها بينهم وبين سواهم مشوا مع أولئك المتبوعين ونصروهم على خصومهـم ولو كانوا ظالمين غير مدركين بان هذا حرام بل هو كما قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم خروج عن الدين وهي عادة تشاهـد بمزيد الاسف في الارياف فترى اهل القرية يؤيدون هـذا العمدة وذلك الشيخ او الوجيه على خصومهم في الدعاوى بشـهادات

الزور والاقوال الكاذبة مع علمهم في الغالب بما قد يكون فيها من الباطل والكذب والظلم وانهم في تلك الدعاوى مبطلون وانه لا قصد من وراء اعمالهم الفاسدة سوى الانتقام اواهتضام حقوق فقير او ضعيف أو أكل مال يتيم او أرملة أو اذية انسان او اهدار دم بريء الى اشباه ذلك فاعانة الظالمين في هذا كله مع العلم بها وتحققها داخل في هذا الضلال وخروج عن الاسلام الذى يأمر أهله بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي

﴿ الحكمة الثامنة والثمانون ﴾

مَا مِنْ أَحَدٍ يَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الأُمَّةِ فَلَا يَعْدِلُ فِيهِمْ إِلَّا كَبَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي النَّارِ

العدل أساس الملك وعتاد كل أمر في الجزئيات والكليات الاجتماعية بحيث ان من تولى أمراً فمال عن جادة هذا العدل فسد النظام العملي وعراه الخلل وتطرق اليه الفساد وانبنى عليه من ثم الضرر في الانفس والاموال ولئن نال المسبب لكل هذا جزاءه الادبي وعقابه الدنيوى فان له فوق ذلك عقاباً شديداً عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فالحديث يحث

لعمرك كل عامل من عمال الحكومة الاسلامية بان يكون على العدل الصرف فيما يتولاه من الاعمال وان من ينحرف عن جادته بالظلم والجور وعدم الاستقامة والمحاباة كانت النار جزاءه فيكب فيها

﴿ الحكمة التاسعة والثمانون ﴾

إِذَا آتَاكَ ٱللهُ مَالاً فَلْيُرَ عَلَيْكَ فَإِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُهُ عَلَى عَبْدِهِ حَسَناً وَلاَ يُحِبُّ ٱلْبُؤْسَ وَٱلتَّبَاؤُسَ

من عادة كثير من البخلاء والحريصين على الدنيا ان لا تشاهد عليهم مظاهر الغنى واليسار ولا حسن اللباس اشحهم او عدم اكتراثهم لذلك فالحديث يقول لهؤلاء الناس مادام الله تعالى قد انعم عليكم بالمال فكلوا والبسوا وتصدقوا لانه عزوجل يحب ان يرى أثر النعمة على عباده لما فيها من المصلحة لهم وهو سبحانه وتعالى كما يكره الاسراف والتبذير يكره كذلك البؤس اى الخضوع والتذلل على جهة الطمع والتباؤس اى اظهار التحزن والتخلقن والشكاية للناس شحا وحرصاً

﴿ الحكمة المتممة للتسعين ﴾

إِنَّ أَحْسَابَ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ هَذَا ٱلْمَالُ

المال من أفضل النعم التي جعل الله تعالى عليها قوام الحياة في هذا العالم فلذلك حبب الى النفوس لما رأت فيه من قوة لها وحبب اليها أصحابه وعظموا من اجله فمعنى الحديث الشريف ان شأن أهل الدنيا لمعرفتهم بقيمة المال يرفعون من كثر ماله وان كان وضيعاً ويضعون المقل وان كان رفيعاً وحسبنا بذلك عظة وحثا على اقتناء المال من الحلال وصرفه فى الحلال المثمر لنعيش ذوى حسب محبوبين بين الناس بما أحرزت أيدينا من تلك القوة ولله در من قال .

ان قل مالي فلا خل يصاحبنى　　او زاد مالي فكل الناس خلاني

وهذا لايقدح في القناعة النفسية ولا في مبدأ الاعتدال في طلب المال

﴿ الحكمة الحادية والتسعون ﴾

إِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ

منيت هذه الامة ولا سيما في عواصم مدنها الكبيرة ببذاء السن سوقتها ووقاحتهم وجرأتهم في الطرق والاسواق لنقص التربية وفساد الهيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها فلا

يوقرون كبيراً ولا يرحمون صغيراً ولا يحترمون امرأة حتى عمت البلوى وطفحت الكأس بشرورهم مع ان ديننا الحنيف ينهى عن ذلك كله ويأمر بالتزام الادب والحشمة والوقار وهو المعبر عنه بالحياء فوجود هذه الخلال في المرء دليل لعمرى على تمكن الايمان من قلبه وتحلى نفسه به بعكس البذاء والوقاحة فانه دليل التجرد من روحه فالحديث يهدينا فى الموضوع الى سواء السبيل ويبين لنا ان الحياء فينا دليل على ايماننا وان أصحابه اى المتحلين بالادب والحشمة لهم الدرجات العالية في الجنة وان البذاء والوقاحة من الحرمان من الدين والجفاء للايمان واهله وجزاء صاحبه العذاب بالنار والعياذ بالله وصفوة القول ان الامة لتأثم اذا هي لم تزرع هذه الفضائل في نفوس أبنائها وتلا في تلك الاضرار عن نفسها بنفسها

﴿ الحكمة الثانية والتسعون ﴾

مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ فِي عَمَلِهِ فَهُوَ أَجْرٌ لَكَ فِي مَوَازِينِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

التخفيف عن الخادم من أحسن الخصال ومعنى ذلك ان لا يكلفه ما لا يطيق ولا يرهقه في الخدمة وان يحسن أجره

وبره وطعامه ولباسه كما جاء في أحاديث اخرى ومعنى هذا الحديث الشريف : ما خففت وسهلت على خادمك فى عمله وخدمته اياك جعله الله تعالى لك أجراً في موازينك وحسناتك يوم القيامة ولقد جاء في حديث آخر « اخوانكم خولكم جعلهم الله قنية تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ولا يكلفه ما يغلبه فان كلفه ما يغلبه فليعنه »

﴿ الحكمة الثالثة والتسعون ﴾

إِنَّ أَهْلَ الْمَعْرُوف فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ وَإِنَّ أَوَّلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ

اهل المعروف انما يعنى بهم اهل التقوى والبر والاحسان والمروءة وحسن السلوك في العالم ومعنى الحديث ان أصحاب هذه الصفات الجليلة هم المجازون بافضل الجزاء عند الله تعالى في الآخرة المتسمون بتلك السمات وانهم السابقون الى دخول الجنة والحظوة بنعيمها المقيم قبل سواهم لجلالة اقدارهم وعظم منزلة ما تحلوا به منها في حياتهم

﴿ الحكمة الخامسة والتسعون ﴾

إِذا سَرَّتكَ حَسَنَتُكَ وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ

المرء ذو الضمير الحي والوجدان الصحيح والايمان الخالص انما هو الذى تسر سريرته ويرتاح ضميره لما يعمل من الحسنات ويقوم به من الواجبات واذا ما بدرت منه سيئة فسراع ما يوبخه ضميره عليها ويؤنبه وجدانه فمن كان بهذه الصفة لا جرم دلت تلك الحالة النفسية منه على انه مستكمل الايمان وسلامة القلب وان وازع نفسه قوى وشعوره الادبي متيقظ حتى انه يتأثر فيبادر الى اصلاح خطئه والتوبة من زلله كما ارشد اليه الحديث ويفرح ويسر وينشط اذا قام بالاعمال الصالحات والاحاديث في اتباع السيئة الحسنة لتمحها وتغلب خصالها على الانسان كثيرة وفي القرآن المجيد «ان الحسنات يذهبن السيئات»

﴿ الحكمة الخامسة والتسعون ﴾

الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ

الايمان هو الاعتقاد القلبي ثم العمل الذى هو فرع له وهو يشمل عندنا معشر المسلمين الاعتقاد بالله وحده لا شريك

له ثم الاعتقاد بالملائكة والكتب المنزلة على الانبياء ثم الاعتقاد برسالة الانبياء والرسل الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم اجمعين ثم الاعتقاد بالبعث والحساب والجنة والنار كما نص عليه القرآن المجيد ثم اعتقاد ان الاشياء كلها في الحقيقة من خير ومن شر بقضاء الله وقدره وهذا الحديث أصل من أصول الدين الحنيف وفيه رد على المعتزلة القائلين بان الانسان انما هو الذى يخلق أفعاله وفي هذه المسألة خلاف كبير بينهم وبين أهل السنة الآخذين بالوسط في الامر «وخير الامور أوساطها»

﴿ الحكمة السادسة والتسعون ﴾

الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ اِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً

الاسلام هو الامتثال والانقياد لامر الله تعالى وحقيقته الشرعية شهادة ان لااله الا الله وان محمداً رسول الله والقيام بفروض الصلاة والصيام والزكاة والحج عند الاستطاعة كما جاء

في الحديث المشهور « بني الاسلام على خمس شهادة ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » وهذا هو ظاهر الاسلام أما باطنه فما وراء ذلك من المقامات النفسية واستحضار عظمة الله ومشاهدته في كل عمل من الاعمال الظاهرة والباطنة مما عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاحسان كما تراه في هذا الحديث الآتي

﴿ الحكمة السابعة والتسعون ﴾

الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ

ينبغي للمرء المسلم ان يستحضر عظمة الله وعظم سلطانه في خليقته فاذا استحضر المرء ذلك في جميع شؤونه كان كأنه يشاهده عز وجل في كل أمر فالحديث يرشدنا الى ان الاحسان في الايمان هو استحضار مشاهدة الله فى كل عباداتنا واعمالنا لانه تعالى معنا في كل أمر وان لم نره عيانا فهو يرانا ويعلم سرنا ونجوانا ولعمري ان من راقب ذلك وادركه بثاقب بصيرته ازداد ايماناً وتقوى وامتلأ ورعاً وخشية .

﴿ الحكمة الثامنة والتسعون ﴾

إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ مِنْ عِبَادَةِ ٱللهِ

حسن الظن بالله من اكرم ما تحلت يه النفوس المؤمنة به لانه تعالى عند ظن العبد به وهو عز وجل المتصف بجميع المحامد والرحمة الواسعة فاذا حسن العبد ظنه بالله في كل امر له كان فى عبادته تعالى قال العزيزى فى شرح هذا الحديث « اى حسن الظن بان يظن ان الله تعالى يرحمه ويعفو عنه من جملة حسن عبادته فهو محبوب مطلوب لكن مع ملاحظة الخوف فيكون باعث الرجاء والخوف فى قرن » ولقد جاء فى حديث آخر « أنا عند ظن عبدي بي ان خيراً فخير وان شراً فشر » فيجب على المؤمن أن يحسن ظنه دائماً بالله تعالى وان يخشاه

﴿ الحكمة التاسعة والتسعون ﴾

أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْدُعَاءُ

التضرع الى الله تعالى والابتهال اليه عز وجل بالدعاء ليس اكرم منه على الله لانه من افضل العبادة اذ العبادة ما شرعت الا للخضوع والخشوع والتوسل اليه تعالى فلبها الدعاء ، وللدعاء آداب وشروط من الاخلاص والادب وعدم

الغفلة واستحضار عظمة الله تعالى وعظم شأنه ورحمته والاحاديث في الدعاء وفضله كثيرة وفى احدها (ليس شيء اكرم عليَّ من الدعاء) وافضل الدعاء ما كان فى الصلاة ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاكثار فيها منه فقال (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا من الدعاء)

﴿ الحكمة المتممة للمائة ﴾

أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأَدِّ الزَّكاةَ وَصُمْ رَمَضَانَ وَحُجَّ الْبَيْتَ وَاعْتَمِرْ وَبَرَّ وَالِدَيْكَ وَصِلْ رَحِمَكَ وَاقْرِ الضَّيْفَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَزُلْ مَعَ الْحَقِّ حَيْثُ زَالَ

كل هذه الفضائل الدينية والاجتماعية التي ضمنها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم هذا الحديث الشريف من خير ما أمرنا به في الاسلام وحثنا عليه أدبه وهي كما تفيد المرء في دينه تفيده في نفسه وهيئته الاجتماعية فمعنى الحديث: أقم الصلاة أى اعطها حقها من تعديل أركانها وحفظها من وقوع ما يخل بافعالها وأقوالها وأد زكاة مالك الى مستحقيها أو الى الامام وصم رمضان اذا لم يكن ثم عذر شرعي يجيز لك فطره وحج البيت واعتمر ان توفرت لك شروط الاستطاعة وبر

والديك أي أصليك فانه ليس أفضل من برهما وصل رحمك أى قرابتك وان بعدت واقر الضيف النازل بك فتكرمه وتطعمه وأمر بالمعروف الذى لا ينكره شرع ولا عرف وانه عن المنكر أى ما خالف ذلك وبان ضرره فى الهيئة وزل مع الحق حيث زال أى در مع الحق كيف دار وكلها كما ترى من أجل ما يعلو به كعب المرء دينياً ودنيوياً وتصلح به أحواله وأحوال هيئته الاجتماعية

﴿ الحكمة الحادية بعد المائة ﴾

سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ ٱللّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ إِمَامٌ: عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ ٱللّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ،وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللّهِ فَاجْتَمعَا عَلَى ذَلِكَ وَافْتَرَقَا عَلَيْهِ ،وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ ٱللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ

أختم هذه المختارات بهذا الحديث الجامع لشتات

الفضائل الحاث على أجل الخلال ولعمرى فان هذه الاوصاف التي تحلى بها هؤلاء السبعة جديرة بان ترفعهم عند الله جل وعز الى الدرجات العلى لانها من اكرم الخلال وأعمها نفعاً في صلاح الدين والدنيا والمراد بالظل على قول بعض العلماء من شراح الحديث الكرامة والكنف والحماية من العذاب وعنى بالامام العادل الخليفة وما في حكمه من الحكام والولاة لان في عدلهم بين الناس أشرف الاعمال المصلحة المنجية وبدأ به للاهمية وعموم النفع الذى يحصل على يديه اذا عدل وثاني أولئك المكرمين عند الله الشاب الذى ينشأ على تقوى الله تعالى وعبادته متلبساً بها مائلاً اليها بفطرته وحسن تربيته وثالثهم ذاك الرجل المعلق قلبه بالمسجد أى الشديد الحب له لتقواه وحبه وأنسه بعبادة ربه في الجماعة وليس معناه دوام الجلوس في المساجد ، الرابع الرجلان المتحابان فى الله أى أحب كل واحد منهما صاحبه لايحبه الا لله لا لغرض دنيوى فاسد فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه واستمر هذا شأنهما فى محبتهما وصداقتهما حتى تفرق المجالس بينهما . وخامس هؤلاء المفضلين عند الله تعالى الرجل الذى ملأ الخشوع قلبه والتقوى والايمان الكامل

ما بين حناياه فاذا خلا بنفسه ذكر الله وتأمل فى جلائل نعمه وتقصيره هو وسواه من البشر فى حقه تعالى وما تقابل به تلك النعم العظيمة من الكفران والزيغ خشع قلبه وفاضت عيناه بالدموع خشية وتقوى وسادس هؤلاء الرجل العفيف عن الخنا حتى ان دعته امرأة ذات جمال ومال الى نفسها عف وامتنع وقال فى نفسه « اني أخاف الله رب العالمين » وسابع السبعة ذاك الذى يحب أن يتصدق بصدقته حبا بوجه الله لا للرياء ولا السمعة والتمثيل له بان لا تعلم شماله ما تنفق يمينه من أبلغ ما قيل فى المعنى . تمت هذه الرسالة والحمد لله تعالى



فهرس الكثير من مواد الكتاب واعلامه

مرتب على حروف المعجم

حرف الالف

﴿ حرف الباء ﴾

﴿ حرف التاء ﴾

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

﴿ حرف السين ﴾

﴿ حرف الشين ﴾

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

﴿ حرف النون ﴾

﴿ حرف الهاء ﴾

﴿ حرف الواو ﴾

حرف الياء

تمت



فهرس

صفحة

صحيفة

﴿ الباب الرابع ﴾

(أدب العمل)

﴿ الباب الخامس ﴾

(أدب المعاشرة)

صحيفة

﴿ الباب السادس ﴾

(أدب الحكومة)

﴿ الباب السابع ﴾

(أدب النفس)

صحيفة

﴿ القسم الاول ﴾

(أدب النفس مع الخلق)

﴿ القسم الثاني ﴾

(أدب النفس مع الخالق) .

صحيفة

﴿ الباب الثامن ﴾

(خلاصة)

(تمت الفهرست)

(تنبيه) وقع بعض خطأ مطبعي فى هذا الكتاب
نرجو القارئ فيه المعذرة

